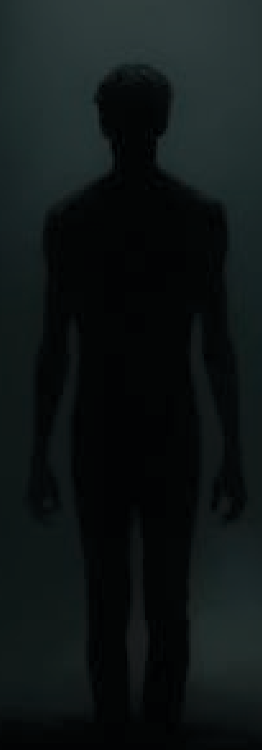
ماهر أحمد مرعي

أرشدني لبوابة اليأس

رواية في ثلاثة مشاهد
فيها الكثير من البوح الصامت



الطبعة الثانية

أرشَدَني لبوّابة اليأس

أرشَدَني لبوّابة اليأس

ماهر أحمد مرعي

رواية في ثلاثة مشاهد فيها الكثير من البوح الصامت

الطبعة الثانية



توتول للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق- الحلبوني - شارع المكتبات
٠٠٩٦٣١١٢٢٥٦١٩١
٠٠٩٦٣٩٣٣٢٤٧٨٢٠

totolsy٢٠٢٠@yahoo.com
totolsy٢٠٢٠@gmail.com

ماهر أحمد مرعي

أرشَدَني لبوّابة اليأس

رواية في ثلاثة مشاهد فيها الكثير من البوح الصامت



-الإهداء-

إلى كلّ من حاول كسرّي، إلى كلّ من راهن على فشلي، إلى كلّ من سعى لضرب سمعتي، إلى كلّ من خذلني، أقول: ها أنا هنا، في روايتي الأولى، وليست الأخيرة.

إلى أولئك الذين يجرحون بكلماتهم، وإلى الذين يخذلون بأفعالهم، وإلى من لا يعرفون الحبّ إلا في حبّ الذات، دون أن يمنحوا جزءاً من قلوبهم لمن حولهم، فكّروا في تصرفاتكم، فالحياة قصيرة، وقد تكون أقصر مما تتوقعون.

أما أولئك الذين ظلّوا ثابتين معي، رغم قسوة الزمان وتقلباته، من أهلي وأصدقائي الذين لا يتعدّى عددهم أصابع اليد الواحدة، فأنتم كنزي الوحيد في هذا العالم القاسي. قد لا أعرف حقًا إن كانت محبتكم لي صادقة بقدر ما أصدّقها، أو إن كانت قلوبكم تحملني كما يحمل قلبي حبّكم، لكنني أعترف بأن وجودكم هو ما يجعل أيامي أقل ظلامًا وأكثر احتمالًا.

كلمات الشكر تبدو قليلة أمام ما أشعر به نحوكم، لكنها كلّ ما أملك للتعبير عن خوفي الدائم عليكم وحبّي الذي لا ينضب. لكلّ واحد منكم، أقول كما قالت رابعة العدوية" :أحبّك حبّين، حبّ الهوى.. وحبًا لأنك أهل لذاك ".أنتم الضوء في ظلمة حياتي، واليد التي تمتد لتسندني حين أسقط. وإن كنت لا أدري يقينًا مدى صدق مشاعركم نحوي، فأنا أتمسك بما أراه فيكم، وبما يجعل الحياة أقل قسوة في وجودكم.

أنتم المعنى الحقيقي لكلّ لحظة أقاوم فيها وأمضي قدمًا، والسبب الذي يجعلني أستطيع الاستمرار، حتى لو كان قلبي يتساءل أحيانًا: هل أحبّكم وحدي؟

-مقدمة الطبعة الثانية-

إلى قرّائي الأعزاء،

حين صدرت الطّبعة الأولى من كتابي " أرشدني لبوابة اليأس" ، الّتي لم تكن مجرّد صفحات مطبوعة، بل كانت انعكاسًا لتجربة فكريّة وعاطفيّة خضتها معكم. لم يكن هدفي أن أروي قصّة فحسب، بل أن أتحدّث عن ذلك الصّراع الدّاخليّ الّذي يسكننا جميعًا، عن الألم الّذي نبحث له عن معنى، وعن الأمل الّذي نُشكّك في وجوده.

لقد كانت ردّات أفعالكم تجاه الرّواية شهادة صادقة على أنّ الكلمات، حين تُكتب من القلب، تصل إلى القلب. لقد قرأت تأملاتكم، تلقيت رسائلكم، وشعرت بكلّ تلك الأحاسيس والمشاعر الّتي شاركتموني إياها—بين من رأى نفسه في سطورها، ومن وجد فيها انعكاسًا لألمه، ومن تأملها بعين الفيلسوف الّذي يبحث عن إجابات أكثر ممّا يبحث عن خلاص.

هذه الطّبعة الثّانية ليست مجرّد إعادة نشر، بل هي امتداد لهذا الحوار الصّامت بيني وبينكم. لقد حرصت على إعادة ترتيب بعض الأجزاء، وتنقيح اللّغة، وانتقاء كلمات أكثر عمقًا وجمالًا، بحيث تصل إلى كلّ قارئ يقرأ بقلبه قبل عقله.

وإن كنتم قد وجدتم في الطّبعة الأولى بعض الأخطاء اللّغويّة، فسامحوني، فذلك لم يكن إهمالًا مني، بل لأنني كنت مشغولًا بنزف روحي على الورق أكثر من انشغالي بتهذيب الجملة وصقل العبارة. أتمنى أن تكون هذه الطّبعة انعكاسًا أكثر وضوحًا وصادقًا لما حاولت التّعبير عنه. مشكور كلّ من آمن بهذه الرّواية، كلّ من ناقشها، كلّ من

وجد فيها شيئًا منه. أنتم جزء من هذا العمل، ومن مسيرتي الكتابيّة، وسيظلّ قلمي مدينًا لكم.

بامتنان عميق،

ماهر أحمد مرعي

"ربما أشعر باليأس في هذه اللحظة، ولكنّ هذا لا يعني بأي حال أن لك الحق في تعكير مزاجي بنصائحك الساذجة والمضلّلة وأنت تواجه المشاعر نفسها. اهتمّ بأمورك واحترم مساحتي."

"كلّما اقتربت من البشر ازداد حبّي للكلاب."

"يعود الناس إلى ماضي الشخص عندما يرعبهم حاضره."

– المقدمة –

حينما يجرحك أحدهم، تتعلّم معنى الكراهية، وفي المقابل، حينما تجرح أحدهم، يلجّ عليك الاستياء والذنب لما فعلت أيضًا. إن استشعارك للألم ذاته يمكّنك من الشعور بالرحمة تجاه الآخرين، وهذا ما يميّزنا نحن بني البشر. سألت نفسي عندها: "ما الذي أقصده بهذا القول؟ هل كلامي غير واضح؟ أعتقد أن الذي ذكرته هو ما يسمى بالنضوج. نضوج؟ ما الذي أعنيه؟ عليّ أن أعرف ذلك بنفسي."

النضوج يبدأ بالألم، كيف يحدث هذا؟ هل الألم هو سبيلنا الوحيد للنضوج؟ وهل كلّ ناضج رضخ للألم؟ أيعقل ذلك؟ إن الموضوع يختلف بين فرد وآخر عبر التجارب، فالتجارب مختلفة والاختلاف واجب ليميّزنا عن الآخرين. إن الشعور بالألم وتقبّل الألم ومعرفة الألم هو الذي يجعلك تفهم ألم الآخرين. كلّ تلك الأمور التي ذُكرت تساعدك على النضوج. فكم من شخص قابلناه في حياتنا وجدناه في قمّة النضوج الفكري وهو في سن الشباب؟ وكم من شخص قابلناه وهو في آخر مراحل عمره وهو في طور النضوج الفكري؟ كلّ تلك الأسئلة لا إجابة قاطعة لها لأن الاختلاف واجب في هذه الحياة.

رغم منفعة النضوج المبكر على الإنسان إلّا أنّ نتائجه الأوليّة سلبيّة عليه، والسبب ليس كما يقول عامة الشعب بأن الشخص الناضج والذي يعيش النضوج في عمره الصغير لن يعيش شعور مراحل عمره. هذا الجواب أو هذا الاستنتاج بديهي وحتى الطفل الصغير يعرفه ولكن الاستنتاج الأعمق والأنسب لمثل هكذا حالة هو أن الشخص الناضج ذا

العمر الصغير رأسه مليء بزجاج مكسور، كلّما تحرّك يجرحه وكلّما أعمل عقله أفكاره تصعقه.
هذا ما حصل مع شخصيّة عاشت طفولتها ومراهقتها وشبابها مصابة بحمّى التفكير، تفكّر بما حصل وما يحصل وما سيحصل، هل نلقي اللوم عليها؟ أم أن هناك قوة قاهرة أجبرتها على العيش في هذه الدوّامة.
إن أغلب الشخصيات التي تعيش هذا الشعور، كأنها تعيش في عالم موازٍ لعالمها الخاص كطفلٍ صغيرٍ تائهٍ في أرضٍ مهجورةٍ، يلعب الغميّضة على أمل أن يجده أحد وينتزعه من هذه الدوّامة، فكثرة التفكير لا تأتي من عبث، بل هي نتاج الخذلان والحزن والاكتئاب أو ربما الخوف من الناس ومن الوقت ومن الأحداث ومن الوطن والخوف الأكبر من عمليّة التفكير الزائد هو أن تهوي بصاحبها إلى اليأس.
ليس الخوف أن يترعرع شخص ما في بيئة تشبهه نوعًا ما، من جهة شخصيته مع أشخاص ربما يجد نفسه بهم ومن ثم يسحبون البساط من تحت قدميه دون سببٍ ليتركوه في وسط بحرٍ هائجٍ وحيداً، وسط طقسٍ ماطرٍ في مكانٍ معزولٍ عن العالم، لن تصل فيه صرخاته له ولن يسمعها أحد. ولا حتى ليكبر في بيئةٍ عكس بيئته التي ترعرع فيها لينعتوه بالغريب عن بيئتهم وبأنه لم ينتمِ إليهم يومًا ولن ينتمي لأنه أتى من بيئةٍ مختلفةٍ عن بيئتهم مهما حاول وثابر لينتمي إليها وليكوّن صداقاتٍ مع أشخاصٍ لينسى ما عاناه في طفولته مع أشخاصٍ جددٍ في حياته لينهض ويقف على قدميه ويستمر في بناء مشروعه الإنساني. ولا حتّى بعد أن يقلب الطاولة على "البيئة الذهبيّة" الأخيرة وأن يعلن الثورة على نفسه وعلى كلّ من يقول كلمةً ليست في مكانها الصحيح، ليتّخذ قرارًا بنظره صائبًا وهو بأنه لن يفيده إلّا مسقط رأسه أي بيئته التي ينتمي إليها على

هويته وهي بيئة والديه قبل أن تكون البيئة التي دُوّن أنه ينتمي إليها، ليكتشف في نهاية المطاف أن الضربة الموجعة لا تأتي إلا من أقرب الناس إليه.

لم تولد الأمثال عن عبث. إن كلّ مرحلة يمرّ فيها الإنسان في حياته يقول لا أستطيع أن أكمل، لم أعد أتحمّل، ولم أتخيّل أن يحصل هذا. وسيقول لقد تعلّمت أنه يوجد الكثير من الناس الذين يؤذون ويضرّون فيصيبون أعزّ شيء نملكه، ولكنّني لم أتوقّع هذا المقدار من الأذى، فهم يستخدمون أساليب يعجز الشيطان أن يدركها.

في أي زمن نحن؟ من يقوم بتعليم الإنسان هذه الأمور؟ هل هي غريزته؟ أم أنّ الإنسان بالفعل كما وصفه دوستويفسكي بأنه كائن حي يسير على قدمين، ناكرٌ للجميل..؟

كل تلك التساؤلات لا جدوى منها، وحتى لو وجدنا إجابات لها لن يتغيّر شيء. هناك مقولة سمعتها: "إنّ كل الطرق تؤدي إلى روما"، أما أنا فأقول: " إنّ كلّ الطرق ترشد إلى اليأس".

– الفصل الأوّل –

بداية الوهم : سرادق الطفولة

من أين يجب عليّ أن أبدأ؟ هل ينبغي لي أن أنطلق من حروف باهتة؟ أم أن أبدأ بكلمات مغموسة في المعاني؟ هل يجب أن ألتفت إلى جُمل متناثرة أم أن أختار الفقرات الحيويّة؟ كلّ هذه الاستفسارات تدور في ذهني دائمًا، وأنا أسعى لوصف المشهد الأول الذي انطلق منه ذاك الفتى في مسيرة حياته في خريف عام ١٩٩٧. كانت تلك السنة بداية رحلة في قرية جبليّة صغيرة، يقف على يمينها جبل وعلى يسارها بحر، قرية مميّزة بهدوئها وبساطتها وبحب أهلها. في ذلك الزمن، لم يكن هناك تكنولوجيا متقدّمة تسيطر على الحياة، بل كانت البساطة والتجمّعات العائليّة هي السائدة. تتبادر إلى الأذهان ذكريات طفولته البريئة، حيث كان ينشأ في حضن عائلته وأصدقائه، الذين كانوا يمتلكون كلّ صفات الحبّ والتقدير والود. كانت الساحة أمام منزله مكانًا يجتمع فيه العائلة والأصدقاء، وكانت أصوات الضحك والدردشة تعلو وتتردّد في الأرجاء والابتسامات لا تفارق الوجوه أبدًا. كلّ تلك التعابير النقيّة كانت تحمل في طيّاتها معنى عميقًا بالنسبة له، فهي ليست مجرد كلمات عابرة بل تمثّل قيمًا ومبادئ أساسية لحياته لتوجيهها نحو المستقبل، مؤمنًا بأن حبّ الآخرين وتقدير العلاقات الإنسانيّة هما أساس الوجود بل أساس الإنسانيّة. إنها فلسفة حياة أن تعتبر العلاقات الإنسانيّة شيئًا مقدّسًا يجب المحافظة عليه والتمسّك به وترسيخه في الوجدان.

لا يحقّ لأي شخص أن ينهي علاقة دون سبب مقنع، سبب واضح ومبرّر، هذا التصرّف يطلق عليه في مجتمعنا "قلّة الأصل". إنها حقيقة لا

يمكن إنكارها بتاتًا، فكلّ إنسان قد مرّ بمواقف جعلته يشعر ولو لمرّة بقلّة الأصل، ولكن المهم هو الاعتراف بأن الحياة لا تخلو من التحدّيات التي تجعل الإنسان يتساءل عن موقعه وقدرته بل وعن مكانته في العالم.
إن التربية في نهاية التسعينيات وبداية الألفيّة لم يكن التعبير عنها أمرًا سهلًا، فقد كان جيلها يعيش بين الماضي والحاضر، يسترجع حلاوة الماضي ويواجه بها مرارة الحاضر.
طفولة ذاك الطفل كانت كفيلم درامي مفعم بالأحداث الحزينة، وكأي طفل آخر، عاش داخل قفص عائلة بسيطة تكافح من أجل لقمة العيش. والده اللبناني، الذي كان يعمل كسائق سيارة أجرة، كان رمزًا للتضحية والبذل، يعمل بجهد شديد ليطعم أطفاله ويسعى لأن يكملوا تعليمهم الذي كان يعتبره كنزًا. أما والدته السوريّة الرائعة، فقد كانت العمود الذي تستند إليه حياتهم، أفنت سنوات عمرها في خدمتهم، علّمتهم الصبر وقوة الإرادة وكيفيّة مواجهة الصعوبات. في كلّ صباح كانت والدته تقوم بتوجهيه عند استيقاظه لمواجهة يومه بكلّ ما فيه من أحداث، وتدعمه ليحضّر نفسه للمدرسة بحلّته المتواضعة، وعندما يعود بعد يوم طويل، كانت دائمًا هناك لتستقبله بابتسامتها الدافئة وحضنها الحاني، وكانت القبلات المليئة بالحب التي تطبعها على جبينه تشعره بالأمان والحنان. ليس هذا فقط، بل كانت هي من تدرسهم، حيث كانت تجلس بجواره بعد الغداء، وتجمع بينه وبين أخيه الذي يكبره بست سنوات، والتوأم اللذين كانت والدتهما تعمل كعاملة نظافة في إحدى المدارس لكسب لقمة العيش. كانت تلك اللحظات القليلة السعيدة تشكل فرصة لهم للتلاقي واللعب معًا، كأنهم مجتمع صغير يعيش في عالم خاصّ.
تلك الذكريات بقيت حاضرة في ذاكرته، تجلب معها مشاعر الحنين والأسى، حيث عرف فيما بعد أنها كانت الفترة التي تشكلت فيها

شخصيته وتوجّهت من خلالها حياته نحو مسارها الحاليّ. كان كُلًّا من التوأم يمثّل له رمزًا للارتباط الروحي في سنوات الطفولة، ولكن ما الذي يعنيه حقًا أن يكون شخصًا كأخ روحي؟ هل يمكن للروح أن تجد شقيقًا في الآخر؟ أم أن الروح تبني صِلاتها على الانتماء؟

اكتشف أن كلّ تلك الأوهام والأحلام الوردية التي رسمها في ذهنه لم تكن سوى وهم مؤلم، وذلك لأن البشريّة، بطبيعتها، تلهث وراء مصالحها الشخصيّة.

يسير الإنسان على خطى المنفعة، حيث يعطي من يملك ويحرم من لا يملك، وإن كان يفعل ذلك، فإنه يفعل ذلك لأجل مصلحته الخاصة. إنها حقًا حياة غريبة، لا شك في ذلك، فهي تبدو وكأنها لعبة معقّدة يلعبها الجميع.

التوأمان، ولدا من أم سورية وأب أرمني، كان لهما أثرٌ عميقٌ في حياة والدته، فقبل أن يبدآ رحلة طفولتهما، كانت والدته تبذل جهودًا جبّارة في تربيتهما وتنشئتهما وكأنهما ولداها. كان يتشارك معهما الطبق نفسه على المائدة، ويحضّر الدروس معهما، ويمضون أوقات اللعب متشابكين، وينامون في الفراش نفسه، لكنهما لم يكونا مهتمّين بالتعليم كما كان الأمر بالنسبة لأخيه الأكبر سنًّا منه بست سنوات الذي لم يكن يعجبه الذهاب إلى المدرسة. وعلى الرغم من أنهما كانا أكبر سنًّا، إلّا أنّهما كانا معه في الصف الرابع والخامس، وحتى في الصف السادس، كانا متمسّكين بالمستوى الدراسي نفسه.

تلك اللحظات العتيقة ربما فاتت مواعيدها، ربما لأنه لم يعد يعلم عن التوأمين شيئًا. كيف حدث هذا؟ ربما لأن الحياة تعلّم الإنسان كيف يعتاد على شيء ما ثم تأخذه منه لتريه أنه لا شيء يدوم إلى الأبد. ولكن هل هذا نهج عادل؟ هل يجب أن يفقد الإنسان الأشخاص الذين ترعرع

معهم، وشاركهم الطعام والشراب والدروس وحتى الفراش ليتعلّم؟ بالطبع، فالإنسانيّة تعتمد على التكيّف، على التأقلم مع كلّ شيء، سواء أكان ذلك مع مجموعة من الأشخاص أو مع بيئة جديدة أو حتى مع مشاعر مزعجة.
لا يوجد في الحياة من يقول: "اعتدتُ على السعادة" أو " اعتدتُ على النجاح"، فهذه المشاعر لحظيّة، تأتي وتذهب كزائر عابر. بل الجميع يردّد: " اعتدتُ على الحزن"، " اعتدتُ على الندم"، " اعتدتُ على الاكتئاب"، " اعتدتُ على الخيبة"، وحتى " اعتدتُ على اليأس". وكأن التأقلم أصبح لعنة خفيّة، تجبر الإنسان على استيعاب ما يسلبه الفرح والحياة، وتدفعه للعيش في ظلال الألم والخيبات.
إن التأقلم بهذا المفهوم ليس سوى قيد ثقيل، يُفرض على الروح للتكيّف مع واقع لا يُطاق. وحين يدرك الإنسان ذلك، يصطدم بحقيقةٍ أكثر قسوة: أنه مضطر للتأقلم حتى مع فقدان القدرة على التأقلم.
كان أحد التوأمين، الذي كان أكبر سنًا من شقيقه بدقائق، يتميّز ببشرة بيضاء نقية تعكس بريق الأمل، وابتسامة رقيقة ينبعث منها الدفء، وشعر أسود داكن كالليل الساحر. ملامح وجهه تظهر الحنان واللّطف، حتى أنَّ طيبته كانت تُظلّل طيبة أخيه الأصغر، الذي كان يملك وجهًا واضح المكر، وتظهر تجاعيد تحت عينيه عندما يضحك. لم يكن يتّسم بالمكر بشكل مفرط فقط، بل كان يستطيع تلوين الكذب بألوان متعددة، يختار اللون المناسب وفقًا للموقف بمهارة لا تُضاهى، وكأنه يتألّق بجماليّة الخداع دون عناء. كانت شخصيّته متناقضة مع شخصيّة أخيه، الذي كان يتمتّع بالبساطة والطيبة النقيّة، وهذا الاختلاف يمكن لأيّ شخص أن يلحظه من أول لقاء، فكل واحد منهما كان واضحًا بما يحمله في داخله.

كان يطرح على نفسه باستمرار تساؤلاً: "هل يمكن للطفل في صغره أن يدرك ويميّز هذه الصفات؟" منذ طفولته، كان يحلّق في سماء التفكير، وهو لم يتجاوز السن التي يفهم فيها تلك المشاعر والكلمات. كان يحاول فهم كلّ نبرة في الكلام، كلّ حركة في لغة الجسد، لأنه كان يرى أن في تلك التفاصيل تكمن معاني الحقيقة، وتنبعث منها صدقيّة المشاعر.

كيف استطاع الوصول إلى هذا الإدراك في سن مبكرة؟ هذا السؤال كان يدور في ذهنه دومًا، ولكنه لم يجد إجابة محددة، ربما لأنه كان يعيش في عالم مليء بالأسئلة دون إجابات، عالم تحكمه الأمور الغامضة والتناقضات المريرة.

كان يعتبر العلاقات شيئًا مقدّسًا، وكان يؤمن بأن الاهتمام بتفاصيلها وصدقها هو مفتاح الحفاظ عليها. فلم يكن يروم فقط أن يبني أو يكوّن علاقات، بل كان يسعى جاهدًا للحفاظ عليها، لأنه كان يعلم أن فقدان العلاقات يعني خسارة جزء من الذات. لم يكن يعتقد أن ذلك يعد غباءً، بل كان يرى في ذلك حكمة تولّد اتّزان الذات، حيث كان يدرك أن العلاقات الحقيقيّة ليست للجميع، وأنّ تعاطي الإنسان مع العلاقات قد يعكس صورة عميقة ليست فقط لشخصيته بل لمبادئه وقيمه.

وكان يتساءل أحيانًا إن كان تفكيره في تلك الأمور منذ صغره سيؤثر على مستقبله، هل سيكون ذلك الوعي العميق مزاجًا لرحلته في عالم مليء بالتناقضات والألغاز؟ هل سيكون تحليله المستمر للعلاقات والمشاعر سببًا في إخفاء الجمال وراء الحواجز؟ وهل سيجعله ذلك الاهتمام الزائد بالتفاصيل يتأرجح بين الحبّ والكراهية، حتى يعجز في النهاية عن معرفة أي منهما سيفوز بقلبه؟ وجد نفسه يتحدى مقولة جبران خليل جبران الشهيرة، تلك المقولة التي ستتجسّد في حياته بأشكال متعددة، حيث يقول: "تعجبني أغنية فأسمعها مئة مرّة حتى أملّ منها.. تعجبني أكلة

فآكلها يوميًا حتى لا أشتهيها.. يعجبني شخص فأراقبه حتى أرى عيوبه فلا أطيقه.. أنا أحبّ حتى أكره".

استطاع التمييز بين التوأمين، اللذين انفصلا عن عائلته بشكل مفاجئ وبلا سابق إنذار، بعدما انتقلا إلى مسكن جديد بعيد عنهم، ورغم أن والديهما ظلّا على تواصل مع والديه بشكل محدود لفترة وجيزة، إلا أن اللّهفة التي كانت تغمر التوأمين نحوه ونحو عائلته تلاشت. فما السبب؟ كيف يمكن لإنسان أن يفقد الشغف والحنين لشخص نشأ وتربى معه؟ هل الإنسان معقّد إلى هذا الحد؟ هل المشاعر يمكن أن تزول فجأة كما تتلاشى الأضواء في الظلام المطبق؟ أم تختفي فجأة كما تختفي أوراق الشجر أمام عاصفة شتوية قاسية؟

ظل الأخ الأكبر، الذي كان يتسم بالابتسامة الطيّبة، يزورهم بين الحين والآخر كنوع من الواجب فقط، لكنّ آثار قدميه اختفت فجأة عن عتبة البيت، هل هذا هو حال العلاقات الإنسانيّة؟ هل يتم التخلّي عن الشخص الذي نشأ وتربّى معه بتلك السهولة، بمجرد وجود شخص آخر يلمحه بطرف عينيه؟ هل هكذا يُلقي الشقاء بشخص دون أدنى شفقة؟ هل تُمحى الأيام وكأنها صورة لم يُعجب بها على هاتف؟ أين العدل في هذا؟ يجد نفسه يتساءل باستمرار، ومهما بحث عن إجابة عن سؤال "أين العدل؟"، كان يجد الإجابة دائمًا تكمن في مرارة مرور الوقت.

كلّ فرد يختار مصيره بيديه، سواء بقرار منه أو من دونه، فإذا كان الاختيار بوعي، فالشخص يدرك تمامًا أنه على صواب مهما كانت النتائج، والأهم من ذلك أنه شخص واعٍ يدرك ما هو جيد وما هو سيئ، ويميّز بين الحق والباطل. أما إذا كان الاختيار دون وعي، فإن الشخص لا يمتلك النضوج الكافي ويحتاج إلى شخص آخر يرشده إلى الطريق الصحيح. وإذا استمر في المعاندة ورفض النصائح، فإنه لا مفر من

الوصول إلى طريق الندم، وحينها سيقول ويكرّر كلمة "لو" بأسف وتردّد، وهذا ما حدث مع التوأمين عندما عَلِم بمصيرهما مع مرور الزمن. "صاحب الابتسامة الطيبة"، هو اليوم جندي في الجيش السوري، في حين أن الآخر "الماكر" تخبّط بين قضبان العدالة، وهكذا تستمر الحياة في تقديم دروسها الغريبة، أليس كذلك؟
حياة الطفولة لم تكن محصورة فقط في حكاية التوأمين، بل كانت كحياة أي طفل عادي؛ يمضي يومه يذهب إلى المدرسة، يلتقي زملاءه، ثم يعود إلى المنزل، ينهي دروسه ويلعب مع بعض الرفاق. كانت حياته تسير بشكل مستقر تقريبًا على ذلك المنوال، حتى وصل إلى تلك المرحلة التي شهدت ابتعاد التوأمين عنه أو بعدما انقطعت الأحداث المشتركة بينهم.
حينها بدأت حياته تأخذ منحى آخر، على الرغم من عدم ارتباط ذلك بالتوأمين مباشرةً. أصبحت أيامه أكثر مللًا، وعلاقاته في المدرسة لم تكن كثيرة أو قويّة، إذ كان يتحلّى بطابعه الخجول الذي لم يفض للتفاعل الاجتماعي الوثيق. في الحقيقة، كان يفضّل أن يستمتع بهدوء الوحدة، ربما برفقة حيوانه الأليف، أو كان يغوص في لعبه الخاصة والكتب، أو حتى أن يلجأ إلى ألعاب الفيديو. فعلاقاته في المدرسة لم تكن إلا جحيمًا مقنّعًا لظاهرة أصبحت تدعى في حاضرنا "التنمّر". لم يكن التنمّر يستهدف فقط وزنه، بل كان يمتد ليشمل شخصيّته الخجولة وصوته المنخفض. ترى ما الذي يشعرون به عندما يقومون بمثل هكذا أفعال؟ هل يدركون حجم الآلام التي يسبّبونها؟ الشفقة تنتاب القلوب عندما يفكّر الشخص في معاناة هؤلاء الأطفال، فهم يجدون المتعة والتلذّذ بل حتى السعادة المزيّفة في تعنيف زملائهم كوسيلة من وسائل التخفيف من آلامهم

المستمرة داخل أروقة بيوتهم، حتى لو كانت تلك البيوت مكسوّة بوهم السلام.
لم يكترث لأقوال الآخرين، فكلّ ما شغل باله هو العودة إلى دفء منزله، حيث يمكث في غرفته بمفرده وينغمس في عوالم الفيديو والكتب، هربًا من صخب الحياة الواقعيّة. هنا، في تلك الزاوية المظلمة، يجد السلام النسبي الذي يبحث عنه، ولو باتت لعبه الخاصة تبدو مملّة، فإنه لا يزال يستطيع الهرب إلى عوالم الدراما التلفزيونيّة، رغم أن الأمر قد وصل به إلى درجة يشتاق فيها إلى شخصيّات المسلسلات أو لعبة الفيديو أو كتبه أكثر من أصدقائه في الحياة الواقعيّة. ربما لو أُخبرت قصته لأحدهم، لرأى البعض أن الخطأ في سلوكه ذلك يعود إلى أهله.
ما علاقة الوالدين بكلّ ذلك؟ هل هم من دفعوا البيئة المحيطة به إلى التصرُّف بتلك الطريقة؟ هل هم من أوصوه بعيش ذلك الروتين اليومي؟ ربما أحاطوه بأجنحة الخوف والقلق الزائد حتى أغرقوه، وربما هم من شجّعوه على ذلك الانغماس العميق في العوالم الافتراضية. ولكن هناك العديد ممن عاشوا أو سيعيشون تلك التجربة. حتى لو حاولوا فرض تغيير على سلوكه، فإنه لن يقبل، فقد اختار ذلك النمط من الحياة بإرادته الخاصة، وهو يدرك تمامًا أنه وحده المسؤول عن اختياراته وتصرفاته، رغم ما قد يعانيه أو ما قد يفقده من علاقات إنسانيّة.
يبزغ الإنسان في هذا العالم المتشابك، يسعى للنمو والتطور حتى يشعّ نور الوعي في دواخله. يختلف ذلك التبصّر الروحي في التوقيت الذي يأتي به بين طفل وآخر، فمنهم من يظهر ذلك في سن متأخرة وآخرون في سن السابعة تقريبًا. حيث تضيء شعلة الوعي داخل الطفل، ويبصر الحقائق التي تخفيها زوايا الحياة. يكون هو الحَكَم على تصرفاته وميوله، يعيش في عالم يحمل تراتيل فرحه وألحان حزنه، فكلّ فرد يصوغ عالمه

الخاص، ينسج خيوطه المتشابكة من سعادته وأحزانه، وكما تتلاطم أمواج المحيط على الشاطئ، تتلاطم مشاعره بين فرح طاغٍ وحزن مطبق.
في تلك الحقبة الزمنية، كان لديه صديقٌ وحيد يأتي إليه بين الحين والآخر، لم يكن مجرد رفيقٍ بل كان جاراً له أيضًا. كانت عيناه زرقاوين، وشعره أشقر، وبشرته بيضاء، وكان يعاني من ضعف في السمع، فكان يحتاج إلى سمّاعات خاصة لتعويض ذلك النقص. كان لطيفًا في تعامله، ولكنه لم يكن من النوع الذي يمنح بلا حدود. علاقته به كانت سريعة الزوال، ولكنه كان يشعر بالحنين إليه إذا غاب لفترة قصيرة عنه، دون أن يدري لماذا. قد يكون السبب أن الذكريات تربطه معه ومع التوأم لأنه كان جاره السابق عندما كان يعيش مع التوأم في بيته، أو ربما لأنه، على الرغم من انتقاله إلى منزل بعيد، كان يأتي لزيارته بشكل متكرر دون سبب واضح. ربما شعر بالوحدة، فكان من الصعب عليه أن يجد شخصًا يلعب معه ألعاب الفيديو ويضحكان معًا بالطريقة نفسها دون أن يشعر بحاجته إليه وتحديدًا في تلك الفترة.
في تلك اللحظة، قال لنفسه بكلّ حزن وتأمّل، "هو مؤقّت"، ولكن لم يكن يعلم إلى أي مدى يمكن أن تؤثر تلك الظروف على علاقاته ورؤيته للعالم من حوله.
باتت الأسئلة تدور في رأسه بلا توقف، هل حقًا تتلاشى علاقاته بسرعة كما يبدو؟ وهل يمكن أن يكون هناك عالم عادل يعامل الجميع بالمثل؟ بدأ يشعر بالارتباك والحيرة، فالناس ليست متساوية في قدرتها على التفكير والعطاء، وربما يجب عليه أن يعطي فرصًا أكثر لمعرفة إذا ما كانت نظرته للأمور ستتغيّر. فهو آنذاك لم يجد الإجابات عن سبب تمتع بعض الأطفال في عمره بدائرة واسعة من الأصدقاء، بينما يشعر هو بالوحدة والعزلة. فهو قريبًا سيدخل عالم المراهقة، المرحلة التي يجب

أن يُكوّن فيها الإنسان العديد من العلاقات لبناء شخصيّته وتطوير مهارات التواصل لديه، ولكنه لم يعد يدري إن كانت المشكلة تكمن فيه أم في الآخرين.

في النهاية، ابتعد ذو البشرة البيضاء والشعر الأشقر والعيون الزرقاء بلا مقدّمات، وكان السبب يكمن في اكتشافه لأصدقاء جدد، حيث شعر بلذّة أكبر في تواجدهم مقارنة بمن كان يمضي الوقت معه من قبل، فأصدقاء السهر والكحول، الذين لا يشرف الأهل عليهم، يمتلكون جاذبية خاصة، حيث يختبرون حدود اللغة والتعبير عن الذات الإلهية بطريقة غير مألوفة في المجتمع. وهنا تكمن لذة اكتساب لغة السباب والانتقادات اللاذعة في ثقافة تحديد الهويّة الرجوليّة في هذا المجتمع. ولكن، من يحدّد قواعد هذه الثقافة؟ ومن يمتلك الحق في نشرها؟ ورغم هذا الاستفهام، فإنه لم يبالِ كثيرًا، إذ كانت الأمور تظهر بشكل معقول بعض الشيء بالنسبة له.

لقد كان يومًا يشاهد البحر من حديقة منزله، كان البحر صافيًا تمامًا، كالسماء المرصوفة بالنجوم، وفي تلك اللحظة الهادئة، جلس في حيرة تامة وقال: "لا يهمّني كم من الألم يجب أن أتحمّل".

بالطبع، هذا ليس سوى جزء من الطبيعة البشرية، فحتى الطفل الأكثر سذاجة سينمو وينضج عندما يتعرض لمرارة الألم. يعتلي الألم عرش حياة الإنسان فيسيطر عليها، ويشكّل تصرفاته ومعتقداته وحتى كلماته، ولكنه كان دائمًا يتساءل، "هل يمكن للفرد أن يعتبر التخلّي عن أحبائه سبيلًا للنضوج؟ هل من الممكن أن يكون هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى النضج الحقيقي؟ هل هذا معقول بأي شكل من الأشكال؟"

في تلك المرحلة الحساسة من الحياة، يتلاقى كلّ شيء في مزيج لا يمكن التنبؤ به، فهي مجموعة من اللحظات المليئة بالحبّ والحزن العميق، بالفرح والألم، بالسعادة والخذلان، فكلّ تجربة تختزل في طياتها مجموعة متنوعة من المشاعر الجميلة والمؤلمة التي تنسجم معًا لتشكل شخصيّة الإنسان. تشبه تلك الفترة اليين يانغ الصينية، حيث يتراوح كلّ نقيض بين الأبيض والأسود، فكلّ بياض يحتوي على قطعة من السواد، وكلّ سواد يضم في طياته لمسة من النقاء، فهكذا هي الحياة، مليئة بالتناقضات والتجارب المتنوعة. ومن الطبيعي أن يدرك كلّ طفل في بداية رحلته تلك الحقيقة. وعلى الرغم من صعوبتها، فإنه يدرك أيضًا أن الحياة لا تعطي المرء كلّ ما يتمناه. لكنه كان يصمد بثبات شديد، فالبساطة والبراءة التي يمتلكها في شخصيته لا تتزعزع بسهولة بسبب التجارب القاسية. بل يظل مصرًّا على استكشاف مختلف جوانب الحياة رغم ما يواجهه من تحديات. ففي نهاية المطاف، هو ما زال طفلًا يسعى لاكتشاف العالم واستكشاف ذاته، رغم صغر سنّه وبراءته.

منذ الطفولة، وفي كلّ يوم أحد، كانت عائلة أبيه تجتمع في منزل العائلة الكبير، أي منزل جدّه، الذي يبعد كثيرًا عن منزلهم الواقع في القرية. كانت العائلة تضم العديد من الأفراد والأطفال، وكان أطفال العائلة يلتقون أسبوعيًا ليلعبوا معًا في حيّ بسيط وصغير، وسط أجواء تملؤها السعادة والبساطة. الجميع كانوا يعرفون بعضهم، وكانت الأصوات تملأ المكان، بين أصوات الأطفال والنساء اللواتي كنّ يتحدثن مع بعضهنّ البعض، قهقهات الرجال الذين كانوا يتناقشون في أوضاع البلاد وفي السياسة. لم تغب ذكرى تلك الأيام عن مخيّلته، فهي لا تزال محفورة في ذاكرته، بل أخذت من قلبه قطعةً. كم كانت تلك الأيام دافئة بنظره! ولم

يتوقع أبدًا أن يأتي يوم تُمحى فيه تلك الأصوات والمشاهد. الحقيقة بنظره هي "أن الأيام قد تغيّر حياة كلّ فرد منا، ولكنها لا تستطيع أن تغيّر الذكرى أو تمحوها، فالذكريات تعيش للأبد في قلوبنا".

لقد كان دائمًا يشعر بالتعلّق بتلك الحارة الصغيرة، رغم بساطتها ووجود المشاكل التي تواجهه من حين لآخر. لهذا، أصبح يملك الكثير من الذكريات التي لا تموت أبدًا، ولديه أصدقاء ينتظرونه من أسبوع إلى آخر ليزورهم ويلعب معهم. ولكن لماذا ينتابه ذلك الشعور؟ هل لأنه يعيش في قرية هادئة بعيدًا عن تلك الأجواء الحيّة؟ أم أنه شعور مؤقت يشعر به لأنه لا يعيش بشكل يومي في ذلك المكان؟ فهو يعتقد أنه لو كان يعيش حياته اليوميّة في ذلك الحي، لما كان الشخص الذي هو عليه اليوم. وهل هذا يعني أن البيئة تلعب دورًا في تكوين الحياة المستقبلية؟ بالطبع، فالسلوك الإنساني يستند إلى التجارب التي يعيشها الفرد في البيئة التي ينشأ فيها، والجميع يعلم ذلك، ولكن لماذا لا يقتنع الجميع بهذه الفكرة؟

يعود للمنزل الذي يبعد كيلومترات عن مسقط رأسه، والابتسامة لا تفارق وجهه، كالعاشق الذي قابل محبوبته وعاد إلى المنزل بعد أن قضى وقتًا رائعًا معها.

ينام ويستيقظ ليستعد للذهاب إلى مدرسته كما جرت العادة، لا شيء جديد، الروتين نفسه والحياة البائسة نفسها. كان معتادًا على ذلك الروتين وتقبّله وكأنه أمرٌ عاديٌ دون أن يثير فيه ذلك أي شعور، تَقَبّله كرجل مسنّ أخرس مشلول على سرير بين أحضان أولاده الذين يستهزئون به لأنه صار عبئًا عليهم وهو لا يستطيع أن يحرك ساكناً، لكنه كان ينظر للأمر كما وكأن رجلًا مسنًّا أبكمًا يعيش مع أولاده ويستهزئون به لكنه

يبتسم في وجههم لأنه لا يستطيع أن يفهم ما يقولونه. كان لا يفهم إلى أين تأخذه الحياة ولكنه كان مستمرًا بروتينه اليومي دون أن يكترث لشيء، على أمل أن القادم أجمل.

في صيف ٢٠٠٦ وتحديدًا في شهر تموز/يوليو، ذاك الشهر ليس بالشهر العادي على لبنان بل من أصعب شهوره، كان شهر النار والدمار، فقد شهد لبنان أيّامًا عصيبة على سكّانه، كان يختبئ في أحضان والدته من وهلة الحروب وصواريخ العدو الإسرائيلي الذي كان يقصف الجنوب اللبناني والجسور في مختلف المناطق اللبنانيّة، كان الجميع يعيش حياة مؤقّتة بنظرهم لا يعرفون متى يخطفهم الموت، فالحرب لا تعرف فقيرًا أو غنيًا، كريمًا أو بخيلًا، صغيرًا أو كبيرًا، رجلًا أو امرأةً، لكنها تعرف فقط الخائن والعميل.

الحروب لا تقدّم سوى المزيد من الخراب والهلاك، ولا تجلب إلا المأساة والمعاناة والألم والفقر. إنها تخلف آثارًا عنيفة ومدمّرة على الناس والمجتمعات، توسّع الجراح التي قد لا تلتئم بتاتًا، تفقد الحروب الأرواح البريئة التي لا حول لها ولا قوّة وتحرم العديد من الأسر من أحبائها. تصنع يتيم الأب وعجيّ الأم ولطيم الأبوين، لا يمكن للحروب أن تعزّز السلام أو الازدهار بأي شكل من الأشكال، بل إنها تعمّق الجراح فقط. وكم من فتيات بعمر الزهور كسرت قلوبهن بفاجعة استشهاد وموت رجالهنّ في الحرب التي جعلت أحلامهن مدفونة في سبيل الدفاع عن الوطن، وهل من مُدافع عن نهايات تلك العلاقات الغرامية؟

كان يسمع من حوله الجميع يردّد العديد من الأقوال والجمل التي لم يكن يفهم معناها والتي كانت تنهال عليه كالمطر أينما كان حيث أغلبها كان "ما هذا الدمار الذي نشاهده من حولنا؟ ما هي الأخطاء التي

ارتكبناها لنشهد كلّ هذا الدمار؟ هل هو جزاء لتفنّننا في ظلم بعضنا البعض؟ أم أنه عقاب للجشع والكراهية الذي زرعناها في قلوبنا؟" يكاد يرى أنهم هم من جعلوا العالم هكذا، بلغة الطمع والفساد أبعد مما يمكن تصوّره. فالخراب والدمار يحيطان بأغلب المناطق من كلّ جانب، كم هو مؤلم مشاهدة كلّ ذلك الرّكام والخراب دون القدرة على فعل أي شيء سوى الندم والحزن العميق.

كان أخوه الأكبر جنديًا في الجيش اللبناني، لم يره طوال فترة الحرب وهو لم يفهم ما سبب غياب أخيه، وما سبب تلك الحروب والنار والصواريخ، لمَ يحدث كلّ هذا؟ لم يفهم وقتها لمَ كانت أمه لا تنام، ولمَ كانت تبكي دون سبب إن سمعت أغنية حزينة عن الفراق ولم يفهم أيضًا مدى صدق تلك الدموع وعما كانت تعبّر، لم يفهم مدى صدق حبّ الأم لأولادها، لم يفهم مدى فرحة أمّه عندما كانت تسمع أي خبر عن أخيه، كانت الابتسامة لا تفارق وجهها ولو للحظات ومن الممكن أن يتبدّل مزاجها بكلمة واحدة، كان يتفاجأ من مقدار ذلك الحبّ، وكان يقول لنفسه: "هل عليّ أن أشعر بالغيرة من أخي الكبير بسبب هذا الكم من حبّ أمي له؟ أم من الطبيعي أن تكنّ له هذا الحبّ لأنه بعيدًا عنها؟" لم يكن يعي حقيقة المشاعر العميقة التي يمكن أن تختلج قلب الأم، حينما يواجه ابنها مرضًا مهلكًا أو يبتعد عنها. فما حال الحرب؟ يا لها من معاناة تخفيها تلك النساء في أعماقهن، كم من دمعة سريّة ينثرنها وحدهنّ في أحضان الليل؟ ما هذا العالم المتحجّر الذي يضرب قلب الأمّ؟ لا يعرف قدر الألم إلا من ذاقه، ولا يُفهم الحزن إلا من تجربته. إنها الجملة القاسية التي ترددها كلّ أم مكلومة: "إن الأم لا تتألم إلا لأجل ولدها"، وهذا هو وجعها الحقيقي والذي لا ينتهي.

أسدلت الحرب ستارها بغمضة عين وكان يشاهد الأهالي وهم فرحون بالانتصار وبعودة السلام على الأراضي والجميع سعيد بأن ذلك الخراب انتهى وبأنهم سيعاودون حياتهم كما كانت سابقًا، الكلّ سيعود للعمل والأطفال للمدارس والأمّهات للزيارات. كان الرابح الوحيد من تلك الحرب هو الميّت، لا لشيء سوى أنه لم يكمل حياته ليرى المهزلة التي قد يشاهدها في المستقبل، ليرى بأن الحياة لن تظلّ ثابتة ولن تبقى على ذلك المنوال من البساطة والمحبّة وبأن كلّ شيء سيتغيّر للأسوأ دون ذكر تفاصيل مبهمة سيراها جميع الذين يدّعون المثالية.

بعد انقضاء فترة الحرب وعودة السلام إلى البلاد، وفي مرحلة بدت الحياة نوعاً ما تظهر بشكل مقبول، وعندما أصبح كلّ شيء واقعيًا وعاديًّا، وبعدما اعتاد على ملء حياته باللحظات المملّة والروتينيّة التي تتجذّر في أعماقه كالسرطان، كان يجد نفسه مشغولًا بمتابعة المسلسلات السوريّة الدراميّة بحماس تام. فهو يجد في تلك الأعمال الفنية ملجأً للدفء، خاصة تلك التي تعالج المواضيع الاجتماعية العميقة والتي كانت تثير اهتمامه بشكل ملحوظ رغم عدم فهمه الكامل للرسائل العميقة التي تحملها تلك الأعمال في طيّاتها. على الرغم من ذلك، فإن تلك المسلسلات كانت تعني له الكثير؛ إذ تعطيه شعور الانتماء وكأنّه يشاهد الحوارات أو الحكايات التي يتمنّى رؤيتها أو سماعها من حوله، حتى وإن كانت بعض المعاني تفوق فهمه آنذاك.

في يوم روتيني عادي، وبعد انتهاء مهزلة الحرب، جلس وحيدًا أمام بيته بعد الظهر. كانت والدته في زيارة للجارة، ووالده في العمل. كان وحده في البيت، والجو غائم والشمس غافية بين السحب، وكأن السماء تريد أن تبكي دون صوت، تكتم الرعد وتمسك دموع المطر. كانت الرياح هادئة تلامس وجنته بلطف لتعطيه قبلة من الونس، وكأنها تقول له: "أنا

معك، لا تحزن". غمرته ذكرياته بعائلته عندما كانوا يتجمعون معًا لمشاهدة المسلسلات، وبدأ يتذكّر أدق التفاصيل، واللحظات التي لم تغب عن ذهنه أبدًا. لماذا تأثر بتلك اللحظات في ذلك التوقيت؟ ما السر وراء تذكره لتلك الأمور في وقت كذلك؟ تلك الأسئلة راودته وهو يغوص في ذكرياته.

راودته ذكريات سنة ٢٠٠٤، حيث كانت أسرته مجتمعة لمشاهدة المسلسلات السوريّة كما كان يحدث في العديد من البيوت في ذلك الزمان، وكانت الدراما السوريّة تسيطر على الأذهان في ذلك الوقت. بدأ يتذكّر كيف تحلّقت أسرته حول التلفاز لمشاهدة مسلسل جديد بدأ عرضه في تلك السنة بعنوان "أحلام كبيرة" والذي كان يثير اهتمام الجميع حيث كانوا يثنون على المواضيع التي كان يتناولها، ولكنه كان لا يكترث لأمره بتاتًا. ظهرت ابتسامة الحنين على وجهه وهو يتذكر لحظة جلوسه مع العائلة في ذلك اليوم، حيث كانوا يترقبون بدء عرض المسلسل. جلس مع ألعابه، ثم بدأت شارة المسلسل، تذكّر كم جذبت انتباهه بكلماتها المؤثرة وبدايتها القوية، حيث بدأ الكورال بجملة تكررت مرارًا وهي "كلّ شيء ضاق... ضاق حتّى ضاع". تذكّر كيف بدأ ينجذب إلى الكلمات على الرغم من عدم فهمه لمعناها تمامًا، إذ كان في السابعة من عمره، لكنها أثرت فيه بشدة بفضل قوتها وعمقها، حيث كانت تقول:

"كُلُّ شَيءٍ ضاقْ، ضاقَ حتى ضاع . . .

لم يَبقَ للعُشّاقِ غَيرُ اليأسِ . . .

واليأسُ بَعضُ فَضائِلِ العُشّاق . . .

نَفذَتْ أمانينا . . . نَفذتْ مَرامينا . . .

أحلامُنا نَفذتْ . . . عُصارةُ روحِنا نَفذتْ . . .

وما نَفذَ الكلامْ. . .
كُلُّ شيءٍ ضاقَ حتى ضاقَ حتى ضاعْ. . .

نامي إذاً يا روحُ، نامي الآن. . .
هي آخرُ الأحلامِ نُطْلِقُها على عَجلٍ ونَمضي. . .
هي آخرُ الأيامِ نَطويها ونَرحَل في سلام. . .
نامي إذاً يا روحُ، نامي الآن. . .
نامي الآن يا روحي. . . فقَدْ نفذَ الكلام. . .
كل شيءٍ ضاق. . . ضاقَ حتى ضاع. . . "

بدأ يفكر بكلمات الشارة، ولكنه شعر بالخجل من وصفها بأنها أغنية لتتر مسلسل، بل إنها كانت قصيدة مرهفة تحمل في طيّاتها لحظات العمر من الحنين والألم، لم تكن تعبّر عن واقعه الراهن فقط، بل كانت تنبؤًا بالمشاعر والتحديات التي ستعصف به في المستقبل القريب والبعيد، مرحلة الطفولة البريئة لم تكن سوى بداية لرحلة مظلمة بدأ فهمها حينها. رغم أن المشاعر التي يعيشها آنذاك تتمحور حول الألم والفهم السطحي، إلا أنه يدرك أنها لا تمثّل سوى جزء بسيط ممّا سيواجهه فيما بعد.

بدأ يستحضر في عقله تلك الأسئلة المؤلمة، وهو يهمس بكلمات القصيدة، ورغم عدم فهمها بوضوح، إلا أنها كانت لا تلامس فقط أوجاعه الخفية بقسوة بل واقعه المظلم الذي يحاصره. ترى ما الذي ضاق؟ وما الذي ضاع؟ ولماذا يضيع إن ضاق؟ هل هي حياته أم شعوره؟ هل يكمن الضياع في حياته الخاصة أم في مشاعره المكبوتة؟ هل كلّ اضطراب يحتل صدره سيؤدي إلى الضياع؟ أم أن كلّ خطوة يخطوها في عالم العلاقات ستجلب معها شعوراً بالضياع للآخرين؟

وسط صمت مؤلم، ترددت أسئلة حادة في عقله: "هل يمكن لهذا أن يكون حقيقيًا؟ فطبيعة الإنسان معقّدة ومبهمة، من لا يشتاق للتواصل بصدق مع الآخرين؟ ولماذا يتعرض الإنسان للاستياء والارتباك عندما يصادف الصادق النقي، بكلّ مشاعره الصادقة وكلماته الصريحة؟ بل، لماذا يميل الإنسان إلى إبعاد الشخص الذي يشعره بالراحة والثقة، ويفضل الانجراف وراء أولئك الذين يتجاهلونه، حتى وإن كانوا لا يقدّمون إليه سوى ألم الهجر؟"

"واليأس بعض فضائل العشاق"، بين صفير الرياح وألم اللحظات، تردّدت تلك الكلمات كصدى مؤلم محفورة في أعماقه، من قال هذا؟ من قام بتعريف اليأس بهذا الشكل السطحي، الذي لا يفي بالحقيقة القاسية لهذا الشعور المؤلم؟ تسلّلت تلك الكلمات إلى دواخله كالسّم، كانت كصفعة موجعة تذكره بتجاربه التي تعتبر بنظر الأغلبية متواضعة ولكن بالنسبة لعمره تعتبر قاسية، تذكّره بحياته التي لطالما لطمتها مرارة الخيبات والألم. نعم، اليأس هو بعض من فضائل العشاق، لكنه أكثر من مجرد شعور بالإحباط، إنه كيان مؤلم يجتاح الروح ويغمرها بالظلام، فهو ليس مجرد كلمات يمكن وصفها ببساطة، بل هو تجربة عميقة لا يستطيع الإنسان فهمها إلا من خلال تجاربه الخاصة وألمه الخفي.

كان يعلم أن كلماته آنذاك قد تبدو ركيكة لتعريف اليأس وسط ذلك البحر الهائج من المشاعر، ولكنه كان يأمل أنه مع مرور الزمن، سيكتشف اليأس بتفاصيله المريرة، ربما من خلال تجاربه الشخصية، وربما من خلال الألم الذي يخفيه في أعماقه، فقط عندها سيفهم وحشيّته.

كانت مخاوفه تتقاذفها الأمواج، تارةً تخنقه تحت أعباء الحياة، وتارةً تجتاحه كالمد الهادر. أليس كلّ فرد هو سيّد تجاربه الخاصة؟ أليس كلّ

إنسان يمتلك قصة حياة مليئة بالتحديات والصعاب، ترسم ملامحه الحقيقية وتحكي قصة معاناته وصموده في وجه الظروف؟

بينما هو يلتفت إلى يمينه، وجد نفسه يواجه شجرة ضخمة تقف على مقربة من منزله، لكنها بدت يابسة ومهملة، وكأنها تحمل وطأة الزمن والألم. تتساقط أوراقها بلا هوادة، تمامًا كما يتساقط الأشخاص من حياة بعضهم البعض في كلّ دورة من دورات الحياة، يأتون ويمرون، ليعود بعد ذلك هذا الشجر ليستقبل أوراقًا جديدة على أغصانه، يعيد ذلك إلى الذاكرة صورة الأشخاص الجدد الذين يدخلون حياة الإنسان ليبقوا لفترة ثم يرحلون مرّة أخرى، تاركين وراءهم الخسارة والأسى. هكذا تستمر الحياة على هذا المنوال المرير، حيث لا يبقى شيء ثابتًا، ولا يدوم أي شيء إلى الأبد، ويبقى الإنسان واقفًا هناك، محاصرًا بين ذكريات الرحيل وانتظار ورود الرحيل مرّة أخرى.

كان الوعي الحقيقي بتلك الحقيقة محجوبًا عنه، أو ربما كان يدركها في عمق نفسه، لكنه لم يخض في تجربة الالتماس بها بكلّ حساسيّة. بدأ يستكمل القصيدة بلا وعي، وهو ينغمس في حالة من الاندماج مع الطبيعة المحيطة به، كأنه يتأمل في روحه المستقبلية التي بدأت تتلاشى ببطء. "نفذت أمانينا... نفذت مرامينا... أحلامنا نفذت... عصارة روحنا نفذت... وما نفذ الكلام..."، تلك الكلمات تردّد في ذهنه بثقل السحاب، وهو يلتفت حوله بعيون تمزّقها حسرة غير مبالغ فيها، كأنه بالفعل يشهد نفاد أحلامه وأمانيه بين يديه، رغم أنه لم يعش طفولته كما يجب. وكأنه يتمنى أن يعبّر عن ما بداخله ولكنه يعجز. روحه تستنجد من الداخل، تبكي بصمت كما لو أنها تحمل عنوانًا يعبر عن معاناتها الصامتة، "صمت البوح"، الذي يلتهم كلّ محاولة للكلام.

"نامي إذا يا روحُ، نامي الآن... هي آخر الأحلام نطلقها على عجلٍ ونَمضي... هيَ آخر الأيام نَطويها ونرحَل في سلام" بينما هو ينطق تلك العبارات بصوت متردد وكأنه يتحدّث إلى نفسه بين جدران الظلام، أو كشخص تم خطفه من قبل عصابة تجبره على قول الحقيقة وهو خائف ومتردد. كانت كلماته تعبر عن عمق اليأس الذي انغمس فيه. يبدو وكأنه يحتجز بين أضلعه كلمات حزينة تطلقها أجزاء مكسورة من روحه، فالكلمات تنبعث منه كأنها أنغام موسيقية منحتها الحياة طعم الوجع واليأس. شخص روحه تريد أن تقول "أريد أن أموت" ولكن كلماته ترفض. ترى ما الذي دفع ذلك الطفل الضعيف إلى تلك الأفكار المظلمة؟ ربما كان الألم الكبير والتجارب المريرة التي يتلقاها في طريقه للحياة هي التي شكلت تلك الأفكار.

في لحظات الهمس العميقة، ألقى نظرة صوب داخله، وسكب الكلمات ببطء، كمن يصب دموعه في ليلة مظلمة، "ما الذي أقوله؟" تساءل بصوت خافت، يأمل أن يجد إجابات لأسئلته الضائعة، "ما زلت صغيراً على هذا التفكير، فلماذا أطرح على نفسي هذه الأسئلة؟ وأنا لا أدري معناها... أتمنّى أن تجيب الحياة على كامل أسئلتي." كانت تلك الكلمات تنبعث من شفتيه بمزيجٍ من الحنين واليأس، كمن ينشد نغمة الأسى في صمت الليل، فقد فَقَد الطفل البريء إيمانه بقدرته على فهم الحياة ومفرداتها، وتركته تلك الأسئلة تعبث بعقله دون مرشد. ولم يكن يعلم أن الحياة ستقدم له الجواب بطعم المرارة، فقط، دون قدرة له على تجاوزه أو فهمه. كان ينعكس اليأس العميق في تلك الكلمات، حيث يشعر بأنه محاصر بين جدران أمست صمّاء، ولا جدوى من كلماته الفارغة وإن نُطقت، في محاولة يائسة لتفادي ما يعانيه.

كان يحاول أن ينقل بألم وحزن عميق حالة اليأس والفقدان التي يمرّ بها. حيث كان يحاول أن يجد وصفًا لحالة الضيق والضغط التي تحيط بكلّ شيء، لم يبقَ سوى اليأس صديقًا له، حيث أصبح الأخير الشعار الوحيد له، وكأنه نوع من الفضيلة المحتملة، إشارة وكأنه أصبح جزءاً من هويّته.
عاد إلى فراشه بخطوات بطيئة، وكانت الشمس قد شارفت على الغروب، والليل يلتفّ حوله كالغيمة الداكنة. أصوات صراصير الليل تملأ الجو، وهو يجلس على فراشه، يضع يده اليسرى على وجهه، يمسحه ببطء، ويرفع يده اليمنى نحو السقف محركًا إيّاها يمنةً ويسرةً، يتأملها بتشتّت ملحوظ. تساؤلات تتعاظم في داخله، "ما الذي حدث لي؟ هل أصبت بالإرهاق إلى هذا الحد؟" يبدو كمن حمل أعباء العالم على كتفيه، كمن قطف ثمار اليأس طوال النهار المشمس. تمدّد على فراشه، يرمق السقف، وتعود الذكريات لتطارده دون رحمة. يتذكر حدثًا مؤلمًا جرى معه قبل عدة أشهر، في صيف عام ٢٠٠٦. كان جالسًا على أريكته يشاهد التلفاز مع عائلته، فجأة، بدأ مسلسلٌ جديدٌ بعنوان "وشاء الهوى". بداية الشارة كانت مفاجئة، كلماتها كانت للشاعر السوري نزار قباني، الشاعر الذي لم يسمع به أو يهتم لأمره من قبل، لم يكن يعرف عنه شيئًا سوى أنه شاعر مشهور. ولكن كانت كلماتها تخترق أعماق قلبه بطريقة غامضة. كانت الشارة تُلقي بظلالها على وجدانه، وها هو يسمعها تُناديه:

"كم رغبنا. . .

كم حلمنا. . .

كم تمنّينا. . .

وشئنا. . .

وشاء الهوى. . .

فامتثلنا. . .

هي الحياة. . .

كلّ شيء فيها ممكن. . .

ولا شيء فيها يمكن أن يكون. . .

كم رغبنا. . .

كم حلمنا. . .

كم تمنينا. . .

وشئنا. . .

وشاء الهوى. . .

فامتثلنا. . ."

تذكّر كم أُصيب بالدهشة في ذلك الحين، ثم بدأ يفكر بصوتٍ مسموعٍ يردده لنفسه: "لماذا يتوق الإنسان للكثير؟ هل هو طمَع، جشَع، أم ربما حبّ التملّك لكلّ شيء؟ هل الوفرة من الأشياء تجعل الحياة أجمل وأفضل أم أنها باب من أبواب اليأس، لأنه من الصعب جداً أن تتحقق كلّ الأحلام والتطلعات؟" ينبعث الجدل الداخلي من جملة نزار قبّاني الحكيمة: "هي الحياة كلّ شيء فيها ممكن، ولا شيء فيها يمكن أن يكون". يحاول فهم العمق والمعنى وراء تلك الكلمات، يبحث في دواخله عن الحقيقة وراء تلك الجملة، يتساءل: "ماذا كان يريد بهذا القول؟ وما الظروف التي واجهها؟ وما كان شعوره عندما كتب فيها هذه العبارات؟" ثم انتابته حالة من القلق والتوتر، فقام بالنهوض من فراشه بسرعة، العرق يتصبّب من جسده، كمن يلتحف بوشاح من الشكوك، أو كرجلٍ مُشلول الحركة في الثمانينيات يواجه نفسه قبل أن تغلق أبواب

الزمن عليه. ثم صرخ: "ما هذا الصوت الذي يُخاطبني؟ لماذا أفكر في مسائل لا أستطيع فهمها؟ لماذا يتصاعد الشك والتردد في نفسي؟"
هرع ليغسل وجهه، وعندما نظر إلى المرآة، انهمرت دموع لا مبرر لها، غسل وجهه مرّة أخرى، ثم عاد إلى فراشه، ليستفيق في الصباح التالي وسط صوت مبحوح يعلو من الخارج، حوار يجري بين والدته وجارتهم، كانت والدته تتمتم بألمٍ وقلق، ترتسم على وجهها تعابير الحزن والقلق، من لغة الجسد إلى لفظ الكلمات، والجارة تحاول بكلّ جهدها تهدئة تلك العواطف المضطربة. سمعها تتحدث عن رجل وأسرته يقتربون من المنزل لمعاينة شكل المبنى الذي كانوا يسكنونه، لأن صاحب المبنى ينوي بيعه، في حين أنهم لم يكونوا سوى مستأجرين. لم يكن يدرك الفارق بين المالك والمستأجر، لكنه أدرك مرارة الوضع على والدته وأصدقائها وحتى على أفراد عائلته. كانوا معتادين على حياة مليئة بالتحديات والصعوبات، ولكنها كانت حياة مختلفة عمّا كان يعيشه هو. لم يكن الأمر مجرد أزمة عابرة، بل كانت تحمل عبئًا ثقيلًا، فهو معتاد على أي شيء يمكن أن يواجهه في طريقه، ولكن تلك المرّة كانت الأمور مختلفة.

في تلك الليلة المظلمة، جلس وسط أفراد عائلته، والحديث يدور حول القرار الذي يثقل قلبه. بدأ يدرك تباين الآراء والمشاعر بينهم، وفي تلك اللحظة، تبيّن له أن الانتقال لن يكون مجرد تغيير في العنوان، بل سيكون تحولًا في حياتهم بأكملها.
سمع صوت والدته يندى بالحزن واليأس، تقول: "إلى أين نتّجه بعد هذا؟ هل نغادر كلّ شيء ونترك هذه المنطقة؟ لا أريد المغادرة، لقد اعتدت على كلّ شبر في هذا المكان، على كلّ وجه تراه عيني، على هذه البيئة الهادئة التي أصبحت جزءاً من كياني. لا أريد أن أبدأ رحلة جديدة

بعيدًا عن هذا المكان، إن روحي متشبّثة بكلّ شيء هنا، أتضرع إليك، حاول أن تبقينا هنا."

نظر إلى والدته بعيون مليئة بالتساؤلات، لم يكن يرى فقط امرأة، بل كان يرى معبرًا عن مآسي الحياة والتحديات التي تُضعِف حتى أقوى النفوس.

إن الإنسان المعتاد، هو ذلك الذي يصبح مقيّدًا بشبكة من الروتين، يتلازم معها ويتجرّع مرارة اليوميّات المتكرّرة. الاعتياد ليس مجرد طقس يومي يمرّ به الإنسان، بل هو سجن يحبسه دون أن يشعر، حيث يصبح الروتين الطبيعي لحياته مثل سلسلة من القيود تحيط به من كلّ جانب.

من يربط مصطلح الإدمان بالمخدّرات؟ إن الإدمان على الاعتياد ليس أقل قسوة ولا أقل تأثيرًا من الإدمان على المخدّرات، فهو يجعل الشخص يصبح رهينة للروتين، يتحكم في تصرفاته وأفكاره، دون أن يكون لديه القدرة على الهروب أو التحرّر. الفرق بين الإدمان على الاعتياد والإدمان على المخدرات، يكمن في أن الأوّل يتحكم فيك دون علمك، ويسرق منك قدرتك على الحرية والاختيار، بينما الثاني يكون خيارًا واضحًا تختاره بإرادتك ويجلب لك معاناة قصيرة يعقبها شعور بالحرية.

تخيّل لو أن شخصًا مُحرومًا من نعمة الأطفال، مرتبطًا بزواجٍ ممتد لعشرين عامًا، فجأة يجد نفسه وحيدًا في جوف الليل، يحتضن طفلًا ضائعًا، يمتص ألم الوحدة والهزائم، يعانق الأمل بأن يجد في هذا الطفل بداية جديدة، ولكن بعد عشر سنوات من العطاء والتضحية، يأتي أهل الطفل وينزعونه من حضنه بلا رحمة، يغادرونه ولا يبقى معه سوى كلمة شكرٍ مُرهفة. يعود الشخص المحروم إلى حياته الوحيدة، تلك الحياة المملّة والمُخلبة بالوحدة والفراغ، مُحمّلًا بثقل الآمال التي طالما بنى عليها أحلامه، فرغم كلّ التضحيات والأمل الذي قد نما في قلبه، وجد

نفسه مُقبِضًا على قفل الوحدة مرّة أخرى. أليس التأقلم مع هذا الواقع القاسي مجرد رحلةٍ للتمسك بشظايا الأمل؟

واصل والداه البحث عن مسكن جديد في جميع أنحاء المنطقة، لكن دون جدوى، كانت كلّ محاولاتهما كالبحث في متاهة لا نهاية لها، وكأنهما يسيران في دوامة من الضياع، حتى وصلا إلى نقطة يائسة، حيث شعرا بأن المصير يدفعهما نحو مجهول، وكأن قدرهما يصرخ ويأمرهما بالتوقف عن البحث، لأن الزمن قد حان ليقودهما إلى مكان بعيد عن محيطهما الحالي، حيث ينتظرهما مستقبل يشبه حياتهما الحالية بعض الشيء، ولكن في بيئة غريبة تختلف عن كلّ ما اعتادا عليه، ومع سكان لهم عادات وثقافة غريبة نوعًا ما عنهما، وغريبة تمامًا عن عاداته.

استيقظ في فجر ذلك اليوم، وأحس بثقل في قلبه، كان يعيش الأيام الأخيرة لمدرسته، وكلّ ذلك كان يأتي في ظل توقعات مؤكدة بأنه عند انتهاء العام الدراسي، ستنقل أسرته إلى مسكن جديد تمامًا عَثر عليه صديق والده، وكان يعلم ذلك بالفعل من خلال محادثات الوالدين.

خلال يومه في المدرسة، شعر بانعكاسات حزينة تصاحبه، فزملاؤه وأساتذته بدأوا يعبّرون عن تعاطفهم معه بعد أن أخبرهم عن انتقاله وبأنها سنته الأخيرة معهم، ما جعله يتساءل عن معنى تلك العواطف المتناقضة التي شاهدها منهم.

عند عودته إلى المنزل، وجد نفسه محاطًا بمشاعر متخبّطة، فرح ببداية فصل جديد في حياته وحزن على فراق البيت الذي اعتاد عليه، حيث ارتبطت به ذكرياته وأحلامه. وفي تلك اللحظات الصامتة، انعكست تساؤلاته الداخلية، وهو يتأمل في الصوت الصامت الذي يختلج في أعماقه، تلك النداءات الداخليّة التي كانت تؤرقه بالفعل، تلك الأصوات الخافتة التي تنبعث من أعماقه، ترنو إلى الخروج والتعبير عن الكثير من

المشاعر والأفكار التي كانت تتردد في مخيلته. كانت تلك الأصوات تناديه بأمور لا يفهمها تمامًا، وهو لا يجد سببًا لها في ذلك العمر الصغير. كان يشعر وكأنه مُشوّه بداخله، وكلّما حاول التخلّص من تلك الأصوات، زادت وتعاظمت، مثل صراخ المجنون في عقل صغير لا يدرك معنى ما يجري من حوله.

جلس في إحدى الليالي مع والديه في جلسة عائليّة، حيث غمرت الغرفة نسمات الهدوء والدفء. في تلك الأثناء، أطلق والده كلماته الحانية التي سرت كالنسيم المنعش على وجهه، فذكّره بأن المنزل الجديد الذي سينتقلون إليه لن يكون بعيداً عن جذوره، بل سيكون المنزل الجديد بالقرب من مسقط رأسه، حيث تتشابه البيئة والتقاليد مع ما اعتادوا عليه.

تلك الكلمات أضاءت شمعة الأمل في قلبه المتعب، وأشعلت نيران التفاؤل في داخله، فأحسّ بأنه ربّما يعود لذاته مرّة أخرى، وسيبدأ حياة جديدة قد تكون مليئة بالأمل والفرح. وكانت تلك الكلمات كالغيمة المنتظرة لتمطر الأرض بفرحة العيش والازدهار، فشعر بأنه سيكون صورة جميلة في لوحة الحياة الجديدة التي يبدأ في رسمها.

كيف لكلمة أن تغيّر حال شخص ممّا هو عليه إلى حال معاكس كليًّا؟ كان يريد سماع مثل تلك الكلمات التي تغيّر حاله للأفضل فهو متعطّش لها. متعطّش ليبني آمال جديدة قد تصب في صالحه وقد تكمل هدم روحه. من يعلم؟ الحياة تخبئ في طياتها كلّ الأسرار.

كيف يمكن لكلمة واحدة أن تكون كافية لتغيير مسار حياة الإنسان بأكمله؟ كيف يمكن لها أن تهوي كالفأس على حالته النفسيّة وتحدث انقلابًا مذهلًا في وجهة نظره ومشاعره؟ كان يتوق شوقًا ملتهبًا إلى سماع تلك الكلمات الساحرة، الكلمات التي تحمل في طيّاتها قوّة التحوّل، فهو يشتاق إلى لمسها على جراحه المفتوحة. يترقّب بفارغ الصبر الأيام

القادمة ليبني مستقبله بآماله الجديدة، ربما تكون هي خيوط الضوء التي تنير ظلام وجوده المعتم، ولكن في الوقت نفسه، يخشى بعمق أن تكون تلك الكلمات الفتّانة، التي تزيد من عبء هزيمته وتجعل - صرخات اليأس تتعالى بقوة في سماء أحلامه.

من يدري؟ بالفعل، ربما تحمل الحياة في أعماقها كلّ الأسرار، فالمصير قد يكون قد حُكِمَ بالفعل، وربما ينتظر الإنسان المكتئب مجرد كلمة واحدة، لتغيير مسار حياته بشكلٍ مفاجئ ولكنه لن يكون داريًا حتى حينها.

وفي يومه الأخير من عامه الدراسي، تواعد مع بعض زملائه الذين اعتادوا نوعًا ما أن يكونوا جزءاً من حياته اليوميّة، وطلبوا إليه أن يودعهم قبل مغادرته، وكان ذلك بمثابة صدمة جديدة بالنسبة له. تمادى في الوهم القاتم. بدأ يتساءل بصوت متردد ومليء بالحزن: "هل حقاً هؤلاء الزملاء ينطقون بكلمات الوداع لي؟ هل حقًا سيذكرونني بعدها؟ أم أن تلك الكلمات تنبع من فجوة في قلوبهم بعد أن علموا أنني على وشك المغادرة؟"

اتفقوا على لقاء في الساعة الثانية عشرة بعد انتهاء الدوام في ذلك اليوم، اجتمعوا في باحة المدرسة المهجورة بجوار الكنيسة، وعندما وصل إلى هناك، وجد نفسه وحيدًا، ينتظر وحيدًا. مرّت الدقائق ببطء متعب، دقيقة تلو الأخرى، دون أي علامة على قدومهم. انتظر دقيقة بعد أخرى، عشر دقائق، ومرت نصف ساعة دون جدوى. عندها، بدأت دموع اليأس تتساقط من عينيه المحبطة، وفي قلبه المنكسر، اتخذ قراره بالمغادرة.

عندما قرّر الرحيل، سمع صوتًا يناديه من بعيد، التفت بلهفة ليتفاجأ ويراهم يقتربون، ولكنهم لم يأتوا للترحيب أو الوداع، بل للاستهزاء والاستخفاف. وفي تلك اللحظة المريرة، وجّهوا إليه بيوضهم وطماطمهم

الفاسدة كما لو أنهم يلقحونه بالعار والخزي. فسادت ضحكاتهم الهستيريّة المكان، وتغلغلت كلماتهم الساخرة في أعماقه: "ارحل يا سمين، يا صامت، يا ممل." هكذا كانت نهاية اللقاء، ليودعوه بمرارة ويبقوا ينتظرون مغادرته بلا حنين أو أسف.
انفجر بالبكاء وسالت من عينيه البريئتين الدموع التي احرقت قلبه، أين يخبئ نفسه؟ ما عليه سوى المغادرة. بدأ يركض ولا يدري لماذا عيناه تضخان دموعًا مريرة لا جدوى منها. تدور في ذهنه كلمات الندم والاستهجان لذاته: "كم كنت أحمقًا، كم أنا أحمق لأصدّق تلك الكلمات. هل هذا ما أعنيه لهم؟" ضجّت تلك التساؤلات في عقله المضطرب، وهو يحاول فهم السبب وراء كلّ ما حدث. وفي ذلك الوقت، شعر بمرارة الحقيقة وتبدل المواقف، وتساءل في دهشة مريرة: "كنتُ أظن أن الإنسان يشعر بقيمة الشيء عند فقدانه، لذلك ظننتهم سيستفقدونني، لكّنني، كالعادة، كنت مخطئًا." هكذا كان اللقاء مجبولاً بأخلاق لا تستحق تقييم الواحد من عشرة لأطفال يتعلمون التربية في المدرسة ولا شئ منها في منازلهم.
وبينما كان عائدًا إلى المنزل، وجد نفسه أمام ساقية عتيقة. انحنى نحوها، واستنجد بمياهها ليغسل وجهه المغطى ببقايا الطماطم والبيض، وليمسح دموعه الحارقة. كان ذلك التصرف المأساوي كخيبة إضافية، يُضيف لجراحه المؤلمة طعمًا جديدًا من اليأس، يجسد بلا رحمة ألمه العميق ويُظهر جرحه النازف الذي ينبعث من خيبات طفولته الغامضة.
عندما وصل، لم يكن الاستقبال كالعادة، بل كانت والدته تراقبه بنظرة ممزوجة بالقلق والتساؤل. "ما بك؟"، سألته بصوت ينطق بالقلق المتزايد، محاولة فهم ما يجري في عالمه الداخلي الذي لا تعلم عنه شيئًا. تجاهلت تعابير وجهه، وتابعت: "ما هذا الذي أراه؟"

ردّ عليها بلا كلمات، فقط بنظرة فارغة تنطق بالكثير من الأحاسيس المختلطة. "كنا نلعب مع الأصدقاء ونودّع بعضنا بعضًا،" بدأ بصوت هادئ يحمل وراءه ثقلًا لا يُعبر عنه الكلام بما فيه من حزن وخيبة أمل. "أوليس هذا هو يومنا الأخير في المدرسة؟"، تابع بصوت متعب ينطق بحقيقة لا يمكنه تقبّلها.

ردّت والدته بنبرة حادّة: "بهذا الشكل؟"، لتجد نفسها معلقة بين عالمين، عالم الحقيقة الصعبة التي يعيشها ابنها وعالم الأمل الذي كانت تأمل فيه له. "هو يومي الأخير معهم وأيامي الأخيرة هنا،" أجابها بكلمات يعلوها طغيان الأسى والمرارة، ملخّصًا حالة انكساره الداخلي. "أردت أن تكون غريبة وغير مألوفة ومملة كالعادة، أصبحت شبه مسؤول عن تصرفاتي فأنا في الحادية عشرة من العمر، أنسيتِ؟"

ابتسمت الأم، وهي تقبّل ولدها بحنان، ولكن لم تكن تدرك ما الذي يختبئ في نفسه. لقد كان يحاول بكلّ جهده إخفاء مرارة ما مرّ به عن والدته، ليس فقط لأنه يريد أن يحافظ على سلامة مشاعرها، بل ليجعلها تبقى مطمئنة إلى حبّها وتقديرها لذلك المكان الذي اعتادت عليه، ولكي تتمكّن من التعبير عن آرائها ومشاعرها دون أي قيود أو تردد، خوفًا على مشاعر ابنها في رحيله عن ذلك المكان. فلقد زاد كرهه لذلك المكان الذي اعتقد في لحظة من الضعف قبل رحيله أنه قد يتغيّر للأفضل، ولكنه أدرك في النهاية أن كلّ محاولاته كانت بلا جدوى. فقد كان برميل الخيبات يمتلئ تدريجيًّا قبل رحيله، ما لم يجد فيه أي أمل في التغيير أو البقاء.

بدأ يستعد لوداع تلك المنطقة التي أقام فيها لمدة إحدى عشرة سنة، لم تكن رحلته سهلة بتاتًا، بل أسدت له دروسًا صعبة لم يكن ليستوعبها بسهولة، ربما استفاد من بعضها، وربما اعتبر البعض الآخر عبورًا عابرًا

دون أن يدرك قيمتها الحقيقية، ولكنه سيفهم معناها العميق في النهاية. فالحياة تمنح دروسها المتكرّرة حتى يدرك الإنسان ما ينبغي عليه فعله للحفاظ على كرامته ونجاحه، وفي حال عجز عن تحقيق ذلك، فليس لديه خيار سوى الاستسلام لليأس.

في اليوم الذي يسبق الأخير من تحضيراته لمغادرة تلك المنطقة، بدأ يقدّم يد المساعدة لوالدته، وهو يشعر بمشاعر متناقضة لا يستطيع تفسيرها بوضوح. هل هي حزن على الحياة التي عاشها هنا؟ أم روتين كان قد تعلّق به رغم مرارته؟ أم فرح لأنه سيغادر ذلك المكان ويترك خلفه كلّ شيء، بما في ذلك الأحاسيس المزعجة التي تحاصره وتتغلغل في دواخله؟ قد يكون حزينًا لأمه التي لم يشأ أن يراها تعاني، إذ كانت تبذل قصارى جهدها لإسعاده حتى بأصغر الأشياء، ومع ذلك، فهو يشعر بالسعادة لأنه يأمل في أن يتخلّص من الصوت الداخلي الذي يحاوره بلا توقف في ذلك المكان، ذلك الصوت الذي يبقى يرافقه في لحظات الوحدة، مُلقيًا بكلمات غامضة لا يجد لها تفسيرًا واضحًا.

استيقظ في ذلك الصباح الأخير، بدا جسده متعبًا وكأنه قد اجتهد ليلًا طويلًا دون نوم. دخل غرفة المعيشة، فوجدها مليئة بأثاث المنزل المرتّب في صناديق مغلّفة، والدته تضع الأغراض داخل الصناديق بينما يساعدها أخوه في نقلها إلى الشاحنة، ووالده يراقب العمليّة بكلّ اهتمام. رآها وهي تبكي وترتب الأشياء بحنين، فتساءل في صمت: "هل تبكي على المنزل نفسه؟ أم أنها تبكي على الذكريات التي عاشتها هنا؟" وبعد لحظات من التفكير، أدرك أنها قد بكت على فراق الأصدقاء الذين تعلّقت بهم بقوة، ربما لم تشعر بالحزن على المكان بل على فقدان الروابط الإنسانيّة التي كانت تجعل الحياة فيه أكثر جمالًا. أدرك حينها أنه

يغار من ذلك النجاح في بناء علاقات ودية متينة، وهو يدرك جيداً صعوبة ذلك الإنجاز.

خرج من عتبات المنزل وسار نحو الحديقة قبل أن يغادروا المكان، ترتسم على وجهه ابتسامة مُرّة تشبه الحنين الممزوج باليأس، كما لو كان يدرك بالفعل أنّه سيترك ذلك البيت من قبل، كما لو كان ينتظر تلك اللحظات بفارغ الصبر منذ زمنٍ بعيد. كان يترقّب لحظات الوداع كما لو كان يعلم بالفعل أنّها ستأتي، وكأنه انتظرها طويلاً على أحرّ من الجمر.

نظر إلى السماء، كانت كما لو أنّها مرآة لروحه المضطربة، بلون البحر من شدة صفائها. بوحًا بهمس، قال: "أخيرًا، أشعر بنسيم حريّة يعبُرني، فأنا على ثقة بأنّني سأنطلق لحياة جديدة، سأجد فيها ذاتي وسأبدأ كلّ شيء من جديد، كما لو كنت قد ولدت اليوم، لن أحتسب هذه السنوات كأنها مضت من عمري، بل سأبدأ من الآن."

غادر الحديقة وعاد بسرعة إلى أسرته، ولم يمضِ وقت طويل حتى سمع صوت والده ينادي ويطلب منهم المغادرة. "هيّا سنرحل"، كانت تلك الكلمات القاسية ترتسم في الهواء كلّما وقفت العائلة أمامه. سأله والده بصوت مليء بالقلق: "هل جمعت كلّ أغراضك؟ هل نسيت شيئًا؟" فأجابه دون تردد وبثقة مزيّفة: "كلا، كلّ شيء على ما يرام". لم يتأمّل حتى لحظة فيما إذا كان قد نسي أي شيء، لكنه أدرك أنه كان ينتظر تلك الكلمات، كلمات الوداع النهائي التي ستُنهي ذلك الفصل المرير من حياته.

أثناء انطلاق السيارة والشاحنة، جلس بجوار والدته التي غمرته بمشاعرها، لكنه عمد إلى تجنب النظر إليها، يعلم تمامًا مدى حزنها وبكائها، ولم يرد أن يشاهدها بذلك الضعف. غمرته دموعها وانهمرت على جبينه وهو يحاول غمرها بعالمه المظلم بإغلاق عينيه. لكن عندما

فتح عينيه، لاحظها وهي تبكي متظاهرة باللامبالاة، كمن تختبئ وراء ستارة من الحزن، لتخفي معاناتها وأوجاعها، حتى لا تترك تلك اللحظة أثرًا مؤلماً في ذاكرتها. ها هي تبكي، لكن دموعها لم تكن من أجل فراق المكان، بل كانت من أجل فراق الأحباب، من أجل فراق اللحظات التي عاشتها في كلّ زاوية من ذلك المنزل وذلك الحي، حيث كانت الذكريات تنبعث من كلّ شبر منه، تداعبها وتطاردها حتى في أصغر التفاصيل. كانت تدرك بأن كلّ فعل وكلّ حركة مع الأصدقاء، والأحبة، العائلة أو حتى التوأم اللذين اختفيا من دون أن تعلم وجهتهما أو مصيرهما، ستظل خالدة في ذاكرتها، ستظل كالصورة الثابتة في الأذهان. لذا، قرّرت بلا تردد أن تخفي كلّ تلك الذكريات، تحت طبقة من الزمن، دون أن تعطيها فرصة للعودة، فقد جرّبت الألم والفراق بكثافة، ولم تكن تريد أن تعيشها مرّة أخرى.

وبينما هو يحدق في عيني أمه الممتلئتين بالحزن، تجلى له الصوت الداخلي بألم عميق:

"ربما يكون طريقك الجديد وسيلة للهروب من السقوط في غياهب اليأس، ولكن لا شك أنه سيكون السبب في توجيه والدتك نحو بوّابة اليأس."

ما رأيك في هدنة؟

– الفصل الثاني –

ضياع البراءة : همس اليأس في المراهقة

"الصحة مقابل المرض، النضارة مقابل الذهول، والحياة مقابل الموت"
لكلّ شيء نقيض حتى وإن كان الشيء في قمّة ذهوله ولمعانه يوجد له نقيض يقلّل من توهّجه، فلا شيء ثابت في هذه الحياة، من العلاقات، للحبّ، للأخوّة، للبنوّة، للعائلة، وللصداقة.

بتلك الكلمات، حاول أن يبدأ حياته الجديدة في المنزل الذي وصل إليه، بعيداً عن بيئته القديمة، متشبّثًا بآخر خيط من الأمل في أن يجد ذاته الضائعة في حياته الجديدة.

وصل وهو يحدّق في المبنى الذي كان يقف أمامه وحيدًا. كان مبنىً عاديًّا مؤلّفًا من عدة شقق، وأمامه قطعة أرض صغيرة جرداء، تحاصرها ثلاثة مبانٍ. بدا المبنى في محيط هادئ نسبيًّا، لا يختلف كثيرًا عن بيئته القديمة. شعر بالحيرة تتسلل إلى قلبه. وبينما كانت عائلته قد بدأت بنقل الأثاث إلى المنزل، صعد بهدوء ليتفقّد الغرف الواحدة تلو الأخرى. فرح لأنه كان واسعًا وسهل التنقّل فيه. خرج إلى الشرفة، فأبصر الساحة الواسعة، والشرفة الأخرى المطلّة على الطريق العام، والبحر الممتد أمامه. يا لها من إطلالة جميلة، لكنها لم تملأ الفراغ الذي شعر به.

ترك عائلته خلفه وخرج يتمشى في محيط المنزل، باحثًا عن بارقة فرحٍ قد تعيد إليه شيئًا مما شعر به عند رؤية المنزل. بدأ يتجوّل في أرجاء المنطقة، فوجدها عاديّة جدًّا، لا شيء مميزاً فيها.

وبينما كان يسير، لفت انتباهه مكان صغير بالقرب من المنزل، يبدو متواضعًا ومزدحمًا بالأطفال الذين كانوا يتدافعون بحماسة. تساءل في نفسه: "ما الذي يحدث هنا؟ ما الذي يدفع هؤلاء الأطفال لهذا

التصرّف؟" نظر حوله فلم يجد أي لافتة تشير إلى هويّة المكان أو غايته. اقترب قليلًا فاكتشف أنه محل لألعاب الفيديو، تلك الألعاب التي كانت تشغل حيزًا كبيرًا من طفولته. ابتسم ابتسامة حزينة، مليئة بالحنين لما كان عليه. فجأة، شعر بيد تلامس كتفه. التفت بهدوء ليجد أمامه شابًا طويل القامة، نحيل الجسد، وجهه رفيع وشاحب، شعره خفيف، وأسنانه الأمامية بارزة، تكاد لا تدخل فمه، وكأنهما لا تنتميان إليه.
قال له الشاب بصوت خافت: "يبدو أنك جديد هنا. لم أرك من قبل، هل أنت زائر؟" أومأ برأسه بخجل، فابتسم الشاب وأضاف: "لا داعي للخجل، تعال معي. دعنا نتجوّل قليلًا في أرجاء المنطقة، إن لم تمانع."
ذهب معه وهو في صدمة، كما لو أنه غير واعٍ لما يجري. لم يفكر في السبب الذي جعله يتبع ذلك الشخص الغريب، ولم يسأل نفسه عن غايته. استسلم للأمر وكأنه تصرّف عادي، خاصة أن ذلك الشاب بدا وكأنّه من عمره. سار معه في أرجاء المنطقة، يتأمّل كلّ بيت، كلّ مبنى، يراقب تصرّفات الناس، الأطفال، وكبار السن. وجد المنطقة مسالمة، تطغى عليها أجواء تذكّره بمنزل جده، فهي ليست بعيدة جدًّا عن منزل الجد، مجرد بضعة كيلومترات.
واصل السير مع ذلك "الغريب" في صمت تام، دون أن يسأله عن اسمه أو عن سبب ذلك المشوار. كان "الغريب" يتحدّث بلا توقّف عن المنطقة، وعن أهلها وحياتهم، بينما هو يمشي بجانبه، غارقًا في أفكاره. فجأة توقّف، بينما استمر "الغريب" في الحديث.
التفت إليه "الغريب" وسأله: "ما بك؟ هل تعبت؟" رد عليه بسؤال: "لماذا تفعل هذا؟ لماذا تأخذني معك وأنت لا تعرفني؟ حتى أنك تعرف أنني مجرد ضيف هنا، لم أقل لك أكثر من ذلك."

ابتسم "الغريب" وقال: "هذا طبعي، أتعامل هكذا مع الجميع. ولكن أخبرني، هل أنت هنا لزيارة أحد؟" أجابه: "كلا، نحن مقيمون جدد هنا، وبيتي قريب من المكان الذي رأيتني فيه." ابتسم "الغريب" مرّة أخرى وقال: "آه، إذاً أنت مقيم جديد هنا. سعدت بلقائك. أنا أيضًا لست من سكان هذه المنطقة، لكنني تربيت هنا. ولكن دعني أخبرك سرًا." نظر إليه بتعجّب وصمت، قائلاً في نفسه: "سرًّا؟ لي أنا؟" اقترب "الغريب" منه وهمس في أذنه: "لا تستغرب من كونك غريبًا هنا. ستظلّ غريبًا بين هؤلاء الناس، حتى لو عشت بينهم دهرًا. هذا ما حدث معي."

كانت تلك الكلمات كالصاعقة بالنسبة له، رغم غموضها في البداية. تساءل في نفسه: "ما الذي يقصده هذا الغريب؟ كيف له أن يقول مثل هذا الكلام وهو بالكاد يعرفني؟ إنه غريب بالنسبة لي الآن، لكن مع مرور الوقت، لن يبقى كذلك. فلماذا يتحدّث عن نفسه وعنّي بهذه الطريقة؟"

واصل السير معه دون أن ينطق بكلمة، وراوده شعور غريب يعجز عن وصفه. كان مزيجًا من الخوف من بيئة وصفها أحد سكانها بكلام غامض، ومن التردّد تجاه تصرّفاته غير العقلانية في مواجهة أي شيء يعترض طريقه. ومع ذلك، شعر أيضًا بنوع من اللامبالاة تجاه كلمات "الغريب".

وصل إلى الطريق المؤدّية لمنزله، دون أن يدرك كيف عاد إليها، فقد بدت البلدة له أشبه بمتاهة في البداية. نظر إلى وجه "الغريب" بعينين قلقتين، تشعان ببريق غامض، لكنه لم ينطق بشيء. بادر صاحب الكلمات الغامضة بتوديعه بكلمات عاديّة، قائلاً: "أراك لاحقًا".

ودّعه بابتسامة باهتة، أقرب إلى الحزن منها إلى السعادة، ثم سار ببطء نحو منزله، ناظرًا حوله وكأن لهفته تجاه المكان قد تلاشت، كأنّ حُكْمًا مسبقًا قد خيّم على مشاعره.

صعد إلى منزله الجديد في الطابق الثالث، ودخل ليجد عائلته منهمكة في ترتيب الأثاث. انضم إليهم ليقدم يد العون، ثم تفقّد غرفته الجديدة التي سيتشاركها مع أخيه الأكبر.
حلّ المساء وهو مستلقٍ على سريره، ينظر إلى سقف الغرفة، مستغرقًا في التفكير بكلمات ذلك "الغريب": "لماذا أفكر كثيرًا في تلك الكلمات؟ ماذا سأجني من كلمات شخص غريب قابلته لأول مرة؟" حاول تهدئة مشاعر القلق التي اجتاحته، خوفًا من أن تقوده إلى اليأس الذي هرب منه في بيئته القديمة.
تساءل: "هل من العدل أن يهرب شخص من بيئة لم تكن يومًا ملاذًا له، بيئة منحته اليأس والبؤس، ليُستقبل في مكان جديد بمثل تلك الكلمات؟"
استيقظ في اليوم التالي على أصوات العصافير تزقزق على أغصان شجرة السنديان التي تطلّ على نافذته، ذلك الصوت المألوف الذي كان يسمعه في المنطقة القديمة.
"أجواء هادئة واعتيادية، لا شيء جديد، لا شيء يُذكر." بتلك الكلمات بدأ يومه الجديد، وكأنّ كلمات ذلك الشخص تسلّلت إلى أعماق نفسه. إنها لعنة التفاصيل، كيف يمكن للإنسان أن يكون بهذا التعقيد؟ تخيّل أن يقضي الإنسان يومًا حزينًا فقط بسبب كلمة لم ترق له أو لتغيير نبرة أحدهم في الحديث معه.
جلَسَ مع والدته أثناء شربها قهوة الصباح، وحاول أن يرسم ابتسامة على وجهها الشاحب الذي يبدو عليه التعب. تساءل في نفسه: "ما الذي تحاول هذه المرأة الصلبة أن تخفيه؟ لماذا روحها متعلّقة بذكريات مضت؟ هل كل شخص تتعلّق روحه بأناس عاش معهم دهرًا، يراوده الشعور بالضياع لفراقهم؟" يا لها من روح هشة، ضائعة بين ليل الأمس وضوء الغد!

أمسك يد والدته وقبّلها، قائلاً: "لا تقلقي يا أمي، نحن معك، لا تجعلي حزنك يثقل عليّ." قال لها تلك الكلمات كما يقولها كل ابن لأمه عندما يراها حزينة. ولكن من يعلم ماذا تفعل تلك الكلمات في أعماق الأم عندما تسمعها من فلذة كبدها؟ هل يدرك الإنسان ما الشعور الذي يغمر الأمهات عندما تشعر، ولو للحظة، أن سلوكها ومشاعرها أو حتى كلامها يثقل كاهل أولادها؟ لو كان الإنسان يعلم، لما تفوه بكلمة واحدة من تلك الجملة، بل لزم الصمت عندما يرى أمه في تلك الحالة.

كانت تعيش حالة من الحزن والكرب، غير قادرة على تحمل ما تشعر به، تحاول كبت مشاعرها، لكن دموعها وتعابير وجهها تخونها، فتسمع كلمات العتاب من ولدها، وتحاول إخفاء تلك الدموع والتعابير الخائنة. فتقابل الكبت بكبت آخر، ليتخزّن الحزن في جسدها ويستقر على عرش قلبها.

تناول فطوره مع والدته وأمضى يومه في غرفته، غارقًا في ألعاب الفيديو، وكأنه يوم عادي جدًا. لكن مع حلول المساء، عمّ الحزن البيت عند سماع صوت والدته وهي تلهث بصعوبة، كما لو أن روحها كانت تفرّ من جسدها. ملأت صرخات والده وأخيه المكان، بينما هو واقف في حالة ذهول أمام هشاشة المشهد. لا كلمات، لا حروف، ولا جمل يمكنها أن تفسّر الشعور الذي انتابه.

حمل والده والدته مسرعًا إلى السيارة لينقلها إلى المستشفى، حيث تبيّن في نهاية المطاف أن الأمراض المزمنة كالسكري وارتفاع ضغط الدم سيلازمانها بقيّة حياتها، ليس كضيوف عابرين، بل كمحتلين للجسد، أشبه بالاحتلال الإسرائيلي الذي جاء كزائر واستوطن فلسطين.

عاد إلى المنزل بدون والدته، التي بقيت في المستشفى تحت المراقبة. كانت ليلته لا تُوصف؛ بدت أفكاره تهيم في عالم من الضياع. ضياع في

البيئة الجديدة، ضياع في الوجوه الجديدة، ضياع العائلة، ضياع الأمومة، وأخيرًا ضياع الذات. كانت ليلة ثقيلة، مثقلة بهموم الضياع، بهموم الأمس، بهموم اليوم، وهموم الغد.

حلّ الصباح، ودخلت والدته إلى المنزل، وكان استقباله لها كاستقبال رجل غاب عن منزله لسنوات طويلة خلال فترة الاحتلال، وعاد بعد عشرين عامًا.

كانت بداية حياته الجديدة في تلك المنطقة محفوفة بالعثرات العائليّة والظروف المتعاقبة، أشبه بمسلسل درامي تتسارع أحداثه. لكنه تمسّك بالأمل في أن هناك شيئًا جميلًا سيأتي.

بالقرب من منزله، مدرسة صغيرة للبنين، لا تبعد سوى خطوات قليلة. قرّر أهله تسجيله فيها ليكمل مسيرته التعليميّة. كانت تلك الخطوة بمثابة شعاع أمل له، أمل في أنه سيتعرّف على أصدقاء جدد، معلمين جدد، وأناس سيعبرون إلى حياته وربما يغيّرونها إلى الأفضل.

جاء ذلك اليوم، اليوم الأوّل الذي سيبدأ فيه رحلته المدرسية الجديدة في تلك البلدة الغريبة. ارتدى ملابسه النظيفة وسترته المدرسيّة التي تحمل ذكريات مدرسته القديمة، فكما هو معروف، لكلّ مدرسة زيّها الخاص. حمل حقيبته وسار بخطوات متلهّفة نحو المدرسة، بابتسامة عريضة رسمها على وجهه، مفعمًا بالحماس لما سيأتي.

دخل المدرسة، ووجد نفسه محطّ أنظار الجميع، من التلاميذ إلى الأساتذة. بدأ يبحث عن فصله، فتوجّه إلى شخص يقف بجانب باب الإدارة، كان وجهه يظهر الجديّة. سأله عن الفصل، فوجهّه إليه.

دخل الفصل ليكتشف أن عدد التلاميذ يفوق تصوّراته، على عكس مدرسته القديمة التي كانت أعداد طلّابها خجولة نوعًا ما. نظرت إليه المعلّمة، فأحسّ بالخجل عند الباب، إذ كان متأخرًا خمس دقائق.

صرخت المعلمة بصوت حاد: "لماذا تأخّرت؟ ادخل دون أن تضيّع وقتنا." دخل الفصل في حالة من الارتباك، باحثًا عن مقعد يجلس عليه بجوار أحد زملائه. كانت المقاعد قديمة جدًّا، يجلس عليها تلميذان كما هو الحال في المدارس الرسمية.
شعر بنظرات التلاميذ تتراقص حوله، نظرات تحمل في طيّاتها الاستهزاء والتهكّم. نظر من حوله بذهول، صامتًا دون أن ينطق بكلمة.
مرّت الحصص بسرعة البرق دون أن يلتفت إليه أحد، حتى زميله الذي يجلس بجانبه لم ينبس ببنت شفّة. استغرب من تلك التصرفات، وظلّ يتساءل: "لماذا ينظر الجميع إليّ بهذه الطريقة؟ هل ارتكبت خطأً ما؟"
ظلّت تلك الأسئلة تطارده طوال اليوم، حتى جاءت الحصّة الأخيرة. وقبل أن تدخل المعلمة إلى الفصل، كان يغلق كتابه ليضعه في حقيبته، حينها اقترب منه تلميذان وسألاه: "لماذا ترتدي هذه السترة المضحكة؟"
نظر إليهما بصدمة، ولم يعرف كيف يردّ. أكمل أحد التلميذين: "ألم ترَ كيف يبدو مظهرك بيننا؟ هل تظن نفسك في مدرسة راقية لدرجة أنك ترتدي هذا اللباس هنا؟ انظر كيف يبدو مظهرك، سيقتلع بطنك أزرار السترة بسبب سمنتك الزائدة."
ارتفعت ضحكات الأولاد على كلمات التلميذ، بينما ظلّ هو ينظر إلى مقعده برأس مائل، ودمعه يترقرق في عينيه، ويداه تضغطان على فخذيه.
كان التلميذ الآخر يواصل الاستهزاء، يطلق كلمات جارحة ومهينة دون أن يتوقّف. انهالت عليه الإهانات حتى سمع في نهاية الحديث: "لا تتوهّم أنك ستكون صديقنا يومًا ما، فأنت غريب عنّا ولست من هذه المنطقة."
تجمّدت ملامحه من الصدمة، وكأن عينيه تكاد تنفجر. تذكّر كلمات "الغريب" الذي رافقه في أول يوم له في المنطقة.

انتهت الحصة الأخيرة، وانتهى اليوم الأول، وعاد إلى منزله حيث استقبلته والدته بترحاب، وابتسامة عريضة رغم تعبها ومرضها. قلب الأم، وما أدرانا ما قلب الأم. اضطر لإخفاء مشاعره الجريحة، حتّى لا يثقل كاهلها بهمومه، مشاعر تمزّقه من الداخل، محطّمة لآماله. بادَلها بابتسامة زائفة، وأخبرها بأن يومه كان رائعًا، بعد أن سألته عن أول يوم له في المدرسة.

ذهب مسرعًا إلى غرفته، أغلق الباب خلفه، وجلس على سريره، واضعًا يديه على وجهه، في مظهرٍ يفيض بالوجوم.

لم يعرف كيف يصف شعوره، ولا كيف يمكنه أن يستمر في الحياة في بيئة جديدة كتلك، وكأنّه يحمل هموم العالم على كاهله وهو لا يزال في الصف السابع. كيف يمكن لفتى في عمره أن يختار بين التوقف عن كلّ شيء، أو متابعة حياته بأسلوب لا يريده؟

أخرج ورقة فارغة من حقيبته وقلمًا، محاولًا أن يكتب لعل الكلمات تُريح صدره، ولعلها تساعده على التعبير عن مشاعره. جلس ساعات طويلة على الطاولة، يحاول أن يستنبط أفكاره ويصوغها إلى كلمات.

ضائع، مشوش، محطّم، مصدوم، كلّ تلك الصفات لا تكفي لوصفه. حلّ الليل، ولم يكتب سوى جملة واحدة كانت كافية لتعبّر عمّا يشعر به: "ويرهقني أنني مليء بما لا أستطيع وصفه."

كان المساء بداية لنهاية متوقّعة، بداية لآمال يائسة ونهاية للآمال السعيدة التي كان يتوق إليها. ظلّ طوال الليل يتأمّل سقف غرفته، يحاول فهم ما مرّ به خلال يومه. هل هو في حلم؟ أم أنه كابوس سيستفيق منه؟ حاول إنكار ما رآه، لكن القدر شاء أن يعيده إلى بيئة ليست ببعيدة عن بيئته السابقة، وإنما أقل رحمة.

استفاق من نومه في اليوم التالي، واستمر في معاناته اليوميّة من التمييز الذي يفرضه عليه الأساتذة والطلاب. عاش سنوات من التهميش، التفرقة، والعزلة، كلّ ذلك وهو مغمور بشعور الوحدة، ومع ذلك، ظلّ صامدًا في مسيرته التعليمية، مخفيًا آثار معاناته عن الجميع.
مرّت ثلاث سنوات في تلك البيئة التي ظلّت تنعته بالغريب، تميزّه عن الآخرين في كلّ تفاصيل حياته اليوميّة، رغم طيبته الظاهرة وملامحه التي توحي بالود. تساءل في نفسه: "ما الذي يجعل البشر يستمتعون بجرح الآخرين دون أن يرفّ لهم جفنٍ؟
كان يمرّ في كلّ ليلة من لياليٍ السنوات الثلاث بعقل متخم بالتفكير، وقلب محطّم، وذكريات مشتّتة، وروح منطفئة، وشعور بالملل ونفس منكسرة داخل جسد يعتريه الكسل.
من وقت لآخر، كان يكتب على أوراق بيضاء، يعبر فيها عن يأسه وألمه. كتب عن ندم المحترم على احترامه لأولئك الذين لا يستحقون الاحترام، قائلاً: "نحن في زمن يندم فيه المحترم على احترامه لبعض البشر." واستمر في تسجيل يأسه حتى اختتم كتاباته قائلاً: "الطيّبون كالنخل، ينحني مع الريح لكنه لا ينكسر...!"
بقي على ذلك الحال لعدّة أيام، بل لعدّة أشهر، تائهًا بين ماضيه وحاضره ومستقبله، لا يعرف كيف ستمرّ عليه الأيام. ربما ستمرّ كقطار فوق جسده، ولكنه يأمل أن تصل إلى وجهة مغايرة لما يعيشه.
في شتاء عام ٢٠١١، وتحديداً في ١٥ آذار/مارس، كان يتابع الأخبار على التلفاز مع عائلته حين بدأت الثورة السوريّة، وبدأت معها الحرب التي ابتلعت أرواح الكبار والصغار، الأطفال والرجال والنساء والعجزة، المثقفين والأميين. كانت الأحداث تُهجِّر الملايين من بيوتهم نحو أرجاء العالم، مثل زجاجة انكسرت وتبعثرت أشلاؤها يمنة ويسرة. رأى الدماء

والدمار، أشلاء الضحايا ملقاة على الأرض، والناس يهرعون من منازلهم، المباني تتهاوى، والدخان يملأ المكان.
تساءل: "من يدفع ثمن هذه المجازر؟ من يعوّض شقاء الناس الذين فقدوا حياتهم في محاولة بناء مستقبلهم ومستقبل أبنائهم؟ الجشع أفسد قلوب البشر حتى أصبح كلّ شخص يسعى لتحقيق مصالحه الخاصة حتى وإن كان ذلك على حساب دماء الآخرين."
ضاق صدره من المشاهد المروّعة التي رأى، حيث أدرك أن قسوة البشر لا تقتصر على تعاملهم مع بعضهم البعض، بل تتعداها إلى حد القتل من أجل البقاء، والانقضاض على الغير من أجل الوصول إلى أهدافهم.
لا يمانع البعض من الافتراء على الآخرين والتسبب في قتلهم لتأمين مصالحهم، ولا يترددون في الدوس على رقاب الآخرين للوصول إلى القمّة، حتى وإن كان ذلك يعني الوصول إلى مكان لا يستحقونه.
بعد فترة وجيزة، قرر أن يتجول بمفرده في المنطقة ليهرب قليلًا من الأحداث التي مرّ بها مؤخرًا. مشى حتى وصل إلى حديقة عامة كانت شبه خالية، كان وقت الغروب. جلس على مقعد وحيدًا، ينظر إلى السماء الصافية كصفاء الماء، ومزدانة بألوان خلابة ناتجة عن غروب الشمس. ابتسم ابتسامة خفيفة وخفض رأسه قليلاً ليرى امرأة في العقد الرابع من عمرها، تجلس على مقعد بعيد عنه قليلًا. كانت ترتدي عباءة بالية، وبشرتها داكنة، وشعرها بني، وملامحها تعكس الحزن العميق الذي تعيشه.
استفزّه منظرها، وكان متردّدًا بشأن سؤالها عن سبب حزنها، رغم أنها كانت موجودة هناك لأكثر من نصف ساعة ولم تتحرّك من مكانها قط.

استجمع قوّته، وتوجه نحوها. جلس بجوارها، كانت غارقة في الحزن، بدا وجهها خاليًا من أي بريق فرح، وعيونها تتلألأ بالدموع. قرر أن يسألها بصوت خافت عن سبب حزنها.

قال لها: "عذرًا سيدتي، هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟"

لم تردّ عليه، ولم تنظر إليه حتى. تابع: "هل يمكنني مساعدتك؟ أجيبيني، أرجوك، اعتبريني مثل ابنك، قد أستطيع أن أقدّم لك يد العون."

نظرت إليه دون أن تنطق بكلمة. ابتسم في وجهها الحزين وقال: "أجيبيني، أرجوك. يؤسفني أن أراك بهذه الحال رغم أنني التقيتك للتو."

بعد لحظات من الصمت، تنهّدت وأجابته بصوت مكسور: "هل تستطيع أن ترمّم قلبي المكسور؟"

نظر إليها بتعجب، ولم يعرف كيف يجيبها، ثم قال بصوت هادئ: "عذرًا، ولكن لم أفهم قصدك."

استمرت في النظر إلى عينيه، ثم طأطأت رأسها وقالت: "كانت ابنتي في السادسة من عمرها عندما رسمت لي صورة وأنا أبتسم ابتسامة عريضة."

تعجّب من حديثها في البداية، ولم يفقه الرابط بين كلماتها وحزنها العميق. توقّفت للحظات، وكأنها تجمع شتات مشاعرها قبل أن تستأنف الكلام. كانت عيناها مثبّتتين على الأرض، وكأنها تخشى مواجهة الحقيقة في عيون من حولها، ثم قالت بصوت خافت مليء بالأسى: "لكنني لاحظت أن أسناني في الصورة كانت صفراء".

كانت تلك العبارة البسيطة، في ظاهرها، كفيلة بالكشف عن مرارة دفينة، وكأنها ترى في انعكاسها في الصورة رمزيّة لكلّ ما انطفأ في حياتها. لونٌ باهت للأسنان، كما لو أنه مرآة روحها التي أرهقها الحزن والتعب، صرخة صامتة عن قسوة التفاصيل الصغيرة التي تفضح خبايا الألم.

ظلّ ينظر إليها بتلك النظرة التي تجمع بين الحيرة والأسى، عيونه الباهتة تحمل انعكاسًا لشخص يحاول فهم كلمات تتجاوز حدود المنطق. حاجباه المنحنيان وكأنهما يحتضنان عينيه في تساؤل صامت، مثل أي شخص يقف أمام كلمات حزينة غامضة، لا يدري إن كان عليه المواساة أم الانتظار لفهم المعنى.

تنفّس ببطء وكأن كلماته تخرج معه على استحياء، ثم قال لها بصوت خافت يحمل نبرة من الحيرة والارتباك: "نعم... وماذا بعد ذلك؟"

كانت كلماته أشبه بمفتاح صغير يطرق باب روحها المثقلة، محاولًا فك شيفرة الحزن الذي لم يبح به وجهها، بل اكتفى بالسكن في تفاصيل حديثها.

أكملت قولها بصوت يملؤه الانكسار، بينما نظراتها بقيت مسمّرة على الأرض وكأنها تبحث عن بقايا أمل ضائع: "سألتها لماذا رسمتني هكذا، فأجابت ببساطة: ' أردت أن تبدو مثلك تمامًا يا أمي'. منذ ذلك الحين... لم أبتسم منذ ثلاث سنوات."

توقّفت للحظة، وكأن الكلمات تخنقها، ثم تابعت بصوت متهدّج بالكاد يُسمع: "كلما أتذكر كلمات ابنتي التي فقدتها في الحرب... أشعر وكأن روحي ستخرج من مكانها. ليس لأنني أفتقدها فقط، بل لأنني أدرك أنني لم أرَ نفسي يومًا كما رأتها هي، بكلّ عيوبي التي أحبّتها ببساطة."

ارتجفت يداها وهما متشابكتان، وكأنها تحاول أن تلملم شظايا قلبها المكسور، وواصلت: "كيف أعيش، وكيف أبتسم، وأنا أعلم أن الضحكة التي كانت تجعلها سعيدة اختفت إلى الأبد؟"

شعر بثقل كلماتها، كأنها تحمل حزن العالم كلّه في قلبها. لم يعرف لماذا اختارته ليتحدث إليها، رغم قساوة المشهد، تساءل هل كان ذلك بسبب

لطفه؟ أم لأن الأرواح المتعبة تجذب بعضها البعض؟ لم يكن هناك إجابة واضحة، كما هو الحال مع بعض الكلمات التي تترك أثرًا عميقًا في روح الإنسان، حيث تصبح الحياة مرتبطة بالكلمات التي تتألّف من أحرف قليلة، لكنها تحمل أثقالًا غير مرئية.

عاد إلى المنزل، واستلقى على سريره لساعات طويلة. كان يقضي معظم أوقاته ساهرًا طول الليل، وكأن نهاره لا يبدأ إلا في ظلمة الليل. فتح شرفة غرفته، تلك الشرفة التي تطلّ على حديقة صغيرة، يتجوّل فيها بعض الدجاج وتنمو فيها أشجار صغيرة. كان صرير صرصار الليل يعمّ المكان، والطقس منعش يهبّ فيه نسيم الهواء البارد.

جلس أمام مكتبه الأبيض، أخرج ورقةً بيضاء كالثلج، وقرر أن يصف شعوره الذي يعجز عن فهمه. الكتابة، إلى جانب القراءة، كانت هوايته الوحيدة. ظل يفكّر في حالته، كيف يفسر مشاعره وهو لم يفهم نفسه بعد؟

ظل على ذلك الحال لعدة ساعات، ولم يكتب سوى ثلاث كلمات: "هاجمني الاكتئاب مبكرًا." نظر إلى الكلمات بصمت عميق مفعم بحزن غير مفهوم، أمسك بالقلم بيد ترتجف وبدأ يكتب دون وعي.

بعد أن انتهى، نظر إلى الورقة بشفقة، كمن ينظر إلى امرأة مسنّة تقطع الطريق بينما السيارات تنتظرها وصوت الزمامير يملأ المكان، والسائقون يصرخون عليها لتسرع.

لم يعرف كيف كتب تلك الكلمات، رغم أنها جملة واحدة، لكنها عكست ما يمرّ به. جاء في الورقة: "هاجمني الاكتئاب مبكرًا في وقت كان ينبغي أن أستمتع فيه بأجمل أيام حياتي. أشعر أن داخلي عدة أشخاص: أحدهم يضحك بصخب، وآخر يبكي بحرقة، وثالث لا يبالي بشيء."

مرّت الأيام على ذلك المنوال، حتى جمعته الظروف ببعض الأصدقاء، زملاء الدراسة أو من مدرسته نفسها، لكن كلّ تلك التجارب كانت تتراكم لتولّد وجعًا واحدًا، وهو كلمة "غريب". ما طبيعة تلك الكلمة؟ ومن يحق له أن ينسبها للآخرين في أرض لم يختاروا حتى أن يولدوا عليها؟ ومن يملك الحق ليقول تلك الكلمة لشخص قرّر أن يسكن في بقعة من الأرض هربًا من ماضٍ معين؟

مصطلح "غريب" قد شاع بشكلٍ واسع في تلك الفترة، لم يكن مقتصرًا فقط على الأفراد ذوي الهويّة الغربية الناطقين بلغات غير اللّغة الأم، بل طال أيضًا من كانوا يتحدثون اللغة نفسها أو حتى من كانوا في البلد نفسه. هذا ما تعوّد عليه المواطن العربي، أن يشعر بالاغتراب حتى داخل وطنه.

جمعت الظروف بينه وبين ثلاثة زملاء دراسة، تقبلّوه نوعًا ما كما قالوا، رغم أن الأمور لم تسر كما كان يتخيّل. هل هي شيطنة الطفولة؟ أم عدم تقبلهم له؟ حتى هو نفسه لم يدرك السبب الحقيقي لابتعادهم عنه دون مبرر سوى كونه "غريبًا". ما أصعب الشعور بأن يتلقّى الإنسان من الآخرين بصيص أمل صغير ثم يُقطع منه دون إنذار.

فيما بعد، التقى بأولئك الذين كانوا معه في المدرسة، بعضهم أصغر منه سنًا والبعض الآخر أكبر. كانوا يشكلون فرقة مكوّنة تقريبًا من تسعة إلى عشر أشخاص. لم يعرف لماذا أصرّ على التقرّب منهم، ليس لأنه يجد نفسه بينهم، ولا لأنه وحيد، ولا لأي سبب محدّد. ربما كان يحاول الهروب من هول الأفكار التي تلاحقه. أصرّ رغم كلّ الكلام الجارح الذي سمعه منهم، من تنمّر وإهانات معتادة بين المراهقين، وأيضًا التمييز بين "ابن المنطقة" و"الغريب عنها".

ما أبشع شعور عدم الانتماء، ذلك الشعور الذي يذكّر باستمرار أن الشخص لا ينتمي إلى الأرض التي يعيش عليها. وكلّما حاول أن يشعر

بالانتماء، يذكره ذلك الصوت في أعماق عقله بأنه يعيش في وهم لا أكثر.

لم يكن يعلم إن كانت تلك العلاقة السامة في مرحلة مراهقته ستدوم أم لا، كان يحاول فقط دون أن يبني أفكارًا مستقبلية، فربما ثقل الأفكار التي تراوده جعله يتصرّف بعشوائيّة. لم يكن يكترث لمبادئه أو حتى لكرامته في بعض الأحيان. عندما كانت البساطة تغلب على تعامله مع الآخرين، كان ذلك يعمي عقله عن اتخاذ القرارات الصائبة. وكأنه يملك عقلًا لعجوز في الثمانين من العمر، وقلب طفل لم يبلغ الخامسة بعد، في كمية البراءة التي يظهرها في التعامل مع الآخرين. كانت تلك الازدواجيّة والتناقض في شخصيته أساسًا لمشاكله.

استمر على ذلك المنوال حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، حين قرّر أن يبتعد قليلاً عن بيئته والجو المشؤوم الذي يعيشه، فغرق في عالم الرسوم المتحركة اليابانية أو ما يعرف بالأنمي الياباني. أقفل على نفسه الباب وشرع في قضاء ساعات طويلة أمام شاشة الكمبيوتر، يشاهد ليلًا ونهارًا دون كلل أو ملل.

لم يكن يرى في ذلك الأمر نوعًا من الهروب من الواقع، بل كان يعتبره راحة له، ضمن شخصيّات تشبهه في التفكير وتوصل له رسائل كان يتمنى أن يراها في كلّ من حوله. شخصيّات خياليّة ليس لها وجود في الواقع، لكنها تترك أثراً عميقاً في نفسه، كأنّها صديق حقيقي، يفهمه ويواسيه في بؤس حياته.

اكتشف أن إدمانه على ألعاب الفيديو منذ طفولته، وحبّه للمطالعة والكتابة، ومشاهدته للمسلسلات السورية والرسوم المتحركة اليابانية، لم تكن مجرّد مضيعة للوقت أو تصرفات غير عقلانيّة لا تتناسب مع عمره كما كان يرى البعض، أو حتى نوعًا من الانطواء كما يراه آخرون. بل،

في حالته، كانت تلك الأنشطة قمّة العقلانيّة في واقع لا يمد له يد العون، وفي غياب أي دعم لمسيرته. كانت تلك الهوايات أفضل من أن يظل جالسًا يفكر في أمور تستنزف وقته وطاقته، حتى وإن كانت تافهة أو غير مهمّة.
في أوقات راحته من المشاهدة والمطالعة، قرّر البحث عن ملاذ آخر في عالم الإنترنت، باحثًا عن أصدقاء يشبهونه في حياته وتفكيره واختياراته.
أنشأ حسابًا على فيسبوك باسم مستعار مستوحى من أحد شخصيات الرسوم المتحركة اليابانيّة، وبدأ يغوص في أعماق الشبكة، يبحث عن صفحات وشخصيّات تشبهه تمامًا. ذُهل من العدد الكبير للأشخاص الذين بدا أنهم هاربون من واقعهم المرير مثله، من بلدان عربية وأجنبية على حد سواء.
غمرته الفرحة عندما وجد من يشبهه، من يشاركه وحدته وبؤسه ويأسه، ومن يعاني من حالات نفسية معقّدة.
تعرّف إلى أشخاص، راسلهم، دردش معهم، وفرح معهم لعدّة دقائق وساعات وأيام، حتى تحوّل ذلك التعلّق بعالم افتراضي ليس له وجود إلى نقمة على حياته. كيف حدث ذلك؟
رغم أنه كان يتبع مقولة "لا تستطيع تغيير الناس الذين حولك، لكن يمكنك تغيير الناس الذين حولك"، فإن القدر شاء أن يسلب منه أولئك الذين كانوا بعيدين عن العين لكنهم قريبون من القلب. السبب الأساسي كان ضعف شخصيّته كما في صغره وتعلّقه اللامحدود بمن يحبّ، دون إدراكه لخطورة التعلّق بمن لم يبذلوا جهدًا لمبادلته الشعور نفسه. فقد كان التعلق أشبه بالموت البطيء، يُنهك الروح ويزيد الألم.

بعد الهجوم العنيف الذي تعرض له من أصدقائه الإلكترونيين لأسباب تافهة يجهلها، وإحساسه المتزايد بعدم الأمان، قرّر إغلاق حسابه الشخصي والابتعاد عن ذلك الجو الكئيب.
رغم محاولاته المتكررة لحل الأمور، أدرك أن الجدال العقيم مع أشخاص لا يجدي نفعًا، وأن كلّ إنسان مدرك لتصرفاته التي يتبعها. فحتى وإن تعلّق الإنسان بشخص آخر، سيأتي يوم يشعر فيه بالملّل من محاولته إصلاح من لا يسعى لتحسين نفسه، خصوصًا إذا كان الشخص يقلّل من قيمة من يبادله الحبّ والاحترام. إنه أشبه بإلقاء الوقود على النار.
مرّت السنوات الثلاث بسرعة البرق، وكبر، وتعلّم، وثابر، وبدأ يتصالح مع وحدته، ليكوّن شخصيته المتناقضة. لو كان يعلم ما يخبئه له المستقبل، لتحسّر على نفسه وتمنّى أن يتباطأ الزمن.
أكمل دراسته الثانوية في مسقط رأسه، وكان يتنقّل يوميًّا من منزله إلى المدرسة التي لم تكن تبعد كثيرًا عن المنطقة التي يقيم فيها. كانت تلك الفترة بمثابة فترة من السكون والركون، حيث كانت الأحداث فيها بسيطة وهادئة، لكن الملل كان أشبه بالسجائر، يشتعل وينطفئ في وقت محدد.
رغم أنه كان متصالحًا مع ذاته ومع وحدته، إلا أنّه كان يمرّ بأوقات يشعر فيها بالعجز عن تحمل حياته، ويتمنّى فيها الموت مئات المرات. ولكنه كان يخبئ ذلك عن الجميع، ليس خوفًا من الشفقة، بل لأنه تعود على التظاهر بالتأقلم.
في نهاية فصل الخريف وبداية فصل الشتاء، استفاق صباحًا على طقس غائم، حيث تجمّعت السماء بالغيوم الثقيلة.
نظر من نافذة غرفته، وأشعره الطقس الماطر بالسعادة، فهو كان يعشق هذا الجوّ، ويشعر وكأن المطر هو غسل للقلوب الحزينة. همس لنفسه:

"إنها تمطر بلا توقف، هل تملك الغيوم كلّ هذه الدموع؟ أشعر بالغيرة منها لأنها تبكي بارتياح، ليتني أستطيع البكاء بقدرها لأخفف عن نفسي."
مع حلول المساء، في تمام الساعة التاسعة والنصف، كان المنزل خاليًا. والده في العمل، ووالدته عند الجارة، وأخوته غائبون دون أن يعرف أين هم، فقد تعوّد على عدم الاطلاع على تفاصيل حياتهم. جلس قرب النافذة، حيث كان الهواء قويًّا، وبدأ يكتب على ورقة بيضاء، محاولًا أن يعبر عن مشاعره التي لم يستطع تحديدها.
فجأة، رن جرس المنزل. تفاجأ، لأنه اعتاد ألا يزور أحدٌ منزلهم، إذ كان والداه يحتفظان بالمفاتيح، ونادرًا ما يأتي زوار، لأن أهله يفضلون قلة الاختلاط بالآخرين. اقترب من الباب وسأل: "من هناك؟" جاءه صوت مألوف، ليس بالغريب، وصاح صاحب الصوت بفرح: "الحمد لله، أنت هنا!" تذكر الصوت، فهو يعود لأحد أفراد تلك المجموعة التي لطالما شعر بالنفي والنبذ منها، مجموعة لم ينجح في الاندماج معها رغم محاولاته العديدة، وكأنها محاولة فاشلة مثل الاتفاق بين فلسطين وإسرائيل.
تساءل في نفسه، هل يمكن تحميل تلك المجموعة جزءًا من المسؤولية عما مرّ به من صعوبات؟ أم أن الأمر لا يعنيهم، لأنهم لا يدركون ما عاناه منذ الطفولة حتى ذلك الوقت؟ المسألة نسبية، فالمراهقون في تلك المرحلة العمريّة قد لا يكونون مؤهّلين لفهم تجارب الآخرين بعمق، وقد ينطقون بكلمات دون إدراك لتأثيراتها.
مرّ شريط الأحداث الصعبة في ذهنه، وهو واقف أمام الباب، صامتًا، بعد أن تعرف إلى هوية الزائر من خلفه.
فتح الباب لتستقبل عيناه وجهين مألوفين؛ شابين من أفراد تلك المجموعة، كانا من ذوي النفوذ البارز، وكأنهما قادة المجموعة. بادر

أحدهما بالترحيب، قائلاً: "مرحبًا، كيف حالك؟" نظر إليهما، ورد السلام بإيماءة خافتة، كأنما يشعر بالقرف أو ذلك الشعور العميق الذي يتبع الخذلان، شعور يصعب تسميته بدقّة.
أخذ أحدهما يتحدّث، مختصرًا حديثه بعبارات اعتذار عن كلّ ما بدر عنهم من كلمات قاسية، وعبّر عن اشتياقه لوجوده معهم. لم يكن لتلك الاعتذارات أي وقع عليه؛ كانت ابتسامته زائفة، ابتسامة يظهرها المرء بعد سماع كلمات كاذبة أو حديث فارغ، بعد موجة من الخذلان القاسي الذي كسر بينهما الثقة والود.
انتهى اللقاء بجملة واحدة قالها لهما: "حصل خير." أعاد الابتسامة الباهتة وأغلق الباب خلفه، ثم استند إلى الباب ورفع عينيه نحو السقف، متسائلًا في حيرة: "ما الذي يحدث؟ لماذا أتيا؟ ماذا يريدان؟"
طرح على نفسه سؤالاً عميقًا: "لماذا كلما حاول الإنسان أن ينسى ما مرّ به، يظهر حدث ما يعيد ما دفنه في قلبه، كأنما بركان هائج يثور بعد فترة من السكون؟"
عاد إلى غرفته، وألقى نظرة على الورقة البيضاء والقلم الأسود، عيناه تفيضان بالشفقة على نفسه. أمسك القلم وكتب على الورقة: "قد يصان الود بالبعد أحيانًا."
الإنسان يعيش حياته في تخبط دائم، يتربى على مبادئ لا يعرف مصدرها، أو كيف استقاها، أو حتى من أعطاه الحق في فرضها على الآخرين. يعيش بين أشباهه في الشكل والجنس، يتشارك معهم الحديث، ويلقي عليهم أعباء أمراضه النفسيّة، يمارس مبدأ شريعة الغاب دون وعي أو ربما بوعيٍ مشوّه. وعندما يحين الوقت الذي يجد فيه نفسه وحيدًا، يلقي باللوم على الآخرين، متقمّصًا دور الضحيّة. يتذكّر حينها أولئك الذين وقفوا بجانبه وساندوه، بعد أن ألحق بهم الألم وجرحهم

بتصرفاته وكلماته. لم يلتفت إليهم عندما كانوا بالقرب منه، عندما اختاروا أن يحبّوه كما هو، كان يتعالى عليهم. وحين يفوت الأوان، يعود يبحث عنهم، متوسلًا أن يمنحوه فرصة أخرى. وحتى لو عادوا، هل يعودون كما كانوا؟ يبدو الأمر أشبه بالمستحيل. فالثقة والمودة هما الركيزتان الأساسيتان في أيّ علاقة، وبمجرد أن يُنتزع أحدهما أو يُمسّ، لن يعودا كما كانا. وإن عادا، فلن يكونا سوى ظلٍّ باهت، أشبه بمجرد مجاملة فارغة.

بعد عدة أيام من ذلك اليوم، قرّر أن يذهب للتسوّق مع والدته. في السوق، حيث يختلط الفقراء والأغنياء، وأبناء الطبقات المتوسّطة مع من يتظاهرون بالفقر أو الغنى، كان يتجول بين الأسواق القديمة المزدحمة بالحياة، التي تتوسطها الأبنية العتيقة التي شهدت عقودًا من الزمن ومرّ عليها جيل بعد جيل. بينما كانت والدته تتنقّل من متجر إلى آخر لتسأل عن أسعار الملابس، كان هو ينتظرها في الخارج، يتأمل المارة بتمعّن.

كانت نظراته تتنقل بين الوجوه المختلفة، وتدور في ذهنه فكرة أنه من المستحيل أن يعيش أو يعمل في بيئة صاخبة كتلك. لا شيء يعكّر صفو الأماكن التي تملؤها الضجّة بالنسبة له، فهو لا يتأقلم معها.

بينما كان يقف بجانب أحد المحلات التجارية، لفت انتباهه امرأة تسير مع ابنها الذي بدا في الرابعة من عمره. رأى الصبي يركض نحو قميص صغير معلق بين عدة قمصان قرب المحل، ثم أمسك بالقميص ورفعه لأمه قائلاً: "ماما، هذا قميص أخي، خذيه لنرسله إليه إلى الجنّة."

وضعت الأم يدها على فمها، وكأنها تحاول كبت صرخة انهيارها، ولفّت يد ابنها بسرعة وسرعان ما غادرا دون أن ينظرا إلى الوراء.

ظلّ مصدوماً مما شاهده، عيناه زائغتان وهو ينظر إلى المكان الذي أمسك فيه الطفل بالقميص. لم يعرف كيف يصف الشعور الذي انتابه في

تلك اللحظة، وكان من الصعب عليه تصديق ما حدث، أو حتى استيعاب فحوى الحدث.

إن نقاء الأطفال وصدقهم لا يمكن وصفهما، ولا تكفي مجلّدات لاحتوائهما. لو احتفظوا بنقائهم عندما يكبرون، لما عرف العالم شيئًا عن الشر، ولما سُمع بظلم أو أذى. لو أُريدَ تعليم الصدق والعطاء والنقاء، لكان الأطفال خير مرجع وأفضل معلّم. ولكن يمكن تخيّل كيف سيكون الأمر لو حدث ذلك، لما وُجدت جنة أو نار في الآخرة، لأن الإنسان كان سيجهل طبيعة الشر، ولن يكون للآخرة وجود يُعاقب فيه من سلك طريق الأذى والضرر.

بعد عدّة أيام من تلك الحادثة، وفي منتصف فصل الشتاء من عام ٢٠١٥، بدأت صحّة والدته تتدهور بشكل مطرد. كانت تعاني من آلام حادة في صدرها، وكأن روحها تخرج من مكانها، إلى جانب الأمراض التي كانت تعاني منها منذ فترة. أصبح يوميًّا في حيرة من أمره، يتساءل كيف يمكنه أن يوازن بين رعايتها وبين متطلبات الدراسة. كانت تراوده مخاوف هائلة من فقدانها، ويشعر بالقلق من تركها وحدها كلّ صباح ليذهب إلى الثانوية، في الوقت الذي كان فيه والده وإخوته غير متواجدين في المنزل.

تفاقم الوضع النفسي لديه، مشاعره في حالة من الفوضى، إلى أن قرر أخيرًا أن يترك الثانوية ويبقى لرعاية والدته.

في إحدى الأمسيات، صدمه صوت والده وهو يناديه بلهفة ليهرع إلى والدته. ركض كالمجنون، دون أن يكون لديه أدنى فكرة عمّا يحدث، ليجد والدته مرهقة للغاية، عيناها غائرتان وكأنهما ستخرجان من وجهها وهي تحدق في السقف بعيون غير واعية، وتلهث بشكل غير منتظم،

وكأنها تطلب النجدة بطريقتها الخاصة بلغة غير مفهومة. أسرع مع والده لحملها ونقلها إلى طوارئ إحدى المستشفيات القريبة.
عندما وصلوا إلى المستشفى، قام الطبيب بمعاينتها فورًا وطلب إجراء الفحوصات اللازمة والروتينية التي تقتضيها الحالة.
حلّ صباح اليوم التالي، وبعد قضائه ليلته بجانب والدته في المستشفى، جاء الطبيب ليبلغه بأن هناك حاجة لإجراء فحوصات إضافية للتأكد من صحّة القلب، حيث أظهرت الفحوصات الأولية وجود مشاكل في القلب، بالإضافة إلى ارتفاع ضغط الدم وداء السكري. لم يكن يفهم تفاصيل تلك المصطلحات، فهي بالنسبة له كانت كلمات غريبة تنم عن أمراض لا يدرك أبعادها ومدى خطورتها. كلّ ما كان يعنيه هو والدته وصحّتها. كيف يشعر مراهق في سنّه، يراقب والدته التي رعته وسندته وعلّمته الحبّ والحنان، وهي تعاني من الألم الشديد، دون أن يعرف كيف يمكنه أن يعيد لها ولو جزءًا يسيرًا مما قدّمته له؟
لم يأتِ الليل إلا ومعه تقرير الطبيب الذي أفاد بأن والدته بحاجة إلى إجراء عملية جراحية تُعرف باسم "جراحة طُعم مجازة الشرايين التاجية" أو ما يُسمى باللهجة العامية "القلب المفتوح". قرّر الطبيب أن تُجرى العملية في مستشفى بعيد نوعًا ما عن سكنهم. كانت الصدمة واضحة على وجهه، حيث بدأت دموعه تتجمع في عينيه عند سماع ذلك الخبر. شعر وكأنه يواجه احتمال فقدان والدته، وهو ما يراه أكبر خسارة قد تواجهه، كأنما سيفقد جزءًا عزيزًا من روحه.
قرّر الطبيب أن تُنقل والدته في سيارة إسعاف منتصف الليل، لأن العملية الجراحية كانت مقرّرة في صباح اليوم التالي.
نُقلت والدته على حمّالة من غرفتها، وهي شبه مدركة لمن حولها. عند وصولها إلى سيارة الإسعاف، لفتت انتباهه تلك اللحظة المؤثرة عندما

رأت جدّه أي عمّها، والد زوجها، الذي كان في العقد السابع من عمره، يُنزل من السيارة نفسها على حمّالة أخرى. مدّت والدته يدها لتلمس يد عمّها، وكان رد فعله بديهيًا، فبادلها اللمسة دون وعي، ولكن لم يكن يعرف أنها ستكون آخر لمسة بينهما.

توقف مشهد انتقال والدته إلى سيارة الإسعاف أمام عينيه وكأنه يراه للمرّة الأخيرة. وجد نفسه مشلول الحركة، عاجزًا عن اتخاذ أي قرار، وهو يراقب والدته تُنقل إلى سيارة الإسعاف وجدّه يخرج منها. لم يكن يعلم أين يذهب أو مع من يبقى. عمّاته وعمومته كانوا بالقرب من والده، يُخبِرونه أن والده قد أصابته ذبحة صدرية وهو في حالة شبه وعي.

بينما كان يتصارع مع مشاعره الممزقة، تداخلت الأوقات والأماكن في ذهنه، كأنما يُحشر في أتون من الألم والارتباك، لا يعرف كيف يتعامل مع ذلك الضغط المتراكم في قلبه.

كان القلق مسيطرًا عليه خوفًا على والدته وجدّه، بينما كان عقله يكافح لاستيعاب صدمة أن والده أيضًا في حالة نفسيّة سيّئة.

عاد إلى المنزل برأس مائل كأنه يثقل عليه من هول المشهد الذي حضره. جلس على طرف السرير، وضع يديه على وجهه، وبدأ بالبكاء بحرقة، يشعر بخوف عميق من احتمال فقدان والدته ومن حالة جده الذي بدا كأنه يوشك على الموت.

استفاق في صباح اليوم التالي، وقد نام دون أن يشعر بنعاس، ربما بسبب الإرهاق والتعب، أو ربما بسبب اليأس العميق الذي غلف حياته. بدا كأن الألم الذي يعيشه كشمعة مكسورة، قد انطفأت فجأة في تلك اللحظة.

خرج من غرفته، يبحث عن والده، متسائلاً بلهفة عن موعد ذهابهما إلى المستشفى. انتبه في تلك اللحظة إلى أن العالم من حوله غارق في

الظلام، فلم تشرق الشمس بعد! هل وصل به الحال إلى درجة أنه يستيقظ في حالة من عدم الوعي، ملهوفًا على موضوع يشغل تفكيره؟
أسئلة كثيرة دارت في ذهنه، ولكن لم يكن لديه الوقت للتفكير بها بوضوح. كلّ ما كان يشعر به هو أن هناك شيئًا ما يتطلب منه التحرّك بسرعة، وها هو ينطلق في محاولة للعثور على والده، على أمل أن يجد ما يبعث على الطمأنينة وسط ذلك الغموض والألم.
بدا الأمر كأن الروح غارقة في سبات عميق، بينما العقل يقاوم السكون بتوتر، متوجّسًا من لحظة الهدوء التي قد تفسح المجال للاستسلام.
من المستحيل أن يُدان شخص على قلقه واستيقاظه في منتصف الليل دون وعي كامل لمكانه وزمانه. أي مسألة تتعلق بشخص عزيز تُثقل كاهل الإنسان، ويظل الحزن يلاحقه طوال اليوم، وربما لأيام، دون أن يدرك سببًا محددًا.
الكلمات الجارحة، الأذى، حتى القدر نفسه حين ينزل بمصائب على الأحباب، تجعل القريبين يشعرون وكأنهم جزء من المعاناة، وكأن الألم قد دُفِع إليهم. الأشخاص الأوفياء، هؤلاء الذين أصبحوا كالأحجار الكريمة في هذا العصر، هم من يتحمّلون أعباء هذا الشعور. وفي حال الأم، ذلك الكائن الذي لا يمكن لأي كلمات أن تعبّر عن عظمة تضحياته وحنانه، تصبح المسألة أكثر مأساوية. كلّ الكلمات تبدو خجولة أمام وصف عطاء الأم، الذي لا يمكن تصوره إلا من خلال فناء الذات وتفاني الروح.
ذهب مع والده إلى المستشفى، حيث انتظرا لساعات طويلة بينما والدته في غرفة العمليات. بعد انتظار مرهق، خرج الطبيب ليبشر بنجاح العمليّة الجراحيّة، مشيراً إلى أنها بحاجة للراحة بعد الجراحة.

في تلك اللحظة، رن هاتف والده، لتظهر على وجهه علامات الصدمة المروعة. كان الصوت يحمل خبر وفاة جدّه، ما جعل والده، الذي كان يواجه معضلة صعبة، بين فرحة الاطمئنان على صحة زوجته وحزن الفقدان. كيف يمكن أن يشعر إنسان يتلقى خبرين متناقضين، أحدهما يرفع روحه إلى السماء والآخر يسحبها إلى الجحيم؟ إنها لحظة من أسوأ اللحظات، كمن يُنتزع من بين يديه قطعة خبز كان يتطلع إليها بعد جوع طويل، ليجد نفسه في قاع الجوع من جديد.

مرّت الأيام، وعادت والدته إلى المنزل. ظلّ بجانبها، يشرف على راحتها ورعايتها، لأشهر طويلة، محاولًا احتواء كلّ الأحزان والصدمات التي واجهته، والتصالح مع الحقيقة القاسية التي لا تنفك تلاحقه.

في أحد الأيام، رنّ هاتفه من رقم شخص مجهول، فاستجاب بسرعة، ليكتشف أن المتصل هو إحدى زميلاته في الثانوية. اندهش عندما وجد أن زميلته اتصلت للاطمئنان عليه بعد فترة طويلة من الغياب. بدأت المحادثة بتبادل كلمات دافئة دون التطرق لعمق معاناته، وصدم من ذلك الاهتمام غير المتوقع، خاصةً وأنه كان في قاع اليأس، حتى أنه نسي تمامًا أنه في السنة النهائية من المرحلة الثانوية.

عندما انتهت المكالمة، لم يأخذ كلماتها بجديّة. اعتبر ذلك مجرّد فضول لمعرفة تفاصيل حياته ونقلها لبقية الزملاء. كان تأثير الخذلان العميق الذي عاشه قد غمره بمشاعر سلبية، لدرجة أنه لم يكن يستطيع رؤية أي بصيص أمل.

كان يلوم نفسه على تلك الأفكار المظلمة، لكنه تساءل: "هل من الممكن أن يندم على تلك المشاعر إذا قرر أن ينظر إلى الجانب المشرق من الأمور؟"

في اليوم التالي، ومع بداية فصل الربيع عام ٢٠١٥، اتصلت به الزميلة نفسها مرّة أخرى، مقدمةً له ملخّصًا شاملاً لما فاته من دروس. كان هدفها أن تساعده على اللحاق بزملائه في الدراسة، وأن يمنع تفاقم مشاكله الأكاديمية.

ابتسم ابتسامة مختلطة بالفرح والحزن، وكأنما وجد بصيص أمل في ظلامه. تلك الابتسامة كانت تشبه شعور شخص تائه في الصحراء، يكتشف واحة تروي عطشه بعد طول جفاف. كان اهتمام زميلته بمثابة شمعة أضيئت في أعماق روحه المتعبة، بعد فترة من الظلام والخذلان.

قرر أن يكرّس وقته لدراسته والاعتناء بوالدته بدلاً من أن يقضي أيامه جالسًا أمام نافذة منزله. اجتهد في دراسته، وبذل كلّ جهده ليواصل الحياة، عاقدًا العزم على مواجهة مصاعبه وإعادة ترتيب أولوياته.

استمرّ على ذلك المنوال حتى اجتاز امتحاناته النهائية، بينما كانت صحة والدته في تحسن ملحوظ. مرّت الأيام كلمح البصر، كانت سريعة لدرجة أنه لم يشعر بمرور الوقت بين انتهاء امتحاناته واستلام النتائج. ربما لأن تلك الفترة كانت هادئة نسبيًّا، خالية من الأحداث المأساوية والقلق المستمر، على عكس ما كان يشعر به من حماسة وتأمّل. كما هو الحال في الحياة، كلّ شيء يبدأ بقوة وشغف، لكنه غالبًا ما يفقد بريقه مع مرور الوقت ويصبح أقل تأثيرًا.

في صيف عام ٢٠١٥، وتحديدًا عند الساعة الرابعة من بعد الظهر، أصدرت نتائج الامتحانات، وجاءت الأخبار كطوق نجاة: كان قد نجح بدرجة جيّدة، من بين ثُلّة قليلة من زملائه الذين أحرزوا نتائج مماثلة. كانت تلك اللحظة نادرة بين لحظات فرحه القليلة، رغم أنه لم يكن يتوقّعها. ربما كانت تلك الشرارة من الأمل، إلى جانب دعاء والدته التي

كانت في أمسّ الحاجة إليه، هما ما ساعداه على تحقيق ذلك النجاح. كما يُقال: "للشدّة مدّة ثم يُلقى المرء سعده."
أنهى فصول مراهقته وهو ينهض ضد كلّ من زادوا من عزلته وكبته خلال تلك المرحلة. أثبت قدرته على الصمود والتفوق رغم الصعوبات التي واجهته، في وقت كان فيه من المفترض أن يعيش أفضل أيام حياته. آنذاك، وهو على أعتاب الحياة الجامعية، كان في حالة من الحيرة: هل سيظل محاصراً في قوقعته أم سينطلق نحو حياة جديدة؟
في نهاية المطاف، هل سيستمر في نفس روتين حياته، ليبرهن على أن الإنسان لا يمتلك سنداً سوى نفسه؟ ربما يمكن اختصار رحلته تلك، والرحلة القادمة، بعبارة واحدة: "احتضن نفسك جيداً، فذراعاك لن تخونك أبدًا."

ألم تطل هذه المحنة؟

– الفصل الثالث –

شروق الظلام : رحيل الأمل في عمق الشباب

يقول الكاتب السوري حسن سامي يوسف في مسلسل الندم "أرضنا محكومة بأركانٍ أربعة (النار، الهواء، الماء والتراب) وهذه الأركان معروفةٌ منذ فجر الحياة ومن قبل أن يقتل قابيل أخاه هابيل، أما وأن الجريمة قد وقعت فقد صارت البشريّة بحاجة إلى أركان جديدة، أهمها الأخلاق."

من المفترض أن يكون مفهوم الأخلاق ثابتًا، حتى ولو اختلفت وجهات النظر حوله. يظل هذا المفهوم قائمًا على أسس معروفة منذ فجر الحياة، سواء أدرك الإنسان ذلك أم لم يدركه. ولكن كيف يمكن لهذا المفهوم أن يتغيّر بين ليلة وضحاها، ليصبح الشخص الذي يتعامل وفق هذا الركن شخصًا ساذجًا، يتم استغلاله، أو السخرية منه لأنه يبني تصرفاته على أساس هذا الركن؟ هل تغيّرت الحياة وأفسدت مفهوم الأخلاق عند الناس، أم أن الناس تجردوا منه وتخلوا عنه؟ الصورة تبدو ضبابيّة، يكتنفها الغموض والحزن، وكأن الأخلاق باتت ظلًا باهتًا في عالم فقد بوصلته.

إنطلاقًا من هذا الركن الأساسي قرّر أن يبدأ رحلته وهو في طور نضوجه التام، حيث كان يقول دائمًا، مهما فكّر، ومهما عصفت به الحياة، سيتعلّم أكثر وأكثر، وكأنّه رغم كلّ عاصفة تمرّ به يقاوم لأنه يرى أن بعد كلّ عاصفة هناك شمس ستسطع، ولكن هل تلك الآمال هي عبارة عن خزعبلات يختبئ وراءها الإنسان ليهوّن على نفسه؟ أم أنها تختلف بين إنسان وآخر بحسب ظروفه أو حظّه؟

إن الأمر جعله مع مرور الوقت يطرح على نفسه العديد من الأسئلة التي لا جواب لها ليجمعها في كتيّب صغير، وكأنه يجمعها ليطرح في نهاية المطاف العديد من الأسئلة التي لم يكترث لأمرها من هاموا في استكشاف العديد من الأمور التي تساعد الإنسان في حياته اليوميّة ولكنهم لم يبحثوا أو يكترثوا لكيفيّة مساعدة الإنسان لنفسه في البحث عن تفاصيل أمور تساعده في ترميم قطعه الصغيرة بعد كلّ صدمة وبعد كلّ انكسار أو بعد كلّ خذلان.

في يومه الأول من حياته الجامعية، اتخذ قرارًا بأنه سيغيّر سلوكه الخجول تجاه الناس، وبأنه سيحاول أن يصبح اجتماعيًّا أكثر، معتقدًا أن خروجه من قوقعته قد يجعله شخصًا أفضل.

لم يكن يدرك تمامًا سبب اتخاذه لذلك القرار، ربما كان حماسًا عابرًا، أو شعورًا بالمسؤولية لأنه أصبح أكبر سنًا. فالشاب عندما ينتقل من مرحلة كونه تلميذًا إلى طالب جامعي، يشعر أن نظرته للحياة تتغيّر، وأنه أصبح أكثر نضجًا ووعيًا تجاه الحياة والناس. لكن في لحظات العزلة والوحدة، كان يراوده الشك بأن ليس كلّ ما استنتجه صحيحًا، تتسلل إليه أفكار تعيد صياغة ما ظنه يقينًا. ومع ذلك، لم يكن يدرك أن الواقع يختلف تمامًا عمّا تصوّره، وأن النضج لا يأتي فقط من مرور العمر، بل من التجارب التي تترك في داخله جروحًا أعمق مما كان يتخيّل.

بدأ يومه الأول في حياته الجامعيّة في جامعة بعيدة عن منزله، حيث كان عليه أن يستقل سيّارتَي أجرة للوصول إليها، وهو الأمر نفسه عند العودة. ارتدى ثيابًا جديدة، رش عطره المفضّل، وحمل حقيبته السوداء، متجهًا بخطوات سريعة نحو الجامعة.

عندما وصل، بدأ بالبحث عن قاعته، ولمّا وجدها، رأى الدكتور المحاضر جالسًا يقلّب شاشة هاتفه، يبدو صغير السن، ينتظر اكتمال عدد الطلاب للبدء، إذ كان الحضور قليلًا نسبيًّا.

وقف عند باب القاعة للحظة، متردّدًا، لم يكن قد حضر سوى طالبتين تجلسان هناك. لفتت نظره طالبة شابة، شعرها أسود طويل، بشرتها بيضاء، وعيناها الواسعتان كانتا تبدوان كعيني غزال الرنة، تتغيّران بتغيّر حالة الطقس. كانت لطيفة في تعاملها معه، نادته ليدخل دون تردّد.

اتخذ خطواته ببطء، وقلبه يخفق وكأنه سجين يتّجه نحو المشنقة. جلس بالقرب منها، وتبادلا أطراف الحديث بخجل، كأي حديث بين شخصين يلتقيان للمرة الأولى. مع مرور الوقت، امتلأت القاعة بالطلاب، وكان عدد الإناث يفوق عدد الذكور بفارق واضح، ما أضاف إلى شعوره بالعزلة والغرابة في ذلك العالم الجديد الذي دخل إليه، عالمًا يحمل في طياته مزيجًا من الحماس والخوف والضياع.

بدأ يجول بنظره داخل القاعة، كان معظم الطلاب يشكلون جماعات، كلّ شخصين أو ثلاثة يجلسون معًا وكأنهم أصدقاء قدامى من أيام الثانويّة، يكملون رحلتهم التعليميّة جنبًا إلى جنب. كان المشهد يمزق قلبه، إذ شعر بوحدة قاتلة، لا أحد معه، لكنّه تذكّر إصراره الذي وعد به نفسه على المثابرة، حتى لو كان في الطريق وحيدًا.

انتهى اليوم الأول، وعاد إلى منزله، واستمر في الروتين اليومي نفسه، يتابع أيامه بالوتيرة نفسها. لعدّة أيام، كان يستيقظ بحماس للذهاب إلى الجامعة، رغم الوحدة التي كانت تلازمه، إلا أنّه صار يُعرف بين صديقاته، كونه الشاب الوحيد بينهنّ في القاعة.

كان يواجه كلّ يوم بصبر، لكن تلك الوحدة التي ظنّ أنه قادر على تجاوزها، كانت تعيد إليه شعورًا بالحسرة والفراغ، وكأن لا أحد في العالم يشبهه أو يشاركه تلك المسافة البعيدة التي تفصل قلبه عن الآخرين.

بعد مرور عدّة أيام، وبالتحديد بعد شهر واحد، بدأ يتأقلم مع الجو العام بين زملائه، وشعر بالفرح لذلك التغيير الجذري الذي طرأ على حياته فجأة، وجعله يصف نفسه بالاجتماعي.

في صباح يوم السبت، تلقى رسالة من رقم شخص مجهول، كانت فتاة من فصله نفسه تطلب منه المساعدة فيما فاتها من دروس بسبب ظروفها الخاصة. وكعادته، لم يتردد في تقديم العون، فقد اعتاد أن يساعد زملاءه وزميلاته دون أن يفكّر مرّتين. لكن، ما كان يجهله هو أن الكثير منهم يستغلّونه دون أن يشعر، سواء في أخذ ملاحظاته، أو في شرح الدروس التي لم يفهموها، أو حتى في دفع الحساب بعد جلساتهم في المقهى قرب الجامعة، رغم مصروفه المحدود الذي كان يتلقّاه من والده كلّ صباح. كان ذلك التقليد العائلي متعارفًا عليه، لكنه لم يدرك مدى استغلال الآخرين له. فقد كان مغيّبًا عن ذلك الواقع، مغشيًا بفرحة التغيير الذي ملأ حياته بلذة السعادة الزائفة.

إنّ الإنسان في بداية أي تغيير يحتاجه بشدّة قد يصبح أشبه بالأعمى، وخصوصًا إذا كان ذلك التغيير يمنحه سعادة مؤقتة ويخفي وراءه ألمًا لم يدركه بعد.

لم يكن يعرف هوية الفتاة التي طلبت مساعدته، ولا حتى شكلها. وبعد يومين، وفي أول يوم دراسي له بعد ذلك الطلب، التقى بها في القاعة. كانت فتاة طويلة القامة، محجّبة، ذات شفاه وخدود كبيرة، وعيون

يصعب وصفها لجمالها الأخّاذ. ابتسم لها، فبادلته الابتسامة، وكأنّها شعاع من الضوء في عالمه المظلم. وسيشكر ربّه لاحقًا على المصادفة التي قادته إليها، تلك الفتاة التي كانت له ملاذًا حين قست عليه الأيام، الوحيدة التي لمح في عينيها خيرًا وسط عالم لم يمنحه سوى الخذلان.

ومع مرور الأيام، أصبح صديقًا للجميع، ولكنه أدرك بعد فوات الأوان أن تلك الصداقة كانت مجرّد واجهة. أصبح مباحًا للجميع، يُستغل بسذاجته وبساطته، دون أن يدرك ذلك. لم يكن غبيًّا، ولكن طيبته البسيطة جعلته فريسة في عالم قاسٍ لا يرحم. وهكذا، في مجتمع تملؤه الأقنعة، بات يعيش في وهم الصداقة، غير مدرك أنه ليس أكثر من ظلٍ يتلاشى في حياة الآخرين.

هناك اختلاف كبير بين "صديق الجميع" و"المباح للجميع"، فالمباح يُستغل من الجميع دون علمه أو إدراكه، بسبب بساطته التي لا ترتبط بالغباء، لأن البسيط ليس غبيًّا، بل يحمل سمة أصبحت نادرة في هذا العصر القاسي. من المؤلم أن يُنظر إلى هذه البساطة كعيب، بينما هي في حقيقتها نقاء لا يتناسب مع هذا العالم المليء بالخداع. أما صديق الجميع، فهو يدرك تمامًا استغلال الآخرين له، لكنه يتجاهل ذلك ليعيش، وربما يبادلهم الاستغلال بمثل ما يفعلون. إنهم جميعًا يعلمون، ويمثلون على بعضهم بعضًا، ليحافظوا على علاقة مبنية على المنفعة المتبادلة. لكن الحقيقة التي لا غبار عليها، سواء أدركها صديق الجميع أم لا، هي أنه ليس صديقًا لأحد، بل هو مجرد عابر في حياة الآخرين، يتلاشى في ظلالهم دون أن يترك أثرًا حقيقيًا.

من شدّة حماسه لتكوين صداقات جديدة في حياته، كان يتغافل عمّا مرّ به من صعوبات، وكأنّه تحوّل إلى إنسان جديد يصعب فهمه. بل بالأحرى، أصبح سهل الفهم من الخارج فقط، بينما في داخله كان

يعيش صراعًا عميقًا بين روحٍ منكسرة وجسدٍ يسلك سلوكيات معاكسة لما يشعر به. بدا وكأن ذلك الجسد يلطّخ نقاء نفسه الداخليّة بالإثم، يغطي عمق ألمه خلف قناع من التغيّر الظاهري.

في يوم من العام نفسه، وبينما كان يتصفّح حسابه على منصّة الفيسبوك، بعد أن كوّن صداقات جديدة خارج المنطقة التي يسكن فيها، بدأ يشعر بكراهيّة عميقة تجاه تلك المنطقة. شعور بالخزي تملّكه، وكأنه يخجل من مكانه الأصلي. كان يمرّ على حسابات أشخاص من مسقط رأسه، ذلك المكان الذي لا يبعد سوى بضعة كيلومترات، حيث تسكن عائلة والده، المكان الذي ترعرع فيه في طفولته. جاءت إليه فكرة، لو كان يعلم ما سيحدث بعدها، لما خطا تلك الخطوة أبدًا. قرّر، بدافع من حماسه الأعمى، أن يتعرّف على مزيد من الأصدقاء عبر الفيسبوك، فرحًا بالتغيير الذي طرأ على شخصيته. وكأنه انتقل من واحة جافة إلى واحة مليئة بالمياه، لكنه لم يكن يعلم أن تلك المياه كانت ملوثة، وأنها ستجعله يعضّ أصابعه ندمًا فيما بعد.

راسل شابين كانا صديقين، وبدأ يتبادل الحديث معهما. كان الأول "لطيفًا" بعض الشّيء، والآخر لا بأس به، ومع مرور الأيام تطوّرت المحادثات لتصبح قرارًا باللقاء.

كان الأول، ذلك "اللطيف"، متوسط الطول، نحيف الجسد، وله شامة فوق شفته، شعره متوسط الطول، ومظهره يوحي بأنه أصغر من عمره الحقيقي. أما الثاني، فقد بدا "حقيرًا" وكأنه أكبر من سنّه، ببشرته السمراء وأسنانه الأماميّة المتفرّقة، صوته خشن، وكان شكله يوحي بأنه شخص متلاعب، يضحك في وجهك لكنه يتحدّث عنك بسوء في الخفاء.

تمّت دعوته للجلوس معهما في مقهى شعبي للغاية، في وقت متأخر بعض الشيء، لكن والده أوصله إلى هناك لأن العائلة كانت في زيارة لمنزل الجد.
انتظره "اللطيف" قرب مفرق المقهى، ودخلا معًا. كان المكان مكتظًّا بالشباب، بين من لا يملك عملًا وبين من يسهر الليالي الطوال دون علم الأهل، أو ربما بعلمهم، غير مهتمّين.
كانت الأصوات تعلو المكان، الشتائم تتطاير في الهواء، والنقاشات تصدح بصوت مرتفع وكأن الجميع يتشاجرون. كان يقف هناك متسائلًا: "أين أنا؟ هل هذا سجن؟ أم مستشفى للأمراض العقلية؟"
مشى معه حتى دخلا المقهى وصعدا السلم إلى الطابق العلوي. كان صديقه "الحقير" جالسًا مع ثلاثة شبّان حول طاولة يتنافسون في أوراق اللّعب، يضحكون بصوت مرتفع. جلس بالقرب منهم يراقب اللّعبة، لكن سرعان ما بدأت نظراته تتجول بين الحاضرين حوله. رأى شبّانًا متفرّقين، بعضهم يجلس وحيدًا يشرب سيجارته مع فنجان قهوة، وآخرين منشغلين بهواتفهم، يتحدثون مع أشخاص عبر الإنترنت، يشتمون ويضحكون بلا مبالاة.

"ما هذا المكان؟" تساءل في داخله، "كيف يمكن لأشخاص في عمري أن يتصرّفوا بهذه الطريقة؟ لماذا أنا مختلف عنهم؟ جميعهم يضحكون والفرح يرتسم على وجوههم، وأنا... لماذا لا أشعر بما يشعرون؟ ما الفرق بيني وبينهم؟"
كلّ تلك الأسئلة كانت تدور في ذهنه، وكأنّها دوّامة من الحيرة والعجز. بقي شارد الذهن لبقيّة الوقت، وكأنّه في عالم آخر، لم يستطع فهم ما يراه أمامه، وكأنّ ما يدور حوله هو واقع غريب لا ينتمي إليه، عالم

مليء بالضحكات السطحية التي تخفي وراءها فراغًا عميقًا، بينما هو غارق في شعور الاغتراب والوحدة.
ترى، هل كان خطؤه أنه لام نفسه لتمنّيه أن يكون مثلهم، وأنه اتخذ خطوة نحو القدوم إلى مكان لم يعتد رؤيته أو الجلوس فيه؟ أم أن الخطأ يقع على عاتق الأهل، الذين من واجبهم إرشاد ذلك المراهق، وهو في طور نموّه، إلى ما قد يواجهه في المجتمع، ليعرف كيف يتصرّف في مثل تلك المواقف، وأي طريق عليه أن يسلك؟ يبدو أن أغلب الأهالي اعتادوا على قول "أنت لست طفلًا لنعلّمك ما الخطأ وما الصواب"، وكأنهم يخفون فشلهم في التربية خلف تلك العبارة. فهم، في معظم الأحيان، يتحوّلون إلى مصدر للشفقة، إذ لا يعرفون من التربية سوى إطعام وتعليم الطفل حتى يصبح شابًا، ثم يتركونه وحيدًا ليواجه مصيره، بينما هم لا يقدّمون له سوى سياسة اللوم في كلّ خطأ يرتكبه، في حين كان من المفترض أن يرشدوه قبل أن يقع في هاوية الخطأ، قبل أن يدرك أن العالم مليء بالظلام أكثر مما ظنّ.
عاد إلى المنزل بعد اتصال من والدته، وأخذ يجلس مع نفسه تلك الليلة، غارقًا في أفكاره. كان عقله مثقلًا بما رآه، والحسرة تخنق قلبه على كلّ الخيبات التي مرّ بها. شفقة على عمره الضائع، ذلك العمر الذي قضاه محبوسًا في سجن من أربعة جدران، وحيدًا، متآكلًا من الداخل.
بعد تفكير عميق، قرّر أن يواجه ماضيه بكلّ ما حمله من آلام، وأن يثور على تلك الوحدة التي طالما حاصرته، ليغيّر مجرى حياته كليًّا. أراد أن يتحرر من تلك القوقعة التي عاش فيها طويلاً، فقرر الانفتاح والتعرّف إلى العديد من الأشخاص في مسقط رأسه، علّه يجد نفسه من جديد.

استلقى على سريره في تلك الليلة، مسترجعًا كلّ ما شاهده. أخذ يقارن بين حياته وحياة من رآهم، الذين بدا وكأنهم يعيشون في سعادة غامرة. لم يستطع حينها أن يدرك أن لكلّ إنسان قصّة مختلفة، لا تشبه إلا صاحبها. كان يرى السعادة على وجوه الآخرين، يتوق إليها بشدة، وكأنها الشيء الوحيد المفقود في حياته. ولذلك السبب، تجاهل تمامًا أن هناك جانبًا خفيًا في حياة كلّ شخص، وفضّل أن يرى فيهم ما يفتقده هو.

انطلاقًا من أفكاره التي كانت تتصارع في ذهنه، قرّر أن يقلب الطاولة على حياته تمامًا، وأن يرى في أولئك الأشخاص الذين يسكنون مسقط رأسه طوق النجاة، السبيل الذي سينقله من حالته المظلمة إلى حياة جديدة، تتّسم بالبساطة، والنقاء، والطيبة، والسعادة التي طالما تاق إليها.

مرّت الأيّام وهو يثابر على مراسلة الشابين، لكنه ركّز على التواصل مع الشخص "اللطيف" أكثر، حيث كان يجد فيه بعض الراحة والسكينة.

كانت حياته الجامعية تمضي بهدوء، وعلاقاته تأخذ المنحى الذي يطمح إليه، وإن كانت أغلبها مع الفتيات، وذلك بحكم أن معظم زملائه في القاعة كنّ إناثًا. لم يكن غريبًا أن تتوطد علاقته بهنّ، ولكنّها كانت أكثر قوة مع تلك الفتاة "المحجّبة" الجميلة، لدرجة أنهما أصبحا يذهبان إلى الجامعة سويًّا ويعودان سويًّا.

ومع الوقت، بدأ يشعر بانجذابه نحو تلك الفتاة "ذات الشعر الطويل" الجميل التي التقى بها في يومه الأول عند دخوله الفصل. كان قلبه يخفق بشدة كلما تواجدت بالقرب منه، وشعر بأنها تبادله الشعور نفسه، لكن دون أن يتحقق من حقيقة مشاعرها.

مرّت الأيام، وقادهم أستاذهم الجامعي إلى حصص تدريبيّة في بلديّة مسقط رأسه. تلك الحصص استمرت على مدار السنة الجامعيّة بأكملها، ومن هنا بدأت علاقته تتعمّق أكثر مع صديقه "اللطيف"، حيث اعتاد على زيارته قبل وبعد الحصص التدريبيّة، ما جعله يتعلّق بالمنطقة ويتمنى أن يقضي بقيّة حياته فيها، مبتعداً عن المنطقة التي ترعرع فيها خلال مراهقته، تلك الفترة التي عاش فيها وكأنّه مسجون في قبر مغلق. وفجأة، كما لو أن يداً مجهولة قد انتزعته من ذلك السجن، شعر بأنه تحرّر من ظلام الماضي.

في يوم من الأيام، وقبل حصّته التدريبيّة، قرّر صديقه "اللطيف" أن يوصله إلى البلديّة حيث يتدرّب، بهدف تعرّفه إلى أصدقائه الذين كان يكثر من الحديث عنهم.

وصودِفَ وجود الفتاة التي يكنّ لها الإعجاب هناك في ذلك اليوم، ففرحت بالتعرّف إلى صديقه، وهو بدوره شعر بالسعادة لرؤيتها تتفاعل بلطف. انقضى اليوم، وبعد عدة أيام، التقى بالفتاة مجدّداً في الجامعة، حيث شكرته على تعريفها بصديقه حيث رأته لطيفاً وجيّداً، معبّرة عن سعادتها بمعرفته، لأنه كان يتحدث عنه دائمًا بحبّ أمامها.

وبكلّ عفوية، سألها: "كيف عرفتِ أنه لطيف وجيّد، رغم أنكِ لم تبادليه سوى السلام؟" فأجابته: "تحدثنا قليلًا عبر الفيسبوك".

كانت تلك الكلمات بمثابة صدمة له. تساءل في نفسه: "هل بهذه السرعة تتكوّن العلاقات؟ كيف يتبادل الناس المعرفة والكلام بهذه البساطة؟" تملّكته حسرة دفينة، كأن شيئًا ثمينًا سُرق منه في غفلة.

عاد إلى المنزل، وفي اليوم نفسه استقل سيّارة أجرة وتوجه إلى منزل صديقه "اللطيف". سأله عن الفتاة، فبدأ صديقه بالحديث عنها بحرارة،

وكأنه يخبره بأنها معجبة به. أخبره أن حديثها معه لم يعجبه، وأنها هي من بادرت بإرسال طلب الصداقة على الفيسبوك، ممّا جعلهما يتبادلان أطراف الحديث.

في البداية، لم يصدّقه؛ فقد كان يعتقد أن ذلك الصديق يضيّع وقته في مراسلة الفتيات، كما لو كان يعيش من أجل ذلك، حيث كان يجلس معه طوال الوقت ورأسه مائل نحو هاتفه، مشغولًا بالرسائل.

كان يرى أن تلك الأنواع من الجلسات مملّة ومقزّزة، لكنه كان يستمتع بمرافقة ذلك "اللطيف"، لأنه تقبّله كما هو – هكذا كان يتهيّأ له. بعد انتهاء حديثهما، طلب "اللطيف" منه أن يشتري شيئًا ليأكلاه، لأنّه كان جائعًا ووالدته ليست في المنزل.

نهض بسرعة، ونظر إليه مبتسمًا، ثم نظر حوله في المنزل، وكأن تلك هي المرة الأولى التي يراقب فيها محتويات المكان. تذكّر كيف كان سابقًا يلتفت إلى التفاصيل الصغيرة، وكيف تحوّل إلى ما هو عليه آنذاك.

بدأ ينظر إلى المنزل الصغير الذي لا يتسع إلا لأربعة أشخاص، والذي يتكوّن من غرفة جلوس صغيرة جدًا، ومطبخ، وحمّام، وغرفة نوم واحدة يتشاركها الجميع.

بعد أن تفحّص المكان، ألقى نظرة على يده المفتوحة، مصدومًا، وكأن الحنين يغمره كغيمة ثقيلة تحجب الشمس. فجأة، ومن دون سابق إنذار، سمع صوتًا يناديه باسمه. التفت ليجد "اللطيف" يسأله: "ما بك؟ لماذا أنت شارد؟ هل أصابك الجنون؟" ابتسم في وجهه دون أن ينطق بكلمة، ثم انسحب ليذهب لشراء شيء ليأكلا معًا، لكن قلبه كان مثقلًا بأفكار حزينة يملؤها الحنين.

انقضى ذلك اليوم، وتتابعت الأيّام، ليكتشف مع مرور الوقت أن الفتاة التي كانت تعجبه تمارس حركات تهدف إلى إغراء الشباب فقط. قد يكون ذلك دون قصد أو بقصد، لكن ذلك الأمر جعله يشمئزّ منها، وأصبح يتجنب حتى رؤيتها. كابر على نفسه وأكمل أيامه برفقة زملائه بعيدًا عنها، متجنّبًا الحديث معها أو التواجد في الأماكن التي تتواجد فيها. ومع اقتراب انتهاء السنة الجامعية الأولى، كان أستاذه الجامعي، الذي يتولى التدريب العملي لهم، هو مدير لدار عجزة في المنطقة نفسها في مسقط رأسه.

عرض عليه العمل كمساعد للمسنين، وبما أنه كان من الطلاب الأكفّاء عنده، طلب منه أن يأخذ بعض الوقت للتشاور مع أهله. بعد حصوله على الموافقة، كان سعيدًا جدًّا لأنه سيقضي وقتًا أكثر في المنطقة التي يشعر بالراحة فيها، حيث وجد ذاته وحريّته. كانت سعادته لا توصف، كمن اتهم بارتكاب جريمة قتل عن عمد وحُكم عليه بالإعدام، ثم صدر قرار ببراءته وهو على حبل المشنقة، شعر وكأنه انتشل من أعماق اليأس.

بدأ اليوم الأول في تلك الدار، التي كانت تبعد خطوات قليلة عن منزل جدّه المتوفى. دخل وهو مليء بالنشاط والحماس للعمل، ليجد بعض العاملين من الإداريّين والممرّضين، وكانت تبدو عليهم الألفة.

كان ذلك الأمر مريحًا له، لكن بمجرّد دخوله، تم تعريفه بالمبنى الذي يتألف من ثلاثة طوابق من قبل المشرفة التي كانت متوسّطة الطول، محجّبة، ووزنها فوق المتوسط بقليل، وبشرتها بيضاء، بينما كانت خدودها مليئة بالنمش الخفيف الذي لا يظهر إلا عندما يكون الشخص قريبًا منها جدًّا.

ومع ذلك، لم يكن الأمر مطمئنًا بالنسبة له، فرغم تغيّره وتفاؤله المفاجئ، إلا أن بعض الصفات التي ينشأ عليها الفرد تبقى ثابتة، وكأنّها وُلدت معه. كانت لديه دقّة ملاحظة فطريّة، وقدرة على قراءة التحرّكات والعيون ولغة الجسد، حيث كانت عيون تلك الأخيرة غير مريحة، ولا تطمئن بتاتًا. وكأنّها تخفي خلفها أسرارًا خبيثة، تجعل قلبه ينقبض خوفًا من المجهول الذي ينتظره.
كان المبنى يتألّف من مدخل يضمّ الإدارة والطابق الأوّل، المخصّص كمستوصف للخدمات الصحيّة، بينما كان الطابق الثاني مخصّصًا للرجال العجزة، والثالث للنساء العجزة أيضًا.
دخل قسم الرجال الذي قرّر العمل فيه، ليجد العديد من كبار السن يجلسون على الأرائك، يجتمعون حول التلفاز، منهم من كان مدركًا لمكانه وسبب وجوده هناك، ومنهم من كان فاقدًا للذاكرة تمامًا لما يدور من حوله. شعر بغصّة في صدره لإدراكه أن العمل مع تلك الفئة ليس بالأمر السهل بتاتًا، بل هو تحدٍ كبير يتطلب الكثير من الصبر والتفهم.
مرّت الأيام، وكانت من أجمل أيام حياته، صيف ٢٠١٦، حيث تعرّف إلى العديد ممن كان يظنهم أصدقاء. لم تقتصر دائرة معارفه على ذلك "اللطيف" الذي ابتعد عنه فجأة، بل كوّن العديد من العلاقات التي باتت تصل إلى أكثر من مئة شخص خلال فترة لم تتعدَ الستّة أشهر.
كانت حياته وقتها شبه متمحورة في المنطقة، يكوّن علاقات حتى أصبح معروفًا بين أبناء جيله، بل وحتى بين الأصغر والأكبر سنًّا. ومع ذلك، كانت هناك دائمًا لمسة من الحزن تخيّم على قلبه، وكأن تلك العلاقات التي بناها لم تتمكن من ملء الفراغ والخوف الذي تركته ذكريات مؤلمة

عن ماضيه، وألم الفقد الذي كان يختبئ خلف الابتسامات التي كان يرسمها على وجهه.
كان يعمل لساعاتٍ إضافية تتجاوز المطلوب، وهو يقبل كلّ ما يمكن أن يبقيه في إطارِ مسقط رأسه. وبعد دوامه الذي كان ينتهي عند الساعة السابعة مساءً، كان إما يبقى مع الأصدقاء العشوائيّين الذين تعرّف عليهم، سواء من الدار أو عن طريق المصادفة، أو يتجه إلى منازلهم القريبة من منزل جدّه، حيث عرفوه منذ صغره. لكن العلاقة ازدادت متانة بعد زياراته المتكرّرة لمنزل جدّه، ليطمئن على جدّته بعد وفاة جدّه.
لم يعد يعاني من عقدة الخجل التي كانت تنتابه في ماضيه، بل كان سعيدًا بمعرفة الناس له وتكوين العديد من العلاقات.
ترى، كم يبلغ مدى تعقيد النفس البشرية حتى تتبدل وتتغير بلمح البصر، لتنتقل من قمة عمقها إلى قمة سطحيّتها دون سابق إنذار، فقط من أجل شيء بسيط تفتقده؟ لم يكن يدرك كم من العادات غيّرها، وكم من العادات تخلّى عنها دون أن يشعر. يا لهشاشة الإنسان المشوّش!
كان عاشقًا للعمل، ليس لكسب الرزق فقط، بل كأنه يعمل ليشعر بأنه شخص منتج، ليتعلّم أكثر عن الحياة أو ربما ليستكشف دون وعي منه ما إذا كانت كلّ الأسئلة التي كانت تدور في رأسه منذ نعومة أظفاره حقيقيّة وملموسة على أرض الواقع، أم أنها خيالات لا وجود لها.
ظل على ذلك الحال وكأنه نسي مقولة الفيلسوف الألماني نيتشه التي تقول إن "الدنيا جميلة ولكن بها مرض يسمى الإنسان." كانت تلك الكلمات تلاحقه كظلٍ ثقيل، تذكّره بأن سعادته، مهما بدت واضحة،

كانت تكتنفها خيوط من الحزن والخذلان، تُشعره بأنه يعيش على حافة سكّين بين الأمل والضياع.
كان يعيش في دائرة الروتين، وكان يحيط به أشخاصٌ يبدون له بدايةً أنهم مثلجون ودافئون، لكن بمجّرد أن يقترب منهم ويكتشف عيوبهم وجوانبهم السلبيّة، يجد نفسه غارقًا في بحر من الإحباط والغضب، وهو يتساءل كيف يمكن للشخص أن يكون جذّابًا في البداية ثم يتحول إلى مصدر للازعاج والخذلان فيبتعد. وبعدها ينخرط في علاقة جديدة وكلّما انخرط في أي علاقة، كلّما زاد أمله وتفاؤله، ولكنه بمجرد اكتشاف عيوب تلك العلاقة، تحوّل ذلك التفاؤل إلى غّصة في حلقه، وازدادت حدّة الاشمئزاز من تلك العلاقة.
بذلك النمط، كان يعيش حياة تتأرجح بين الحبّ والكراهية، بين الأمل واليأس، في رحلة مستمرّة بحثًا عن الحقيقة والنقاء في عالم مليء بالخيبات والانكسارات.
كان شخصًا معطاءً لدرجة لا يمكن للعقل البشري تخيلها؛ معطاء في أوقات الشدائد، وفي الفرح، وفي تلبية الحاجات، وفي الاستماع إلى كلّ من يعرفه. كان ضليعًا في تقديم النصائح التي هو نفسه لا يستطيع تطبيقها في حياته. كان يمتلك حكمة كبيرة، لكن كثرة الحكمة قد تهوي بصاحبها إلى الهلاك. ولتصبح الحكمة في أسمى درجاتها، يجب على الشخص أن يتذوّق طعم الألم، للأسف، فهذه هي سياسة الحياة.
هناك العديد من الأقاويل الشعبية التي تنبذ خيط العائلة، ذلك الخيط المتماسك الذي يربط الأخوات وأولادهم، وينشر الألفة والمحبّة بينهم. وما يجعل ذلك الخيط قويًا هو الأهل الذين يجمعهم تحت سقف واحد في اجتماعات أسبوعية، لتوطيد تلك العلاقة بعيدًا عن الفتن والكراهية والحسد. لكن، وللأسف، تغيّرت تلك التقاليد مع مرور الزمن، حتى

بات الحسد والكراهية والأذى يملأ قلوب معظم العائلات، ليصبح ذلك الخراب هو السبيل الوحيد للحفاظ على ما تبقى من تماسك.
لم يعد الإنسان يجد فردًا واحدًا في أية عائلة لا يُظهر الرغبة في إلحاق الأذى بقريبه، في حين يذكر الجميع تلك المقولة الشعبية التي تعبّر عن صدق هذه الحالة: "الأقارب عقارب." كان يسمع تلك المقولة كثيرًا، ولكن لم تكن تعنيه كثيرًا، فهو بعيد كلّ البعد عن جو العائلات، إذ لم تكن الاجتماعات تستهويه، بل كانت تثير في قلبه شعورًا بالفراق والعزلة، حتى وصلت به الحال إلى ما هو عليه آنذاك.
من ناحية أخرى، لم يكن يدري أن قدومه الدائم لمنزل جدّه وعلاقاته الكثيرة لم تكن تستهوي جدّته وأقاربه، بل على العكس، كانوا يحاربونه بشكل دائم، بافتراء أفعال لم يقم بها، وبأقاويل نُسبت إليه وهو لم يقلها أو يفعلها.
كانت تلك الأقاويل كطعنة في قلبه، كمن يُلقى في بحر من الكراهية دون أن يملك القدرة على السباحة. وكأن عائلته التي كانت تمثل له الأمان، قد تحوّلت إلى ساحة معركة، حيث تسود الاتهامات والإساءات، وتضيع فيه كلّ معالم الحبّ والود.
كان له عمٌ غنيٌ لدرجة لا يُتصوّرها إنسان، إذ كان منبع ماله يُمكن لأي شخص عاقل أن يجده في أعماله غير الأخلاقية. كان لذلك العم أربعة شباب، معظمهم عاطل عن العمل، وواحد منهم كان يُشبه "الشيطان" في طبيعته، فهو قصير القامة، ممتلئ الجسم، وعيناه أشبه بحبّة اللّوز البالية، وصوته خشنٌ مثل صوت جرّار قديم. أسنانه كانت وكأنها على خصام مع بعضها البعض، وشكله لا يسرٌ كل من ينظر إليه.

رغم ثروته، كان ذلك الشخص الوحيد بين أخواته الذي يعرف كيف يُدير ثروة والده، ولأنه غني، كان يدرك كيف يتعامل مع أعمامه وأبناء أعمامه، لكنّه تربى على اللاأخلاقيّات، فلم يكن يرى في تصرّفاته عيبًا، بل اعتقد أن المال يمكنه شراء كلّ شيء، وأن كلمته مسموعة ومطاعة دائمًا.

في يومٍ من الأيام، كان يتمشى مع صديقه بالقرب من مكان تواجد ابن عمّه "الشيطان"، ولم يكن يعلم أن ابن عمّه لا يحبّ صديقه الذي معه، وأنه ليس من النوع الذي يركض خلفهم بسبب المال والجاه. كان لا بد له من دفع ثمن كبريائه وعزّة نفسه، إذ لم يعرف التلوّن في شخصيته.

أرسل "الشيطان" عاملًا من عمّاله ليقول له أمام صديقه: "يقول لك ابن عمّك، لا ترافق أشخاصًا ذوي السمعة السيّئة الذين يبيعون أجسادهم وعفّتهم ويمارسون الفاحشة، لأنك لو لم تكن مثلهم لما رافقتهم." نظر إلى صديقه نظرة تعجّب، وكانت الصدمة واضحة على ملامحه. استجمع قوّته، وردّ عليه: "يشرّفني أن أكون ذا سمعة سيئة وأمارس الفاحشة، بدلاً من أن أكون ذاك الشخص الذي أرسلك إلينا".

واصل طريقه مع صديقه، والغضب يتملّكه مما سمع، ليفاجأ بعد أيام قليلة بأن ابن عمه قد طرد الشاب الذي أوصل له تلك الرسالة. لم يكن يعلم أن الحرب قد اشتعلت ضدّه بعد ذلك الرد الجريء، ولو كان يعلم الثمن الذي سيدفعه بسبب كلمة محقّة قالها في وجه إهانة موجهة إليه، لكان له رأي آخر. يا لها من مأساة، كيف أن كلمة واحدة قد تفتح أبواب الجحيم، وتجرّ في ثناياها عواصف من الكراهية والانتقام.

لم يكن يعلم كيف ردّ عليه بتلك الطريقة، وكيف أصبح طلقًا في الحديث، وكيف عرف كيف يردّ بالطريقة المناسبة. كان كلّ ما يدركه

هو أن عمله في دار العجزة كان له الفضل في نضوجه الاجتماعي وقدرته على الرد والتعامل مع الآخرين. إذ تعرض لظلمٍ كبير وخذلان من زملائه والإدارة فقط لأنه لم يعرف التلوّن، وفضّل قول كلمة الحق، فظل ثابتًا رغم كلّ الظروف والمقاولات عليه. ولكنه، للأسف، كان يدرك جيدًا أن الذين لا يعرفون المجاملة لا يعيشون طويلًا.

بعد فترة وجيزة، أنهى عمله عند الساعة السابعة مساءً، وذهب برفقة أصدقائه، وجلس معهم حتى أصبحت الساعة التاسعة. قرّر أن يعود إلى منزله في المنطقة المجاورة، وكانت من عادته أن يتمشى ليلًا مسافة ليست بالقصيرة ليصل إلى موقف الباصات.

اعتاد أن يستمع إلى الأغاني الهادئة عبر السماعات ليخفّف عن نفسه ثقل المسافة، وكأنّ تلك الألحان تعيد له بعض السلام في عالم مليء بالفوضى.

لكن تلك الليلة كانت ظلماء بشكلٍ خاص، ورغم ذلك، لم يكن الأمر مريبًا في نظره، إذ كان الليل جزءًا من روتينه المعتاد. بينما كان يمشي وقد قطع نصف المسافة، وصل إلى شارع قليل الحركة. وفجأة، شعر بشيء حاد يلامس رقبته ويدٍ تُطبق على فمه، ليجد نفسه في قبضة شخص يسحبه إلى داخل سيارة. كان مصعوقًا، وكأنه في كابوس لا يستطيع فهمه، التزم الصمت لأن خياراته كانت معدومة. كان هناك شخص يقود السيارة وآخر يثبّت السكين على رقبته، في حين كان الشارع خاليًا من الناس، ولا حركة تُذكر. لم يخطر بباله أن يحدث ذلك الأمر المخيف.

أخذوه إلى مكان شبه مهجور، ورموه أرضًا، وبدؤوا بطعنه بالسكاكين في أماكن غير حيويّة، وكأنهم يتعمّدون عدم قتله. كانت تهديداتهم تملأ الهواء، بينما أخذوا هويته وصوّروها، ثم غادروا بالسيارة.
حاول أن يأخذ رقم السيارة، ولكن الغبار الذي علق في الجو بعد مغادرتهم جعل الرؤية مستحيلة، تاركًا إياه مع ذكرى مأساوية قد تغيّر مجرى حياته إلى الأبد. يا له من رعب، كيف يمكن للحياة أن تتحوّل في لحظة، وكيف يمكن لأقرب الناس أن يصبحوا أشباحًا في لحظة من الظلام!
وقف يلهث، بدأ يركض بلهفة بحثًا عن أحد ينقذه من تلك العتمة الحالكة التي تحيط به. كانت قدماه تتعثّران، يعرج من إصابته، ويده تنزف، بينما يتردد في ذهنه مشهد إدخال السكين في قدمه بشكل أفقي، ثم برمه عموديًا، وكأن الألم يصبح جزءاً من كيانه. كانت كلّ دعسة تخطوها قدمه تبصق الدماء، وكأنه يركض في سباق مع الموت، يلهث في أنفاسه، كأنّ الزمان يضغط عليه بشدّة.
لم يعرف إلى أين يذهب أو ماذا يفعل. اتّصل بصديقه، ذلك الصديق الوفي الذي كان معه عندما أُسند إليه الكلام القاسي من عامل ابن عمه، صاحب الشعر الناعم الممزوج بالأشقر، النحيف والطويل، الذي يملأ وجهه بنور الصفاء. كان "صديق المواقف الجادة"، والذي هرع له مباشرةً دون أن يستفسر عن القصة. أسعفه إلى المستشفى بشكل طارئ، وكأنّ حياة صديقه تتعلّق بخيوط رفيعة.
اتصل بأهله وأخبرهم بقصة مغايرة، حتى لا يشغل بالهم، خاصةً والدته المريضة التي لا تتحمّل الويلات. لكن في أعماقه، كانت هناك شكوك تُحاصره، تساؤلات تلاحقه: "من الذي يريد قتله وهو الذي لم

يؤذِ أحدًا، حتى بكلمة؟ لم يخطر بباله أن يكون ذاك "الشيطان" هو الفاعل."

بعد يومين تقريبًا، وعندما بدأ يرتاح قليلاً، فوجئ بذلك "الشيطان" يرسل له رسالة عبر تطبيق الفيسبوك، يطلب منه أن يقابله، دون أن يأخذ إذنه حتى، بلغة تهديد واضحة. أخبره بأنه سيأتي لمكان عمله حالًا، انصدم من حديثه ومن طلبه. طلب أن يعرف ماذا يريد، وأخبره بأنه ليس في العمل، فكان رد "الشيطان" عجيبًا: "سأخبر والدك بالأمر." أجاب، مُرتَعِدًا: "لا فرق بيني وبين والدي." كان صدى تلك الكلمات يرنّ في أذنه، مثل جرس إنذار لم يُسمع به من قبل، بينما كان يشعر بأن عواصف الظلم قد بدأت بالاقتراب منه، وكلّ ما كان يطمح إليه يتلاشى في خضم تلك العواصف الحزينة.

ذهب بعد هذه الأحداث إلى أصدقائه، متجنّبًا رواية ما جرى للعامة، بل اكتفى بمشاركته مع أصدقائه الذين يقضي معهم معظم وقته. كان كمن يهرب من ظلال الماضي، متخلّيًا عن شخصيّته القديمة التي كانت محاطة بالسّواد، ليظهر أمامهم بألوان جديدة، لكن تلك الألوان كانت تخفي بداخلها عواصف من الحزن والاضطراب. لم يكن يفكّر بما قد يحدث، فهو يقف على حافة جحيم لا يعرفه بعد.

انتهى يومه وعاد إلى المنزل، وهو غير مدرك للكارثة التي تنتظره. فتح الباب ليجد أخاه الأكبر واقفًا، وأمه جالسة وتبدو عليها علامات التعجّب والحزن والقلق. سألهم عمّا حدث، فأجابه أخوه الأكبر بأن "الشيطان" اتصل به وأراد لقاءه ليخبره بأمر يتعلق به. نظر إليه بتعجّب وطلب منه أن يكمل.

استمر أخوه في حديثه، كاشفًا عن تفاصيل مضحكة. قال إن "الشيطان" ذكر بأنه يتصرّف تصرفات غير أخلاقية معه. سأله أخوه: "ماذا يفعل أخي؟" فتكلم بوضوح، قائلًا: "أخوك يكلّمني من حسابات وهميّة على فيسبوك منذ أكثر من أربع سنوات، يطلب منّي طلبات يعجز العقل عن استيعابها." رد عليه أخوه بدهشة: "مثل ماذا؟" فأجابه بكلّ وقاحة: "صورًا لي وأنا عارٍ تمامًا!"

نظر أخوه إليه بنظرةٍ استحقار، واحتدم الجرح الذي كُشف أمامه، قائلاً: "أخي يحدّثك منذ أربع سنوات وأنت ساكت وتحادثه وكأنّه أمرٌ عادي؟ فهذا أكبر دليل على أن الأمر يسعدك وتستمتع به! لماذا تكلّمت الآن؟"

تلك الكلمات كانت كالسيوف التي جرحت قلبه، وكأنّها تسلط الضوء على زوايا مظلمة من روحه، مؤلمة ومريرة، كالنار التي تشتعل في داخله، بينما كان العالم من حوله يغرق في صمتٍ مريب.

نظر إلى أخيه بنظرة استنكار، وقال: "منذ أربع سنوات؟ أهو مجنون؟ لم أكن أحمل هاتفًا حينها! ما هذه الكذبة!؟" ثم تابع: "أكمل، رجاءً."

أكمل أخوه قائلاً إن "الشيطان" أخبره بأن القصة التي حدثت مع أخيه كانت مدبّرة، وأنه أخبر عاملة النظافة التي تعمل معه في دار العجزة بأن هناك أشخاصًا يتواصل معهم، وأنه سيرافقهم بعد العمل ليذهب معهم لممارسة الفاحشة. وتبيّن أن تلك العاملة كانت جارة عشيقته، وهي التي أخبرت عشيقته، التي أخبرته بدورها.

ضحك من كلّ قلبه حتى بات ينفجر، ولكن كانت تلك الضحكة ممزوجة باستحقار وقرف من الموقف المهين الذي حصل. أمسك هاتفه واتصل بالعاملة، مشغّلًا مكبّر الصوت أمام أمّه وأخيه، وسألها عن ذلك الموضوع. ابتسم عند سماع ردّها، فقد استنكرت ما قيل، وأكّدت أنه

شخص مؤدب ومهذّب، وأن معظم أحاديثه تتعلّق بعمله ومستقبله، ومشاكل العمل تكفي لدرجة أنها لا تترك له وقتًا لمثل تلك الأحاديث السخيفة.

بعد ذلك، بدا على وجهه علامات الغضب الداخلي، كأنه يخفي في أعماقه جراحًا لا تندمل. ترك أهله ودخل غرفته وهو على علم بأن ذلك "الشيطان" هو من يقف وراء ما حدث، متحسّرًا على ما آل إليه وضعه. وليته كان يعلم أن القادم أسوأ، وأن ما ينتظره هو ولادة اليأس، تلك الكلمة التي أصبحت تتردد في أركان قلبه كالصدى.

عاد والده في تلك الليلة، بعد أن علم بالقصّة، ولم يُبدِ أي ردّة فعل تذكر. فقد قضى والده حياته يثني على عائلته وكأنهم دائمًا على حق، بينما كان هو دائمًا موضع اللوم والخطأ. وهنا بدأت المشكلة الحقيقية، فلو كان والده قد وضع حدًا لما حصل، لما اكتمل يأسه. فالقسوة التي عاناها لم تكن فقط من "الشيطان"، بل من أقرب الناس إليه، وكأن الحزن يتربّص به في كلّ زاوية من زوايا منزله.

مرّت الأيام على ما هي عليه، وقطع وعدًا على نفسه أن يكمل حياته ويتناسى ما حدث. كان يتعمّد العمل بجدّ، عازمًا على نضوج نفسه، فرحًا بكلّ المشاكل والصعوبات التي تمرّ به، متعلّمًا يومًا بعد يوم كيف يتعامل مع مصاعب الحياة، وكيف يصبح الشخص المكافح رغم كلّ شيء. كان يتجلّى في شخصيته الفريدة أن الظلم والخذلان بشتى أنواعه، من العائلة والأصدقاء والزملاء، لا تستطيع كسر إرادته.

سمع من أحد معارفه أن هناك شركة توظّف رعاة مسنين في البيوت بأسعار جيّدة، وأن النقل مؤمّن من سائق خاص، حتى لو كانت المناطق بعيدة قليلاً. كانت لديه فسحة من الوقت، فقرر أن يلهي نفسه

بشيء ينفع، ويقدّم طلبًا إلى تلك الشركة. كانت تلك اللحظة من أصعب المواقف التي مرّ بها، فهي الأولى من نوعها في حياته، وهي مليئة بالتحدّيات.

بعد أن قدم إلى الشركة وتم قبوله، طُلب منه رعاية والد مدير الشركة المسن في بيته الذي يقع في منطقة جبليّة. كان النقل مؤمّنًا كما ذُكر في بنود العقد، وفي اليوم الأوّل، انتظره السائق عند مفرق الطريق العام القريب من منزله. كان السائق نحيفًا، ذا شعر ناعم وقصير، وذقن خفيفة، ولكن عيونه كانت تحمل شهوة مقرفة تلوث الجسد بالإثم.

طبيعة شخصيّته كانت تمنعه من التحدث أو تبادل أطراف الحديث مع من لا يرتاح قلبه لهم. ولكنه كان يعيش في فترة هدنة بين عمقه وطيبته، كأنهما متخاصمان، وكأن عمقه نائم وطيبته هي التي تتحكم في تصرفاته. ظلّ على تلك الحال لمدّة أسبوع، حيث كان ذلك "الشهواني" يحاول الاقتراب منه، ساعيًا للتعرّف إليه أكثر، لكنه لم يفتح له مجالًا، لأنه ببساطة لم يستلطفه.

بصورة استباقية، قرر أن يطلب من الشركة تعيين شخص آخر ليحل محله في رعاية ذلك المسن، بسبب حدوث أمر طارئ. وعلى الرغم من محاولات الشركة للتحدث معه وإيجاد حل يرضي الطرفين، إلا أنه ظلّ متمسّكًا برأيه.

في اليوم الأخير له، وعندما انتهى من عمله، وفي لحظة خروجه من منزل المسن، كان السائق "الشهواني" ينتظره لإيصاله. وهم في الطريق، قرر "الشهواني" الاعتراف له بأنه يعجبه ويريد التعرّف إليه أكثر، بل ويطمح لممارسة الفاحشة معه.

من دون سابق إنذار، كان على مقربة من منزله، نظر إليه بكامل هدوئه وابتسم قائلاً: "لم لا؟!" ابتسم السائق "الشهواني" في وجهه وأكمل الحديث بلا توقف. ولكن قلبه كان ينبض بسرعة كأنما سيفلت من مكانه، ينتظر اللحظة التي سيصل فيها إلى منزله.

كان فقط يهزّ رأسه لكل ما يقوله ذلك "الشهواني"، دون أن يدرك محتوى حديثه. وعندما اقترب من منزله، نزل من السيارة كالسهم بعد أن رمى المياه من قارورته في وجهه عند خروجه، وبدأ يركض باتجاه الطريق الذي يبعد بضعة أقدام عن منزله.

لم يكن يعرف كيف تصرّف أو ماذا فعل، لكنه بدأ يدرك أن الحياة مليئة بالوساخة والقذارة، متجسّدة في أماكن خفيّة لا تخطر على البال.

حلّ الليل، وكان يفكّر فيما حدث. ولأن قصّته مع ذلك "الشيطان" لم تكن بعيدة، راودته الشكوك: "هل من الممكن أن يكون لهذا "الشهواني" علاقة بذاك "الشيطان؟" كان تفكيره سطحيًّا وساذجًا، ومع تتابع المواقف الصعبة، فقد عجز عن التفكير بعقلانيّة كما كان يفعل سابقًا. دائمًا هناك اختلاف بين الجانب النظريّ والجانب العملي في الحياة، ومهما كان الشخص مدركًا ومتعمّقًا في الجانب النظري، يبقى الجانب العملي هو المدرسة التي يتعلّم منها الإنسان. ومع كلّ لحظة يمرّ بها، كان يشعر بعبء ثقل الحياة، وكأن القذارة التي يتجنّبها تتربص به في كلّ زاوية، وتطال روحه في خفية.

مرّت الأيام عليه، وهو يعيش في ذلك التخبّط العميق. لم يقتصر ذلك الاضطّراب النفسي على تحوّله من شخصيّة عقلانيّة عميقة إلى شخصية غير مبالية، تفتقر إلى التفكير في التفاصيل الدقيقة، بل زاد القلق من

موضوع لم يكن ليخطر بباله يومًا، ولم يكن يعلم بوجود تلك الفئة في المجتمع.
أصبح قلقه يتجاوز مشاعره الشخصية وسمعته، ليصل إلى مدى تأثير تلك الأحداث على مستقبله. كان كمن ينظر من بعيد إلى دفع ثمن حسد وحقد لا يمتّان إليه بصلة، وكأن الحياة تعاقبه على شيء لم يقترفه.
إن شعوره بالتخبّط النفسي جعله يتحوّل من شخص عفوي، عصبي، طيب القلب، واندفاعي، إلى شخص لا يستطيع تحمّل الكلمة البسيطة.
قد يكون سبب ذلك الأثر النفسي الذي خلفته أول تجربتين عمليّتين ملموستين في حياته، كضربات قاتلة تركت أثرها في عمق روحه. بدا أن الجانب العملي قد بدأ يأخذ دوره في تشكيل شخصيّته، مكمّلاً بذلك جانبًا نظريًّا عميقًا كان يمتلكه سابقًا.
في نهاية شتاء ٢٠١٨، قرّر أن يترك العمل في دار العجزة، متّجهًا إلى مجال التدريس، لعلّه يجد في ذلك المجال البوّابة التي تنقذه من السجن الذي كان يعيش فيه. وبعد أن كانت خطوة دخوله ذلك المجال مصادفة لم يتوقّعها، شعر بحماس يتجدّد داخله، يتوق للابتعاد عن ظلم العمل الذي كان يعيشه، وبعيدًا عن الأجواء المشحونة بالطاقة السلبية التي طالت روحه، لعلّه يستطيع استعادة طاقته المفقودة واسترجاع شيئًا من عفويته المفقودة. كانت كلّ خطوة يخطوها نحو المستقبل تحمل في طياتها أملًا جديدًا، رغم الجراح التي خلفتها الحياة في أعماقه.
مرّت سنتان من سنين حياته بلمح البصر، دون أن يتغيّر فيه شيء جوهري. ظلّ عالقًا في نفس الدوامة، وعلى الرغم من أنّ نظرته قد تغيّرت نحو العديد من الأمور في حياته، فقد نضج وتعلّم وعاشر

وخاب أمله، وخذَل البعض دون قصد أو بقصد. لكن في عمقه، ظلّ كما هو، محاصرًا بآلامه وأحزانه. وعلى الرغم من معاشرته للكثيرين وخذلان الكثيرين له، إلا أن أحدًا لم يفهمه تمامًا أو يتقبّله.

مرّت الأيام، حتى قرّر، بعد معاناة طويلة، أن يقنع أهله بالانتقال إلى مسقط رأسه، ذلك المكان الذي يشعر فيه بالراحة والانتماء والأمان. كان يمضي فيه معظم وقته بين ناس يشبهونه، ويعتبرونه منهم. لكن لو علم بما كان سيحدث معه، لما فكّر في مجرد اقتراح الانتقال، بغضّ النظر عن مشاعره المؤقّتة. فالمشاعر العابرة عادةً ما تكون كاذبة، ناتجة عن شعور الإنسان في لحظة معيّنة، لتختفي لاحقًا. لكن السلوكيّات والقرارات شبه المصيريّة التي تُتخذ حينما يكون الإنسان متحمّسًا نتيجة تلك المشاعر المؤقّتة، غالبًا ما تُولّد جروحًا وندوبًا يصعب التئامها. تترك ندبة في القلب، تدفع الإنسان كلما تذكّرها إلى أن يضحك على سذاجته، أو يتحسّر على غبائه، متأمّلاً في دروس الحياة التي كان يمكن أن تكون مختلفة لو استمع لصوت عقله بدلاً من قلبه المندفع.

ها قد وصل إلى العام المشؤوم على وطنه، ذلك العام الذي لم ينتهِ إلا وهو محمّل بالأوجاع من كلّ حدب وصوب. شهد أوضاعًا اقتصادية متدهورة، وانتشارًا لوباء عالميّ آنذاك في كلّ مكان، وصولًا إلى انفجار هزّ العاصمة بيروت عند الساعة السادسة وثماني دقائق في الرابع من شهر آب/ أغسطس عام ٢٠٢٠. كان ذاك الانفجار الكارثي سببًا في فقدان المئات من الأبرياء، من مختلف الجنسيات والأعمار، رجالًا ونساءً، يحملون أحلامًا صغيرة وكبيرة. وقد تعددت الأسباب التي أفضت إلى ذلك الموت، تمامًا كما تعددت الأكاذيب التي أُطلقت حول من شارك في ذلك الجرم المروع.

مرّ ذلك الحدث، وترك بصمة عميقة في كلّ عائلة، ولكن، للأسف، يتأقلم الإنسان مع الأوجاع وكأنّها جزء من حياته. يُصدم في البداية بكلّ حدث مأساوي يمرّ به، ثم تأتي الحياة لتمنحه حقنة من اللامبالاة، تمنعه من الإحساس بما يجري حوله. يتحوّل كلّ ألم إلى ندبة داخليّة، وكأنّ لا شيء أصبح حقيقيًا بعد ذلك.

في تلك الأثناء، كان لديه صديق يُحبّه كثيرًا، يُعتبر من قلة الأصدقاء الأوفياء الصادقين. كان نحيف الجسد، طويل القامة، وشعره أسود قصير، ذا عيون داكنة كأنها تعكس عمق الليل. كان يتميّز بطول رقبته، وكان يُمازحه قائلاً إن ذلك هو ما يجعله مميزًا، ولكن ما كان يميّزه حقًا هو هدوءه. لم يكن يغضب إلا نادرًا، وعندما يغضب، يأتي غضبه في صورة هدوء عميق، مما يزيد من غموض شخصيته. كان صديقًا غريبًا ولكنه "الوفي الهادئ"، الذي لم يُغيره الزمن، رغم كلّ ما مر بهما من آلام.

في بداية الشتاء، وتحديدًا في شهر تشرين الأوّل/أكتوبر من عام ٢٠٢٠، قرّر ذلك العام ألا ينتهي إلا بالمفاجآت المأساويّة. كان معتادًا أن يتواعد مع ذلك الصديق "الوفي الهادئ" كلّ يوم تقريبًا صباحًا، في الساعة السادسة أو السادسة والنصف، ليشربا القهوة معًا قبل أن يبدأ كلّ منهما عمله. كان منزل ذاك الوفي يقع في الحارة الشعبية التي يتواجد فيها منزل جدّه، ولكن من الجهة الخلفيّة، حيث يبعد عن منزل جدّه بضع زواريب. وكان يُفضل الذهاب من الجهة الخلفية لتلك الحارة، كمسافة أقرب، بدلًا من الدخول من المدخل الأمامي.

في إحدى المرات، وتحديدًا في السابع عشر من الشهر نفسه، استيقظ صباحًا وقرر الذهاب إلى صديقه كما اعتاد. ولسوء حظه، لم يتصل به

أو يخبره بأنه قادم. قرر أن يفاجئه وعندمت يصل إلى منزل صديقه، سيقرع الباب أو يتصل به وينتظره في الخارج كما هو متعارف عليه. كانت السماء مخلوطة بظلمة الليل وبداية النهار، والطقس معتدل، يتأرجح بين دفءٍ لطيف ونسيمٍ هادئ. مشى على قدميه، وكأنه شبه واعٍ كأي شخص طبيعي استيقظ للتو، حتى وصل إلى المدخل الخلفي للحارة الشعبية.

لكن الطريق كانت شبه خالية، أشبه بمدينة هجرها أهلها وسكنها الجن. استمر في السير، وفجأةً، وجد سكّينًا على رقبته، وكلمات انهمرت عليه بشكل مفاجئ: "التزم الصمت أو سأفصل رأسك عن جسدك." لحظتها، ظنّ أنه في حلم، وتذكّر مباشرةً ما حدث له في تلك الحادثة الماضية التي كانت شبيهة بهذه. التفت قليلًا، ونظر بطرف عينيه إلى من كان يهدّده، فرأى رجلًا في الثلاثين من عمره، عيونه حمر كلون الدم، مختلطة بأوردة سوداء خارجة من بؤبؤ العين. كان شكله مرعبًا، ورائحة الخمر تملأ أنفاسه. لم يكن وجه ذاك "السكران" بالغريب عليه، فهو من الأشخاص الذين يلمحهم بين الفينة والأخرى في تلك الحارة أو في المنطقة.

بعد أن نطق بكلماته بصوت خافت، سحبه نحو منزله، الذي كان قريبًا من المدخل الخلفي. كان ذلك المنزل عبارة عن مبنى صغير يتكون من طابقين، أرضي وأوّل، حيث كان يقطن بالأوّل. سحبه بلمح البصر، وأدخله المنزل، ومباشرةً رفسه على بطنه ليسقط أرضًا. بدأ يفتّشه لأخذ هاتفه، وبعد أن حصل عليه، فتحه بمساعدته. ثم رفسه بقدمه على وجهه حتى وقع على الأرض، وعندما سقط، نهض ببطء، وكانت آثار الرفسة واضحة على وجهه المخضوض.

التفت ببطء ليرى ذاك "السكران" قد أنزل بنطاله، وبدأ يلتقط له الصور وهو ملقى على الأرض بالقرب منه، عاريًا تمامًا من النصف السفلي، تجرح كرامته أمام ذلك "السكران". كان قلبه ينفطر، وهو يشعر بعجزه عن طلب النجدة، وكأن الآلام التي مرّ بها في حياته تتجمّع لتشكّل سحابة مظلمة فوق رأسه.

في تلك اللحظة، أدرك أن الحياة ليست مجرد ذكريات جميلة أو لحظات سعادة، بل يمكن أن تكون سلسلة من الصدمات والخيبات التي تترك أثرًا دائمًا في الروح.

كان مصدومًا كليًا ممّا كان يحدث، لم يفهم ولم يعلم ماذا يفعل. إنها المرّة الأولى التي يتعرّض فيها لذلك الكم الهائل من الضرر والأذى.

ظلّ ثابتًا في مكانه، عاجزًا عن الحركة، تكتنفه الصدمة والذهول أمام ما يراه. في تلك اللحظة، وبفعل ردة فعل مفاجئة، انتزع ذاك "السكران" شريحة الهاتف التي تحمل رقم هاتفه، ورماها على وجهه وكأنما يرمي بكرامته بعيداً. ثم فتح الباب ودفعه بقوة، رفسه إلى الخارج وكأنّه كائن غريب لا يستحق الرحمة.

وقف على الأرض، وقد بدا خائفًا من أن يراه أحدٌ ويظن فيه سوءاً، وهو خارج من منزل شخص غريب في ذلك الوقت الباكر، في حين أنه في أمس الحاجة لمساعدة أي إنسان. انطلق راكضًا في طريق لا نهاية لها، ضائعًا في أفكاره، لا يعرف ماذا يفعل. هل يخبر أهله؟ أم يستعين بالشرطة؟

عندما وصل إلى منتصف الطريق وهو لا يزال في حالة جري، تمهّل قليلاً، وبدأ يفكر بما يجب عليه أن يفعله. قرّر أن يذهب إلى مركز الشرطة القريب من منزله، متجنّبًا اللجوء إلى صديقه أو أهله، مدركًا

أنه قد يصبح الضحيّة مرّة أخرى. فالشائع في مثل تلك المجتمعات أن تصدّق ما تراه دون أن تسأل "لماذا"، وأن تستمع لأصوات من جانب واحد فقط، مما يجعل الضحيّة تواجه اللوم وتتحمّل عواقب ما حدث.

استنادًا إلى ذلك، قرّر أن يعالج ذلك الأمر بنفسه.

ذهب مسرعًا إلى مركز الشرطة، وسرد لهم القصّة بالتفاصيل، لكنه لم يكن يعلم اسم ذلك "السكران". قدّم كلّ التفاصيل الممكنة، وفي نهاية الجلسة، تمكنوا من التعرف إلى هويته. عاد إلى منزله، وبعد مرور عدّة أيام، وعندما اشترى هاتفًا جديدًا، علم أن الشرطة قد قبضت على ذلك "السكران" الذي كان يحاول السفر للخارج. تبيّن أن هناك مذكرات توقيف بحقّه، غير تلك التي قام برفعها عليه.

لم يكتمل يومه إلا والاتصالات من أرقام غريبة بدأت تنهال عليه ليلاً ونهارًا، منها من يهدّده وأخرى تتوسّل إليه ليتنازل عن الدعوى التي رفعها. لم يكتفِ بذلك، بل أوكل محاميًا من معارفه ليتولى أمر ذلك "السكران"، ساعيًا لأخذ حقّه.

رغم كلّ الاتصالات والتهديدات التي كانت تصله لإسقاط الدعوى، أصرّ على موقفه الثابت. كلّ ذلك كان يحدث دون علم أهله، ممّا زاد من حيرته وقلقه. هل كان قراره صائبًا أم خاطئًا؟ لا أحد يعلم، فلكلّ إنسان رأيه الخاص في ذلك الموضوع. ربما كان خوفه من ردّة فعل أهله تجاهه، واتهامهم له بالتهوّر، هو ما جعله في خانة اليأس تجاههم، وخصوصًا أسلوبهم الهمجي الذي لا يستمع لكافة جوانب القصة، بل يكتفي بتوجيه اللوم. لذا، اختار أن يخفي القصة عنهم، ساعيًا ليُريح رأسه من محاربة المعركة على جبهتين.

بعد فترة وجيزة، كان الطقس ماطرًا، وقد حان موعده مع أصدقاء الثانويّة في منزل أحدهم. كانت الجلسة مفعمة بالسعادة والضحك، حينها رنّ هاتفه. لقد كان والده. ردّ عليه وهو يشعر بشيء من القلق، ليطرح عليه والده السؤال المفاجئ: "ما الذي حصل معك؟" أجابه باستغراب: "ماذا حصل؟ لم أفهم" فقال الوالد: "سمعت أنك تعرّضت لحادث." أكمل والده القصة بطريقة غير مفهومة، وبدأ يسمع النبرة التي اعتاد أن يسمعها، وهي سياسة اللوم التي تتكرر بين الفينة والأخرى.

ترك الجلسة وعاد إلى منزله، مفعمًا بمزيج من القلق والخوف. بعد أن تناقش مع أهله، سرد لهم القصة كما هي، متجنّبًا ذكر ما حدث عندما أدخله ذلك "السكران" لمنزله، وموضوع الصور. كان يأمل أن تمرّ القصّة بسلام، لكن بينما أوشكوا أن ينهوا الحديث، خطر على باله أن يسألهم كيف علموا بالأمر. هنا صُدم حين اكتشف أن عمّه اتصل بوالده ليخبره بأن ابن عمّه "الشيطان" قد أبلغه بالقصة، وطلب منه أن يتوسّط لدى والده لإسقاط الدعوى عن ذاك الكائن.

اعترته الصدمة وهو يتساءل في حيرة: "لماذا يَطلب منه ذلك؟ ولماذا هذا الشخص تحديدًا؟ وما الهدف من هذا الطلب؟ وما الغاية منه؟" تلك التساؤلات تلاحق عقله كالأشباح، بينما لم يخطر بباله أي جواب. ربما كانت بساطته في تلك اللحظة هي ما قاده إلى ذلك المأزق، وبعد جدال طويل مع والده حول عدم إسقاط الدعوى، أصرّ على موقفه ليؤكد لكلّ شخص أن حقوق الناس ليست لعبة تُؤخذ بسهولة، وأن الحياة ليست غابة بلا قانون. لكن سرعان ما أدرك أنه يعيش في غابة، بل في غابة أكثر قسوة، حيث ينجح الأقوى فقط.

كان لدى والده رأي آخر، إذ نصحه بإسقاط الدعوى عن ذاك "السكران"، مبتغيًا أن يبقى بعيدًا عن المشاكل. كان والده يخاف عليه من بطش أولئك الهمجيّين الذين لا يفهمون لغة الحوار، ورغم أن الحق معه، إلا أن قلبه كان يئن تحت وطأة الألم. من الحق أن يستعيد ابنه حقه، لكن كيف له أن يستعيد ما يُنتزع من بين يدي شخص لا يُعتبر له وجود في هذه الحياة؟

بعد فترة، توجه إلى المحكمة بعد أن تم استدعاؤه، حيث أُسقطت الدعوى عن ذاك "السكران"، وهو أمرٌ روتيني. كان ذلك أول لقاء له مع ذاك الشخص الذي حوّله من ضحية إلى متهم، وكان لقاءً فرديًّا مع المحقّق. دخل "السكران" قبله إلى قاعة المحكمة، والغريب في الأمر أن السعادة كانت ترتسم على وجهه، وكأنه محط أنظار الجميع في فندق خمس نجوم، لا في زنزانة مظلمة.

انتهى المحقّق من استجواب "السكران"، ودخل هو بعده. "يقول المتهم إنك أنت من قمت ببيع الهاتف له، ما هو ردّك؟" هكذا استقبله المحقّق بسؤاله المباغت. ردّ عليه بذهول، "عفوًا سيدي المحقّق، وإذا كنت قد بعته الهاتف، لماذا نحن هنا؟"

نظر المحقّق إليه بعد أن شبك يديه ببعضهما البعض، وقال بصرامة: "لأنك بعد أن قمت ببيع الهاتف، راسلته من حساب وهمي وطلبت منه أن تلتقيا لتمارسا الفاحشة. وهو فقط قام باستدراجك".

تدحرجت تلك الكلمات كالصواعق في رأسه، وكأنه لم يكن يدرك أن الغابة التي يحيا فيها ليست فقط قاسية، بل مليئة بالأشخاص الذين يحاولون قتل الحقيقة.

نظر إلى المحقّق بنظرة مخلوطة بين استهزاء وقرف، ثم قال: "وهل من المعقول أن أبيع الهاتف لأطلب منه هذا الطلب إذا كنت أرغب في ذلك؟ بالإضافة إلى ذلك، هل يحق له أن يستدرجني ويعرّض حياتي للخطر فقط لأني عرضت عليه شيئًا لا يستسيغه، إذا كان الكلام الذي تقوله صحيحًا، حضرة المحقّق؟"

فكر المحقّق للحظة قبل أن يرفع عينيه تجاهه بعد أن فكّ يديه، قائلاً بنبرة احتقار: "هل أنت شاذ؟"

قابل نظرة المحقّق بنظرة استحقار، كأنه يدرك أن المحقّق يستفزّه بنيّة سيئة، فردّ بعصبية: "عفوًا حضرة المحقّق، لا يحق لك أن تسألني مثل هذا السؤال وأنا من قمت برفع الدعوى على ذاك الشخص. لو كنت كما تقول وفعلت كما قيل لك، كيف لي أن أرفع دعوى وأنا من ارتكب الخطأ بيدي؟ سيكون مصيري السجن بلا شك، فمن هو الغبي الذي سيتصرف هكذا؟"

ابتسم المحقّق ابتسامة سخرية، وقال: "لم تجبني، هل أنت شاذ؟"

حدّق في عيني المحقّق وأجاب بوضوح: "جوابي واضح، حضرة المحقّق. وإن كنت شاذاً، فلن أمارس مع شخص كهذا".

نظر المحقّق إليه بنظرة فوقيّة، وكأنه لم يعجبه الأمر، ثم قال: "يمكنك الانصراف".

خرج وهو يشعر بالغضب يتصاعد في صدره من سلوك المحقّق معه، غاضبًا من تهمة نُسِبت إليه كانت بعيدة كلّ البعد عنه. لماذا تتكرّر تلك الحالة معه وكأنها قدرٌ محتوم؟ علم بعد فترة، مصادفة، أن ذاك السكران سيسجن ستّة أشهر كحق عام.

عاد إلى البيت، وفجأة رنّ هاتفه، فنظر إلى الشاشة ليجد عمّه يتصل به. ذاك العم، الذي أوكل إليه ذاك "الشيطان" بمهمة إسقاط القضيّة، كان شخصًا يستتر بالدين ليخفي أعماله القبيحة. كان يُعتبر من الدوغمائيين، والجدال معه يشبه النقاش البيزنطي الذي لا ينتهي على خير. كان يعلم أن ذاك العم لا يحبّه، بل يغار منه ومن نجاحاته منذ طفولته، لكنه دائمًا ما يتقمّص دور البطل، كأنه مرجع لكلّ شيء في العائلة، وكأنه يظن نفسه "تشي غيفارا" عصره.

ردّ على الاتصال، وبدأ "العم المتلبّس بالدين" يسأله عمّا حدث، فأخبره أنه أسقط الدعوى. ثم بدأ بإرثاء مواعظ غير مفهومة، متظاهرًا بأنه ينصحه، وتحدث عن تجارب مرّ بها في حياته لا علاقة لها بمحتوى القصّة، وكأنه يحاول استعراض نفسه. اختتم حديثه بجملة واحدة أزعجت قلبه: "تُب إلى الله، هذه الأفعال لن تنفعك".

تلك الكلمات كانت كالأشواك في قلبه، إذ أدرك أنه يعيش في عالم يفتقد للتفاهم، وأن من يظن أنهم قريبون منه، لا يرون إلا أوجههم في مرآة مصلحتهم.

أنزلت تلك الجملة كالصاعقة عليه، وكأنها قطعت روحه نصفين. "ألهذه الدرجة وصل بي الحال؟ أن يُقال لي تُب إلى الله على أمرٍ لم أرتكبه؟" بتلك الكلمات خاطب نفسه في الوقت الذي واصل فيه ذاك المتلبّس حديثه، وفي لمح البصر قاطعه قائلاً: "لحظة من فضلك، ماذا تظنّ نفسك قائلًا؟ هذا الكلام لا يُوجّه إليّ وكأنك تتّهمني اتهامًا علنيًّا، من أجل ماذا؟ من أجل موضوع لم يعرف رأسه من قدميه؟ لم تعرف ما الهدف منه؟ تشكّك بإيمان شخص وميوله حتى من شخص لا تعرف عنه شيئًا، وسمعته معروفة ما هي؟ وكأنّكم تريدونني أن أكون هكذا،

وإن لم تكن ميولي هكذا، تريدون أن تجعلوها كذلك! أنت لم تشكّك بشخص عادي، بل بابن أخيك، ومن هنا عليّ ألا أعتب على الغرباء. شكرًا لك".

أغلق الهاتف والدموع في عينيه، واستولى عليه الصمت للحظات، مسح دموعه وأكمل طريقه إلى المنزل.

كان يسير وهو شبه غائب عن واقعه، وكأنه سارح في عالم الأوهام، يهمس لنفسه: "أنا على يقين بأنني أحلم، لم تكن الحياة هكذا، ما الذي جرى؟ ما الذي تغيّر؟ السنة الماضية كانت الناس تحبّ بعضها البعض! ما الذي حصل؟"

مرّت الأيام، وبعد ما يقارب الخمسين يومًا، استيقظ على بكاء والدته. هرع إليها ليطمئن عليها، كانت الدموع تغسل وجهها، وكأنّها تلقت خبر موت شخص غالٍ عليها. كرّر سؤالها عمّا أصابها، ولم يكن في المنزل سواهما. نظرت أمّه إليه بنظرة تملؤها الشفقة، وقالت: "كلّمني رقم غريب مزيّف على هاتفي، يبدو أنه من بلد أجنبي ومجهول، وأرسل لي صورًا. كاد قلبي أن يتوقف عن النبض عندما رأيتها".

أمسك هاتف والدته ليرى تلك الصور التي التقطها ذاك "السكران" له، لكن الصور كانت مزيفة، ملعوبًا فيها ومفبركة بطريقة جرافيكية، وكأنّها تبدو حقيقيّة. كانت خادشة للحياء، مقرفة، يصعب وصفها، وكأنّها تمثّل نهاية العالم بالنسبة له، وكأنّها تعكس قسوة الحياة وعبثيّتها.

تمنّى وقتها أن تنشق الأرض وأن تبتلعه على ذلك الموقف الذي وُضع فيه، أن تراه والدته بصورة ليس له أي ذنب فيها، غير حقيقيّة، والحقيقيّة ليست بيده وفوق كلّ ذلك أخفى ذلك الأمر لئلا يوضع تحت

سوء شكّ فيه، "أمي، إنها غير حقيقيّة صدّقيني." بصوت مربك قالها. لتردّ عليه بكلّ طيبة خاطر "أنا أعرف من ربّيت." يا لقلب الأم وحنانه.
وفي اليوم التالي، وعند الساعة الثامنة مساءً، خرج من غرفته على صوت والدته وهي تتكلّم بصوت عالٍ، لم يفهم ما الحديث ولكنّه وجدها تتحدّث في سياق الموضوع نفسه، سألها ما الأمر لتقول له "لقد أرسلوا الصور إلى أخيك من الرقم المزيّف نفسه الذي تواصلوا معي منه، ولكن لم يكتفوا بذلك بل شتموا أخاك."
نظر إليها نظرة مغمورة بالحسرة والغضب والأسى، وكأنّهم يحاربونه بالقلق، أخذ نفسه وعاد لغرفته، وجلس طول الليل يفكّر في الموضوع ويقول لنفسه: "هل اكتفوا؟ أم أنّ هناك شخص آخر؟" ظلّ على ذلك المنوال حتّى حل الصباح عليه.
في اليوم الثالث وفي التوقيت نفسه، أرسلوا تلك الصور الخادشة لأبيه، سمع صوتًا آتيًا من غرفة المعيشة يقول بصوت عالٍ "إنها كذبة، إنها مفبركة، من المستحيل أن يفعل ابني هذا الأمر." ركَض مسرعًا ليجد والده يصرخ بتلك الكلمات أيضًا.
لم ينطق بكلمة واحدة، ولم يوجّه له أهله أي كلمة أو اتهام أو حتّى كلمة طيّبة له تبرّد روحه الغاضبة الهشّة، ظلّ ينحط طوال اللّيل، وكأنّ ليلته بألف عام. ترى بمَ يشعر من يُتّهم بشيء يسيء إلى سمعته ويلوّثها وترافقه تهمة أبديّة دون أي ذنبٍ له فيها؟
مرّ اليوم الرابع من دون أن يحدُث أي شيء يُذكر، كان بانتظار دور أحدهم، لكنه لم يُسجّل أي حدث. في اليوم التالي، تفاجأ باتصال أحد أعمامه بوالده، ليخبره عن قصة الصور التي أُرسلت، ويكشف أن من وراءها هو ذاك "الشيطان" وأخواته الذين يصغرونه، حيث كانوا

يجمعون عددًا من الشبان ويقومون بتركيب الصور بشكل مزيّف، ويصنعون أرقامًا مزيّفة لإرسال الصور.

أضاف العم أنّه وبّخهم على ذلك الفعل، وأمرهم بالتوقّف، بل تابَع من قام بتركيب تلك الصور فردًا فردًا، وجعل كلّ من أخذ تلك الصور يمسحها أمامه.

سمع والده يخبر والدته بذلك الأمر، واحتل التساؤل قلبه: "لماذا لم يرسلوا الصور لي؟" تذكّر أن أولاد عمّه، ذاك "الشيطان" وأخواته، ليس لديهم سوى رقم والديه وأخيه الأوسط، حتى أخيه الكبير، الجندي، ليس لديهم رقمه، ولو كان لديهم الأرقام لما توقفوا عن الإرسال.

في تلك اللحظة، دخل إلى الفيسبوك واستعرض الرسائل المخفيّة، ليكتشف أن هناك حسابًا وهميًا قد كلّمه، وقد أرسل له صورًا ثم مسحها. أدرك هنا أنّهم هم المسؤولون، وأن كلام عمّه صحيح. يا لوساخة الإنسان!

بعد جدال دار بينه وبين والده، علم أن أحد أصدقائه شبه المقرّبين، الذي كان يسانده في وحدته ويدعمه عندما يراه بلا مال، كان يزور ذلك "السكران" في السجن بصفته جاره. وقد أعطى ذاك "السكران" هاتفه، الذي التقطت به الصور، لذلك الصديق شبه المقرّب، الذي أرسل الهاتف لذاك "الشيطان" ليقوم بذلك العمل الحقير. ثم أدرك فيما بعد، بعد خروج ذاك "السكران" من السجن، أن ذلك "الشيطان" قد ساعده على السفر إلى تركيا وتكفّل بكلّ شيء احتاجه من تكاليفه الخاصة.

كانت تلك القصة بمثابة درس قاسٍ له، تعلّم من خلاله ألا يثق بأحد، وألا يأتمن لقريب ولا لصديق ولاً حتى لنفسه. فقد بات الجميع في نظره واحدًا، كأنّما دُوّنت في أعماق قلبه عبارة كانت تتردد في مسامعه:

"لا أحد يؤتمن...!" فكانت تلك الكلمات كخنجر يطعن فيه، يتردّد صداه في نفسه، يذكّره بأن الثقة أصبحت خطيئة، وأن الأمل قد غدا حلمًا بعيد المنال.

في لحظات الصمت العميق، تتجلى حكاية الأحلام المتكسّرة، كأنها أنغام مهترئة تتلاشى داخل الروح، مرغمة على الصمت رغم همس الآمال المنهكة. يسكن القلب شعورٌ مرير بسعادة مزيفة، تتخللها رياح الفراغ والضياع، فتتفشّى الآهات المكبوتة لبحثٍ لا نهاية له عن الرضا المفقود، وسط ذلك الغمام المظلم من اليأس ينبعث الإحساس المضني بتعاسة البحث، فيحتضن الأمل المزيف وجع الواقع بقسوته المخيّمة، وتبقى الطمأنينة الزائفة كسراب يتلاشى مع هبوب الرياح الحادة لتتلاشى معها أحلامه المتكسّرة.

مرّت الأيام مسرعة، وكأنه يتعمّد نسيان ما حدث، يخفي ما مرّ به وما يمرّ به من ظروف أخرى أقل حدّة بابتسامة أصبح يعتاد عليها، بينما تتآمر الظروف لتخبره هامسة: "الأمان والسعادة ليسا من نصيبك." كان ينجح في تقديم نفسه كناجٍ دائمًا، فلم ينتبه أحدٌ إلى غرقه ولا إلى ذلك العمق الذي يختبئ فيه.

بدا متخبّطًا بين عمق أفكاره وما يحمله داخله من مشاعر مرهقة، وبين تلك الشخصية التي أتقن تمثيلها للهرب من ذاته الحقيقيّة. لكنه بعد كلّ تلك الضربات القاسية التي انهالت عليه، بدأ وهج تلك الشخصيّة شبه الاجتماعية يخبو شيئًا فشيئًا. إلى متى سيستمر ذلك؟ لا أحد يعلم.

في أحد أيامه، وبعد مرور سنوات، ومع بداية سنة ٢٠٢٢، كان يلقي محاضرة في المكان الذي يعمل فيه، والتقى مصادفةً بأحد المعارف الذي كان يعرفه من بعيد، حيث كانت هناك مسافة أمان تفصل بينهما.

ألقى التحيّة عليه وتبادلا أطراف الحديث. كان ذاك الشخص نحيف الجسد، تكاد عظامه تخرج من تحت جلده، وصغير الوجه، بأسنان متعرّجة. كان يومها يرتدي لباسًا يليق بمن يعمل في قاعة تدريس، كأولئك الذين لم يصدقوا أنهم وصلوا إلى تلك المرحلة في حياتهم، وكأنهم يعلمون أن القدر ابتسم لهم في وقت تجاهل فيه العديد ممن هم أكثر كفاءة وأحقيّة.

كان يرتدي ذلك اللباس الذي يرتديه من يتوقون لإثبات أهميتهم للعالم، وكأنهم يستعرضون ذواتهم ليقولوا: "أنظروا إليّ، أنا شخص مهم." يا لسخرية القدر، تكاد الشفقة أن تنطق لتقول لهم: "أشفق عليكم أكثر من أي شخص آخر." وكأن هؤلاء يعيشون في عالم من الوهم، يقاتلون لتزييف واقعهم، بينما تستمر الحياة في قسوتها، تسخر من أولئك الذين يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بعظمة زائفة.

بعد عدّة لقاءات بينهما، طلب منه ذلك "النحيف" أن يلتقيا خارج نطاق العمل، حيث أراد لقاءً مختلفًا، بعيدًا عن لقاءات المصادفة. قبِل الدعوة بصدرٍ رحب، والتقيا في مقهى تحيط به حديقة هادئة، حيث تبادلا أطرافَ الحديث عن العمل وأحوالهما. بدا اللقاء جميلاً، وكأنّه بوّابة أمل جديدة لحياته التي كانت تفتقر إلى الدفء.

مع تكرار اللقاءات اليومية، تطوّرت العلاقة بينهما بشكل ملحوظ، حتى أصبحا لا يفترقان، وكأن يومهما لا يكتمل إلا بوجودهما معًا. كان ذاك "النحيف" يكبره بأربع سنوات، وكان يتمتّع بشخصيّة متحضّرة، متكلّمة، متفهّمة نوعًا ما، ومرحة. كان محبًا للخير، ومثقّفًا، ويجيد تكتيكات العمل. لكن ما لم يدركه إلا بعد المعاشرة الطويلة، هو أنه كان متقلّب المزاج ودوغمائيًا، يرى نفسه دائمًا على حقّ.

شعر براحة معه إلى درجة اعتباره الأخ الأكبر الذي يلجأ إليه في كلّ شيء، وكان ذلك الشعور متبادلًا، إذ شاركه "النحيف" قصصه وظروفه. كان "النحيف" مستمعًا أكثر مما كان متحدّثًا، مستوعبًا له في كلّ لحظة.

كانت تلك بداية علاقتهما، وعلى الرغم من العمل المشترك بينهما في المركز التعليمي الذي عرضه ذاك "النحيف" عليه، كانت علاقتهما مع صاحب المركز أيضًا جيّدة. ولكن يا للمفارقة، فدائمًا ما تكون البدايات جميلة، وكأن الحياة تسخر من ثبات تلك الجماليّات، وتجعلها مقدّمة لأحداث لا يُدرك خفاياها إلا من ذاق مرارتها.

مع مرور الوقت، لاحظ أن اسمه بدأ ينتشر في المركز الذي يقع في منطقة مسقط رأسه، حتى أصبح العديد من التلاميذ يتوافدون للدراسة عنده.

كان ذلك مصدر سعادة لصاحب المركز وذاك "النحيف" في البداية، لكن مع الوقت بدأت تظهر التقلّبات المزاجية لدى "النحيف". رغم تلك التقلّبات، كان يتقبّله بحبّ وولاء حقيقي، إذ كان يرى في كلّ علاقة جوهريّة أعمق من العيوب الظاهرة.

كان يؤمن بأن الكمال وهمٌ، وأن الصداقة تتطلّب الاحتضان والتقبل، ليبقى كتفا الصديقين سندًا لبعضهما البعض.

لكن ما لم يدركه هو أن مسألة التقدير لم تكن أبدًا في حسابات الآخرين. كان يُضحّي من أجل الجميع قبل نفسه، محاولًا إصلاح الأمور وتجنّب النزاعات التي تنشب بين "النحيف" وصاحب العمل. جلس مرارًا يستمع لانتقادات "النحيف" تجاه صاحب المركز، وأحيانًا أخرى يستمع لصاحب العمل الذي كان ينتقد "النحيف" بدوره، فيحاول أن يصلح الأمور حتى لا تُزرع بذور الفتنة في العقول.

كان يرى أنّهم عائلة واحدة، ولكن يا للمفارقة، فالعائلة الحقيقيّة هي الوحيدة التي لا تخذل، أمّا غيرها فما هي إلا أوهام استغلاليّة تحكمها المصالح.
ومع كلّ ذلك الاحتضان والإصلاح، كان يتجاهل حقيقة أن هناك قلوبًا لا تعرف معنى التقدير، وعقولًا لا تدرك قيمة التضحية. هكذا كان يعيش بين ألم التناقضات ومحاولات البقاء على قيد الأمل، في عالم لا يرحم من يملك قلبًا طيبًا.
في يومٍ ما، كان يتمشى مع ذاك "النحيف"، فالتقى مصادفةً بثلاثة من طلاب ذاك "النحيف" القدامى. كان بينهم شاب طويل القامة، أسمر البشرة، ممشوق القدّ، ووجهه بشوش يشع منه نورٌ غريب. وقف ينظر إليهم واحدًا تلو الآخر، فهو من أولئك الذين يتأمّلون الأشخاص عن بُعد، لكن ذاك "البشوش" كان الوحيد الذي شعر بأنه يعرفه منذ زمن طويل، ربما لبشاشته، أو للراحة الداخلية التي أحس بها حين رآه لأول مرّة، والتي بدت كأنها لم تكن الأولى، بل سبقتها لقاءات عديدة في عالم منسي.
وما لبثت الأيام أن تُثبت صحّة شعوره الغامض، إذ التقى بذاك "البشوش" مرّة أخرى في جامعته. كان "البشوش" طالبًا جديدًا هناك، وتبادلا الحديث بشكل عفوي. وبدت الحياة كأنّها تعيد نسج خيوطها حين انتهى المطاف بذاك "البشوش" ليكون أحد طلابه في المركز نفسه.
مع مرور الأيّام، يوماً بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر، أصبح "البشوش" أحد أصدقائه المقرّبين. كان اجتماعيًّا بدرجة عالية، وهي صفة لم يقدّرها في البداية تجاهه، بل جعلته يخاف عليه من

الوقوع في فخ الظلم الذي تعرّض له هو من أشخاص لم يعرفوا للرحمة طريقًا.
حاول أن ينصحه بألا يبالغ في اجتماعيّاته، خوفًا من أن يلقى المصير المؤلم نفسه، لكنه أدرك مع الوقت أن الظروف ليست واحدة للجميع، وأن فشله هو في بناء تلك العلاقات لا يعني حتميّة الفشل لغيره. الحياة متغيّرة ومتنوعة بظروفها، لكلّ شخص نصيب مختلف من المحاولات والنجاحات.
تقبّل ذلك الأمر واحترمه، وساند ذاك "البشوش" رغم المسافات في اللقاءات بينهما. كان يشعر بطيبة قلبه ومحبته الصادقة، حتى في غيابه. ورغم كلّ شيء، بقيت بينهما رابطة خفيّة، كأنهما يلتقيان في عالم من الأرواح النقية، حيث لا حاجة للقاءات اليومية لتبقى المحبّة حيّة.
بعد مرور عدة أشهر من عمله مع ذاك "النحيف" ولقاءاتهما شبه اليوميّة، كانت الأيام تمرّ في روتين قاتل. يلتقيان صباحًا ليشربا القهوة ويتناولا الإفطار معًا، ثم يعود كلّ منهما إلى منزله لتناول الغداء، ومن بعدها يلتقيان مجددًا بعد الظهر في المركز ليستقبلا طلّابهما، حيث لكلٍّ منهما اختصاص ومواد تختلف عن الآخر.
استمرّت الأيام على ذلك الحال، حتى جاء السابع والعشرون من شهر شباط/فبراير، والذي صادف يوم الثلاثاء، عند الساعة الخامسة إلا خمس دقائق. كان واقفًا مستندًا إلى باب الغرفة التي يُدرّس فيها، وهي بمواجهة غرفة ذاك "النحيف" الذي كان يدرّس أيضًا. في تلك اللحظة، وبعد أن أنهى حديثًا قصيرًا مع أحد طلابه، عاد ليتكئ على الباب، ونظر إلى الخارج ليجد ذاك النحيف يتحدث مع شاب طويل القامة، أسمر البشرة، نحيف الجسد، له شعر أسود يحتار المرء في وصفه إن

كان ناعمًا أم خشنًا. كان وجه ذاك الشاب مغطى ببثور شبه ظاهرة، ويرتدي بنطالاً واسعًا قليلاً وسترة بيضاء، وفوقها معطف كحلي يكسوه الفرو حول رقبته.
في تلك اللحظة، تلاقت عيناه مع المشهد، وذبلت نظراته في سكونٍ ثقيل. شعر بعصف قلبه وكأنّ الأرض تهتزّ تحت قدميه، دون أن يدرك السبب. تدفّقت الذكريات إلى ذهنه فجأة، وتذكّر كيف رأى "البشوش" في المرّة الأولى، والشعور الغريب الذي اجتاحه حينها وكأنّه يعرفه منذ زمن بعيد.
ذلك الشعور الغريب الذي خفق فيه قلبه عاد بأضعافٍ مضاعفة تلك المرّة، إذ كان الشاب أمامه يشبه "البشوش" إلى حدٍ يثير الدهشة، وكأنهما إخوة فرّقتهما الحياة، وأعادتهما الأقدار إلى ذلك اللقاء الذي لا يمكن وصفه سوى بأنه لقاءٌ مع ماضٍ قديم.
بعد ذهاب ذاك الشاب، لم يستطع مقاومة فضوله، فسأل ذاك "النحيف" عن هوية الشاب ليتأكّد من صلة قرابته بـ"البشوش"، ليكتشف بالفعل أنّه أخوه كما توقّع. شعر بسعادةٍ غريبة، وكأن الحياة منحت له خيطًا من ذكريات صديقه العزيز، وكأنّ روح "البشوش" عادت لترافقه في ذلك المكان البارد.
مرّت الأيام، وكان يراه يأتي إلى المركز ليتعلّم عند ذاك "النحيف"، فيفرح كلّما رآه وكأنّه يعيد إليه ذكرى عزيزة من ماضٍ لم يندثر. كانت لحظات لقاءهما تحمل في طياتها طيفًا من "البشوش".
في أحد الأيام، بينما كان واقفًا قرب مدخل المركز ينتظر تلاميذه ليبدأ درسه، لمح الشاب واقفًا ينتظر ذاك "النحيف". اغتنم الفرصة، وألقى عليه التحيّة، فبادله الشاب بابتسامة ودودة، وتحدّثا معًا. أخبره عن

معرفته بأخيه وبأنه كان صديقًا مقرّبًا له، وعرض عليه مساعدته في أي شيء يحتاجه. تبادلا أرقام الهواتف، وتبادلا ابتسامة بسيطة، ولكن تلك الابتسامة التي رسمها الشاب على وجهه كانت تحمل براءة وسذاجة، تلمس قلب كلّ من يعرف مرارة الخذلان ويقرأ لغة الوجوه. كانت ابتسامةً عذبة، تفيض بالنقاء، ولا يمكن لأحد أن يصفها كما يجب.

بدآ يتراسلان، واتفقا على لقاءٍ يتعارفان فيه أكثر، كأي صديقين يبحثان عن مرافقةٍ تمنحهما الأمان. وعندما التقيا، كان اللقاء بسيطًا ومليئًا بالبراءة، يحمل في طيّاته بساطة اللحظة ونقاء ابتسامة الشاب، وكأنه يجمع بين روحين متعطّشتين لفهم الحياة من جديد دون أن ينطق.

كان لديه مجموعة من الأصدقاء المقرّبين، أربعة أشخاص دون أن يشمل "البشوش" وأخاه "صاحب الابتسامة البريئة". وفي ليلة التاسع عشر من نيسان/أبريل، قرّر أن يجمع بينهم وبين "صاحب الابتسامة البريئة"، لتكون تلك الليلة أوّل لقاء يجمعه بكلّ أحبائه. وفي نهاية اللقاء، التقط أول صورة جمعته مع "صاحب الابتسامة البريئة"، تلك الصورة التي كانت البداية الأولى للنهاية المريرة، وكأنّ حدسه كان ينذره بأن ذاك الشاب سيكون من ركائز حياته، وصوت داخلي غامض كان يهمس بذلك في أذنه.

كان اللقاء الثاني في أول أيّام العيد، حيث اجتمع مع أصدقائه ومنهم "صاحب الابتسامة البريئة" لتناول الإفطار معًا، ملأت الضحكات المكان، والتقطوا الصور التذكاريّة التي اعتاد دائمًا أن يحرص على توثيقها، فقد كان يرى في اللقاءات الجماعية ترسيخًا لروابط الحبّ والصداقة، ومتنفسًا لإعادة بناء الذكريات مع من يعزّ عليهم.

عاد إلى المنزل ممتلئًا بالفرح، فقد شعر في ذلك اليوم بحبٍّ يحيط به من كلّ جانب. قرّر نشر الصور تعبيرًا عن سعادته العميقة، ولكن فجأة، قطع صوت رنين الرسائل هاتفه. نظر إلى الشاشة ليجد رسالة من "النحيف"، تحمل كلمات غريبة: "أها! حتى هو معك أيضًا؟" ليرد عليه بلطفٍ وطيبة: "نعم، أرأيت ذلك؟ إنه من أطيب الأشخاص الذين قد تلتقي بهم." ولكن الردّ الذي جاءه بعد ذلك كان مفاجئًا وصادمًا: "على كلّ حال، هناك أمر أريد أن أتحدث فيه معك، دعني ألتقي بك الآن".

شعر بالاستغراب والقلق في آنٍ واحد، فسأله إن كان هناك شيء خطير، فأجابه "النحيف" بأن الحديث ليس جديدًا، بل هو أمر أراد أن يقوله له منذ زمن، ولكن أحداث اليوم أعادته إلى الذاكرة، فحانت اللحظة للكشف عنه.

ذهب مسرعًا لملاقاة "النحيف" المعقّد، ليجده ينتظره في الحديقة وكأنّه كان يترقّب ذلك اللقاء، أو ربّما قد خطّط له مسبقًا. ألقى عليه التحيّة وجلس بجانبه، ثم سأله بلطف عمّا يريد التحدّث بشأنه، ولكن "النحيف" لم يضيّع وقتًا وأطلق عبارته ببرود: "ابتعد عن تلاميذي!" قالها بنبرة قاسية ووجهه يعكس ملامح الكراهية.

تملّكه الذهول وسأله بتعجّب: "ماذا تعني؟ لم أفهم قصدك".

ردّ "النحيف" بصوت مرتفع: "منذ متى وأنت تعرف ذاك الشاب؟ وكيف تجرؤ على التقرّب منه وتصبح صديقه، بل وتذهب معه في لقاءات خارج المركز؟"

حاول أن يبقى هادئًا وقال: "هو أخ لي وصديق، وتعرّفت عليه وأصبح صديقًا، ما الخطأ في ذلك؟"

ردّ "النحيف" بحدّة أكبر: "لا أسمح لأحد ممّن يعمل معي أن يصبح صديقًا لتلاميذي قبل أن يتخرّجوا ويتركوا المركز. تغيّرت تصرّفاتك عندما أتى ذاك الشاب والجميع لاحظ ذلك".

نظر إليه بصدمة وقال: "كيف تغيّرت تصرّفاتي؟ جعلتني أشعر وكأنني وقعت في حبّه! لديك تلاميذك، ولي تلاميذي ولا يتدخل أيّ منا في شؤون صفوف الآخر إلا للضرورة. لم أتقرّب من تلاميذك يومًا، رغم أنه لا مانع لديّ لو فعلت ذلك، لأنني أفتخر بك وبصداقتنا. لكن تلك السياسة التي تتّبعها مع صاحب المركز بسبب الغيرة، لا تتّبعها معي".

قاطعه "النحيف" غاضبًا: "أنا لا أتقرّب من تلاميذك، ولا أريد ذلك. لكن نصيحتي لك، رافق من هم أكبر منك سنًّا لتحافظ على صورتك أمام الناس. كلّ صورك على وسائل التواصل مع أشخاص أصغر منك!"

ابتسم ابتسامة خافتة وقال: "أنت أكبر منّي، ولدي أصدقاء من جميع الأعمار. من هم أكبر منّي أتعامل معهم باحترام، ومن هم أصغر أعتبرهم في عهدتي كالأخ الأكبر. أين المشكلة في ذلك؟ وأنت أيضًا أكبر مني بأربع سنوات وتجلس مع تلاميذك الذين تكبرهم بعشر سنوات. ألا تخاف من نظرة الناس إليك؟"

قاطعه "النحيف" بنبرة ساخرة: "أنا لا أرتدي مثل ثيابك".

أحسّ الكلمات كخناجر في صدره، وسأله بصوت مخنوق: "ثيابي؟ ما بها؟ أليست عادية؟"

ردّ الآخر بتشفٍّ: "لباسك غريب، من القفّازات إلى الأوشحة، البنطال، والزينة في يديك. كلّ هذه الأشياء تلفت الأنظار وتجعل الناس تتحدث عنك بالسوء".

ابتسم من جديد، لكنها كانت ابتسامة حزينة مثقلة بالألم وقال: "حسنًا، لن أتدخّل في حياتك أو أقترب من تلاميذك مرّة أخرى، بعد أن تعرّفت إلى ذاك الشاب. اعذرني، يجب أن أرحل".
أدار ظهره وذهب، وعلامات الحزن والغضب بادية على وجهه، وكأنّه التقى بـ"النحيف" الذي كان يعتبره أخًا له، ليصفعه ثم ليُكمل طريقه ويعود إلى المنزل. كانت الذكريات تتخبط في عقله، وبعد ذلك اللقاء بدأت تصرفات "النحيف" تتغير تجاهه شيئًا فشيئًا، وكأن الخسارة تضع ظلالها الثقيلة على صداقتهما.
ظلّت حالته على ذلك المنوال لعدة أشهر، حيث كان يلتقي يوميًا مع أولئك المقرّبين منه. أحدهم، ذو البشرة السمراء، نحيف الجسد ومتوسط الطول، شعره أسود، كانت أكثر صفاته تطابقًا له "الكاذب"، حيث يعيش في أوهام الكذب، وكأن الكذب هو خلاصه الأخير من واقع مرير يدور من حوله.
الثاني، ذو البشرة الحنطية، متوسّط الوزن والطول، شعره مجعّد، كانت صفته الأبرز "المتردّد"، فهو غير قادر على اتخاذ قرار بنفسه، وكأنّه يركب موجة أي شخص من حوله، رغم بساطته.
أما الثالث، فكان أبيض البشرة، نحيف الجسد، شعره أسود ناعم، وكانت أكثر صفاته دلالةً "ضعيف الشخصية"، إذ لا يعرف كيف يتّخذ قرارًا، وكأنه عبارة عن كتلة من العقد تمشي، وفوقها غيمة سوداء تنشر الطاقة السلبية على من حوله.
الرابع، كان ذا بشرة سمراء أيضًا، متوسّط الطول، رياضيًا، وشعره أسود قصير، وصفتُه كانت "المغرور الشهواني"، إذ كان مغرورًا بنفسه لدرجة أنه يعتقد أنه لم يُخلق مثلُه. كانت أحاديثه ونظراته تسبح في بحرٍ

من الشهوة، وكأن الحياة بالنسبة له تعيش تحت سقف تلك القوى الحيوانية.
أما الأخير، فكان أسمر البشرة أيضًا، طويل القامة، رياضيًا، ذا شعر أسود ناعم، وكانت الصفة التي تناسبه هي "الاستغلالي المتغابي"، إذ كانت مواقفه تثبت ذلك الأمر.
كان يلتقي بهم بشكل شبه يومي، حيث كانت اللقاءات تجمع بينهم وبين "صاحب الابتسامة البريئة." دارت بينهم رحلات وسهرات، وضحكات وفكاهات، وتخييم، والعديد من القصص التي كانت تعني له الكثير. كان يعتبرهم بمثابة جسر عبور لشخصيته المتردّدة والحزينة، لتصل إلى شخصيّته السعيدة والفرحة. كانت لقاءاته معهم تنسيه كلّ الظروف القاسية التي مرّ بها والتي لا تزال تطارده. ورغم علمه بأن لا شيء يدوم وأن علاقته معهم لن تستمر، كان يتغافل عن الحقيقة بانتظار أن يضحك له القدر ويظلوا بجانبه في محنته كما كان يفعل هو.
كان يجمعهم دائمًا، رغم اختلاف الشخصيات بينهم وحتى بينه، ولكنه كان يتغاضى عن ذلك لأنه كان يعتبرهم كأخواته، والملجأ الوحيد له من دوامة العالم وظروفه ومشاكله، خصوصًا أنهم جميعًا من مسقط رأسه باستثناء "الإستغلالي المتغابي".
في بداية شهر أيلول/سبتمبر، وفي إحدى لياليه القاتمة، كان على خلاف مع "الاستغلالي المتغابي" بسبب تغيّره الملحوظ وابتعاده عنه، وتقرّبه أكثر من "المغرور الشهواني." وكان الأخير قد تغيّر عليه أيضًا، مما زاد من حدة الخلاف. كان خلافًا بسيطًا يحدث بين أي صديقين، ولكنّه كان متحسّسًا أكثر من تغيّره عليه، إذ انتشل "الاستغلالي المتغابي" من دوامة الضياع التي كان فيها، وسنّده ماديًّا ليتمكن من التخلص من

أولئك الذين أخطأ في معاشرتهم. لقد انتزعه ووضعه في بيئة على خط مستقيم يليق به، ولكن بعد أن عالجه اجتماعيًا، تغيّر هو أيضًا مع الأشخاص الذين عرفه عليهم. لم يكن ليختلف معه لو أنه تقرّب من الجميع، ولكن بشرط ألا يتغيّر عليه، لأنه كان يكره أن يتبدّل الناس دون سبب يُذكر.

في ذلك اليوم، وتحديدًا في إحدى الليالي التي كانت مختلفة عن سابقاتها، تواصل مع "صاحب الابتسامة البريئة" ليسأله عن مكانه ويذهب إليه بعد أن أنهى عمله. حيث كان دائمًا يلتقي به في مقهى قريب من منزلهما، صباحًا أو مساءً. وفور وصوله إلى المكان الذي كان يتواجد فيه "صاحب الابتسامة البريئة" حيث كان جالسًا مع بعض معارفه في حارة شعبيّة، جلس معهم. وبعد عدّة دقائق، أتى كلٌّ من "الاستغلالي المتغابي" و"المغرور الشهواني" لمشاركتهم الجلسة، وكأن الغيوم قد اجتمعت في سماء حياته، معلنةً عن عاصفة تقترب.

بعد بضع دقائق، مرّ أحد سكان تلك الحارة بالقرب منهم. كان طويل القامة، يرتدي قبعة، ذا بشرة سمراء، وكان يبدو "كالثور" في هيبته، لكنّها لم تكن المرّة الأولى التي يراه فيها؛ فقد كان يتكرّر ظهوره بين الفينة والأخرى في تلك الحارة أو في أرجاء المنطقة. لم تمر سوى بضع ثوانٍ حتى ناداه ذلك "الثور"، فتوجه إليه متسائلاً: "أتناديني أنا؟"

استغرب الأمر، لكنه اقترب منه، ليجد أن ذلك "الثور" كان برفقة أحد أصدقائه. طلب منه الهاتف ليتواصل مع أحد معارفه، ولم يتردّد في إعطائه إياه، فهو كان في حاجة إلى المساعدة. لكن ما لبث أن تفحص "الثور" تطبيقات الهاتف، مما أثار استغرابه. سأله: "ما الأمر؟ ما الذي تريده تحديدًا؟"

نظر إليه بعيون تشع نارًا، ثم قال: "ألا تملك غير هذه الحسابات؟ أليس لديك حسابات وهميّة أخرى تتحدث بها مع الأشخاص؟"
نزل عليه سؤاله كصاعقة سقطت على رؤوس من تحتها، وتذكّر مباشرةً تلك الحوادث المؤلمة التي تلاحقه. نظر إليه وهو يبتلع ريقه، متسائلاً: "ما الذي تراه؟ هل رأيت أي حساباتٍ أخرى؟"
نظر صديقه الذي كان يرافقه إليه، وقال: "تمهّل، أنا واثق أنه ليس هو، وفي حال كان هو، سيكون قد فهم ما الذي تقصده أنت." لكن "الثور" رد عليه بحزم: "أنا واثق أنّه هو".
في تلك الأثناء، اقترب "صاحب الابتسامة البريئة" من تجمعهم وسأل: "لماذا تتحدث معه بهذه اللهجة؟ ما الذي تريده؟" لكن ما إن بدأ في كلماته حتى انطلق "الثور" بالصراخ، ودون سابق إنذار، انقضّ عليهم أكثر من خمسين شخصًا من نفس تلك الحارة وبدأت المعركة.
لم يفهم ما الذي حدث في تلك اللحظة، فهو لم يتربَّ على العنف ولم يخض في حياته قتالًا واحدًا. كان خائفًا على من هم معه، يلتفت يمينًا وشمالًا بحثًا عنهم. وجد "المغرور الشهواني" قد هرب، يليه "الاستغلالي المتغابي"، بينما لم يجد سوى "صاحب الابتسامة البريئة" وحيدًا في وسط الزحام، ساقطًا على الأرض وحوله العشرات يضربونه ويركلونه، وكأن الكثرة هي مقياس للقوة، وليس للضعف. وفجأةً، انقضّوا عليه أيضًا، وبدؤوا يركلونه ويضربونه بلا رحمة.
استطاع الإفلات منهم، وهو يبحث عن "صاحب الابتسامة البريئة" متسائلًا أين هو وما الذي حدث له، هل هو بخير؟ وبعد أن ابتعد قليلاً، رأى "الاستغلالي المتغابي" يستقل دراجته النارية، فناداه وأخذه بعيدًا

عن أعينهم. أوصله إلى بر الأمان، ثم انطلق ليجلب "المغرور الشهواني"، وأخذاه إلى مدخل منزله.
في تلك اللحظات القاسية، أدرك أنه رغم كلّ شيء، لا تزال هناك يد تمتد للمساعدة، لكن حزن الفراق كان يثقل قلبه، ومرارة الموقف تلاحقه كظلال لا تفارق الذاكرة.
صعد السلم إلى منزله، قلبه مثقل بالهموم، وهو لا يعرف كيف سيخبر والديه بما حدث. فتح باب المنزل، فرأته والدته في تلك اللحظة، وجهه متورم وثيابه ممزقة، فتساءلت عن الذي حصل. سرد عليها القصة كما وشاركاه "الاستغلالي المتغابي" و"المغرور الشهواني" السرد. تفهمت والدته الموضوع، كالعادة، فهي أم، لكن سرعان ما دخل والده إلى المنزل، وعندما رآه في ذلك المشهد، بدأ يصرخ كالعادة. سمع القصة منه ومن أصدقائه، وسأل عن هوية ذلك "الثور"، ليتبين أنه يعرف أحد أقاربه.
تمكّن من الحصول على رقمه وتواصل معه، مستفسراً عما حدث. أغلق الاتصال وهو يكرّر الكلمات التالية: "لا تؤاخذنا، لا تؤاخذنا."
نظر إلى والدته باستغراب، وهي بدورها تراقبه بقلق، وإذ به يسأل والده: "على ماذا لا يؤاخذنا؟ ما الذي ارتكبناه من خطأ لنقول له هذه الكلمات؟"
رد عليه والده بصوت غاضب: "إنه يقول إنك تتحدّث مع فتيات من حسابات وهميّة، وإنك تنتحل شخصيات فتيات من منطقتنا وتتحدّث مع الشباب لأهداف جنسيّة".
نظر إلى أصدقائه الذين تناسيا نوعًا ما خلافهما معه، الذين كانا بدورهما على علم بكلّ القصص التي مرّ بها، فوجد أن الاستغراب

يعتلي وجهيهما وكأنّهما لا يصدّقان ما سمعا. ثم نظر إلى والده وسأله: "وهل تصدّقهم؟ ألا تعرف كيف ربّيتني؟ وما هي أخلاقي وتصرّفاتي؟ هذه ليست المرّة الأولى التي أتعرّض فيها لهذه الأمور، وكأنّهم مصرّون على أن أكون هكذا. لا أريد أن أبدو بهذه الصورة، لماذا يصرّون على ذلك؟"

اتّصل والده بذلك "الثور" مرّة أخرى ليستفسر منه عن القصة بمزيد من التفاصيل. وعندما أنهى الاتصال، قال والده: "معظم المكالمة كان حديثه يدور حول أنك تواصلت معه من حساب وهمي، متنكّرًا كشاب يبحث عن حاجات جنسيّة."

استغرب ما قاله والده، وردّ عليه: "تقولها بكلّ بساطة؟ كم هو وقح ليقول هذا الكلام، ومن ناحية أخرى هو كاذب، لأن إجاباته متناقضة. جوابه الأول يقول إني أتحدث من حسابات وهمية تعود لبنات، والآن لشباب. هل يستغبينا؟"

رد عليه والده: "على كلّ حال، قال إنه أخطأ وظنّ أنك شخصٌ آخر، وغدًا سيعتذر لي عندما يقابلني. كما طلب منك أن تذهب إلى ذلك المقهى غدًا وكأن شيئًا لم يحدث، حيث سيقدم اعتذاره لك أمام الجميع."

بينما كان والده يتحدّث، شعر بشيء من الألم يعتصر قلبه. لقد كان يتمنّى لو أن الأمور لم تصل إلى ذلك الحد، وأن يكون بمأمن من تلك الدوامات التي تبتلع براءته. لم يستطع أن يصدّق أن وجوده في تلك الدائرة من المعارف قد يجعله ضحيّة لمثل تلك الشائعات. كان الحزن يتلاعب بأفكاره، ويُشعره بأنّه محاصر في زنزانة من الشكوك، كلّما حاول البحث عن مخرج، واجه جدرانًا لا نهاية لها.

ها هو اليوم التالي، لم يقبل أن يمرّ دون أن يطمئنّ على "صاحب الابتسامة البريئة". قابله صباحًا، شكره على وقوفه بجانبه، وأخبره بالتفصيل عمّا حدث. اتّفقا على أن يلتقيا مساءً ليعتذر منه ذلك "الثور".
ذهب إلى المقهى وانتظر ساعة كاملة برفقة "صاحب الابتسامة البريئة" وأخيه "البشوش" و"الاستغلالي المتغابي" و" المغرور الشهواني"، بينما كان المتواجدون هناك من شباب وكبار ينظرون إليه باستحقار من بعيد، وكأنه مذنب أو مرتكب لجريمة شنعاء.
ثم أتى ذلك "الثور" على درّاجته الناريّة، مرّ بالقرب منهم دون أن ينظر إليهم، كرّر الأمر عدة مرّات وكأنه يقول: "أنا لن أعتذر، بل كنت أتعمّد فعل ذلك." نظر إليه باستحقار وكأنه يقول بقلبه: "من أنت يا ذا؟ من سمح لك أن تفتح عليّ هذا الباب؟ لماذا تريد أن تلّوث حياتي بهذا الشكل؟ كنت أظنّ أن تلك الشائعات والأعمال قد ابتعدت عني بعد ذاك "السكران"، وقلت بيني وبين نفسي ها قد تخلّصت من هذا الوهم القاتم. أتيت أنت لتجعل حياتي على هذا النحو. هل الحق عليك أم أن هذا الجحيم كان آتيًا منك أو من دونك؟ لا أعلم الجواب، لكن ما أعرفه هو أنك لوّثت حياتي بفعلتك".
جمع أصدقاءه وذهبوا لمقهى آخر، ومع مرور الوقت، حلّ الليل وعاد إلى المنزل. التقى بوالده وأخبره عمّا حدث، وأن ذاك "الثور" لم يعتذر. تفاجأ بردّ والده غير المعقول: "حسنًا، المهم أنه اعتذر لي، هل تريده أن يقبّل يدك أيضًا لترتاح؟ ما حدث قد حدث، القصّة انتهت، لا تعطي الموضوع أكبر من حجمه".
لم يكن يعتاد على ردود والده غير العقلانية، الأمر الذي كان يغضبه ليس فقط بسبب عدم عقلانيّته، بل أيضًا بسبب أجوبته المستفزة وغير

الطبيعية. ردّ عليه: "لا أريده أن يقبّل يدي، ولكن من حقّي أن يردّ لي اعتباري بين الناس، بأنّه هو المخطئ. بفعلته تلك، جعل كلّ من كان يشاهد عن بعد يأخذ صورة سيّئة عني. فالناس لا ترحم يا أبي".
قابله والده بردّ بارد: "لا تقلق، دعك من الناس، ستنسى. وهل للناس وقت ليفكروا بك وبقصّتك؟"
ضحك على رد والده، وكأنّه هو الذي يعلّمه بأن الناس فارغة لدرجة أنه إذا اشترى الإنسان سروالًا، تستغرب حول مصدر المال الذي يحصل منه. وأن الناس فارغة لدرجة أنها تخترع وتبتكر قصصًا لا وجود لها، بغية أن تسلّي نفسها وتغطّي عقدها النفسية الداخلية.
ترك الجلسة مع والده وأخذ طريقه إلى غرفته. ضاقت به الأرض، وبدأ يسأل نفسه عن المسبب لتلك الدوّامة التي أجبر على العيش فيها. كانت قدماه تجرّه وكأنه يمشي بخطوات بطيئة في حقلٍ مليء بعلامات الاستفهام. كلّ خطوة تحمل في طياتها خوفًا من أن يدوس سؤالًا بالخطأ، فيجد نفسه مصابًا بإجابة دائمة تلاحقه كظلٍ ثقيل. تتسلل إلى قلبه كجرحٍ لا يندمل، وتتركه يتخبط بين الحيرة والألم، عاجزًا عن الفرار من تلك الإجابة التي تبتلع كلّ أملٍ في الراحة.
أحسّ وكأنّ العالم بأسره يتآمر عليه، وكأنّ الظلال حوله تتلاعب بمصيره، تذكّر كيف كانت الحياة بسيطة قبل أن تتعقّد الأمور، وكيف كانت أحلامه مفعمة بالأمل، قبل أن يتحوّل كلّ شيء إلى كابوس مقيت يلاحقه في كلّ زاوية.
بعد ذلك الموقف، بدأت ظروفه تتغيّر، والناس من حوله تتساقط تدريجيًّا، ولكنها تتساقط ببطء وكأنّهم ورق على غصن شجرة ينتظر بفارغ الصبر هواء الخريف ليسرع ويقتلعهم، ليعطوا تبريرًا لـ"قلّة

أصلهم" بالسقوط. كانت تلك اللحظات تجعله يشعر وكأن كلّ عزيز يبتعد عنه، كأن العالم من حوله يتحلّل وينكسر كزجاج مهشم، يتناثر هنا وهناك دون أن يترك له خيارًا سوى الشقاء.

في اليوم التالي، التقى بذلك "النحيف" ليخبره عمّا حدث، لكن ردّة فعله وكلامه بدت وكأنّها تنبع من خوفه على سمعة المركز الذي يعمل به، وليس خوفه ولهفته على سمعة صديقه. رغم كلمات "النحيف" التي أبدى فيها شعوره بالتعب والقرف والخنقة من الوضع الذي كان يمرّ به، إلا أن التعاطف الذي كان يتوقّعه لم يكن حقيقيًّا. لقد أُثير فيه شعور بالانزعاج كأنه محاصر في دائرة من الشائعات، يشعر كأنّه أسير بفعل لا يريده، أسير سمعة لا دخل له بها، أسير نظرات يهرب منها. تساءل في نفسه: لمَ هو؟ ما السبب الذي جعلهم يختاروه؟ وما الدافع وراء ذلك الظلم؟ وكيف يستطيع أن يقاتل عدوًّا خفيًّا؟ هل هو عدو واحد أم أكثر؟ كلّ تلك التساؤلات كانت بلا جدوى، فالأعداء كثر، والضحيّة واحدة.

استمع "النحيف" لكلامه بسرعة ثم ذهب، ومن هنا بدأ يبتعد عنه شيئًا فشيئًا. حتى أولئك المقرّبون منه بدؤوا ينفضون عنه كأنهم يتجنّبون عدوى الشائعات، أولًا "الكاذب"، ثم "المغرور الشهواني"، تلاهما صديقه "الاستغلال المتغابي". أما "المتردّد"، فلا عتب عليه، ظلّ ينتظر الأمر من "المغرور الشهواني" ليبتعد. وفيما يخصّ "ضعيف الشخصية"، فقد كان في عالم موازٍ، يختفي دهرًا ويظهر ليلةً.

لكن من ظلّ ثابتًا هما الأخوان "صاحب الابتسامة البريئة" وأخوه الغائب الحاضر "البشوش". لم يمضِ شهر واحد على تلك الأحداث التي مرّ بها، حتى بدأ يشعر وكأن حدثًا أكبر ينتظره، كأن كابوسًا يتشكل في الأفق.

ثابر على عمله في ذلك المركز، وفي وقت لم يكن يلتقي فيه بـــ "النحيف". استمر الوضع على حاله، حتى بدأ يلتقي "النحيف" في المركز، حيث طلب منه أن ينتقل مع طلابه إلى غرفة أخرى، بحجّة أنه بحاجة إلى الغرفة التي هو فيها، وأن الأولويّة لطلّابه. قالها أمام جميع الطلاب، مما جعله يشعر بالإهانة، لكنه لم يردّ عليه، احترامًا للعشرة ولفارق السن بينهما.

كانت تلك اللحظة تعكس كيف كان يشعر بأن الجميع يتخلّى عنه، كأنه ينزلق في هوّة مظلمة لا مخرج منها، بينما أصدقاؤه السابقون يتباعدون كالأشباح، تاركينه وحيدًا في مواجهة شعور الخذلان والألم.

الجدير بالذكر أن وقتها كانت ابنة أخيه تلميذة عنده، وكان يعاملها معاملة استثنائية لأنها ابنة أخ صديق غالٍ عليه. بعد يومين من ذلك الموقف وانتقاله إلى غرفة أخرى، بدأ حصّته، وكانت ابنة أخيه متأخّرة. كان بحاجة لقلم ليكتب به، فطلب منها بكلّ طيبة خاطر أن تحضر له واحدًا من الغرفة التي فيها عمها.

فجأة، بعد دقيقة واحدة، وإذا بذلك "النحيف" يصعد إلى الغرفة ويقوم برمي القلم عليه، ما صدمه وتركه في حيرة من أمره. استجمع قواه وأكمل الدرس بشكل عادي، لكن في منتصف الليل من اليوم نفسه، وصلت له رسالة من ذلك "النحيف"، جاء فيها: "أنا أعرفك جيّدًا، وأعرف أن تصرّفك بإرسال ابنة أخي لي هو بدافع أن تردّ لي ما فعلته معك عندما طلبت منك الانتقال إلى غرفة أخرى. نصيحة مني لك: دعنا نظل أصدقاء من بعيد، وألا ندخل في هذا النزاع لمصلحتك فقط".

قرأ الرسالة وضحك في داخله، ثم رد عليه بجملة واحدة فقط: "إذا كنت قد حلّلت وتوصّلت إلى هذا، فأنت على حق، فكر كما تريد."

ولكن، ماذا حدث لذلك البرود الذي أصابه فجأة؟ كان "النحيف" من أكثر الناس الذين يخاف أن يخسرهم، وكان بمثابة الأخ له. ما الذي يجعله لا يتمسّك به هكذا؟ هل هي كثرة الصفعات التي تلقاها؟ أم أن هناك قوى عظمى قد تشبّثت به، لتجعله باردًا أمام كلّ من لا يفهمه أو يتعمد أن يفهمه بشكل خاطئ؟

أطفأ هاتفه بعد أن قرأ اقتباسًا لدوستويفسكي يقول فيه: "أغلب الصدمات سببها انبهار البدايات، فلا تنبهر حتى تثق، ولا تثق حتى تجرّب." كان ذلك الاقتباس يعكس حالته تمامًا، حيث لم يجد تفسيرًا لأي شيء سوى تلك العبارة "لا شيء يذكر."

كانت كلماته تتردّد في قلبه كصدى حزين، تذكّره بأن الصدمات تجعله يتراجع إلى زوايا الوحدة، محاصرًا بأفكار الرفض والخذلان، كأنه يسير في عتمة، يفتقد الأمل في أن تعود الأيام الجميلة مرّة أخرى.

بعد مرور يومين على ما حصل بينه وبين ذلك "النحيف"، قرّر أن يذهب إلى المقهى الذي اعتاد أن يجلس فيه مع مجموعته، ولكن تلك المرّة كان برفقة "صاحب الابتسامة البريئة" فقط. جلسا معًا وتناقشا في العديد من المواضيع، وكان ذلك الشخص الوحيد الذي يفهمه ويخفف عنه، ولم يتغيّر عليه كما بدأ أولئك بالتغير.

بينما كان جالسًا مع صديقه، وصلته رسالة من شخص يعرفه معرفة سطحيّة، كان من إحدى معارف "صديق المواقف الجادة" الذي كان يسانده في أسوأ لحظاته دون أن يتغير عليه بتاتًا.

كانت الرسالة تدعوه للاجتماع من أجل احتساء القهوة والتحدث في موضوع هام. تذكّر أنه قد اتصل به قبل أسبوع ليستفسر منه عن مواضيع علميّة، لكنه لم يأخذ في اعتباره أن له غاية وسخة.

حاول التهرّب، فقال له إنه مشغول، لكنه أصرّ على أن اللقاء لن يتجاوز نصف ساعة. لم يأخذ الموضوع من زاوية بشعة، رغم كلّ الظروف التي مرّ بها، لكن أصله ظلّ طيّبًا، فهو لم يفهم الآخرين على المنحى السيئ، رغم أن ظروفه كانت مبهمة للآخرين إلى حد ما. كان عمقه اللامتناهي ينسجم مع طيبته، التي قد تكسر داخليّته بتصرفات بلهاء أيضًا.

لبّى الدعوة وهو يسير، كأنه يمشي خطوةً إلى الأمام وعشرة إلى الخلف، ممّا جعله يشعر بحالة من التردّد والقلق. لماذا يشعر هكذا؟ هل بدأ حدسه يهمس له بلغة خرساء؟ أم أن ثقته بالجميع بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا، كظلال تتلاشى مع شروق الشمس؟ كانت كلّ خطوة يخطوها تحمل في طيّاتها وزن الأيام الثقيلة، وكأن الأرض تحت قدميه تضيق عليه.

بعد أن أوصل "صاحب الابتسامة البريئة" إلى منتصف الطريق، تابع هو طريقه نحو ذلك "الدجّال" الذي كان نحيفًا جدًا، في أواخر العشرينيات من عمره، ذا شعر أسود وبشرة بيضاء، وابتسامة تكشف عن أسنان صفراء اللون. عندما وصل إلى المكان الذي طُلب منه القدوم إليه، وجد نفسه أمام مقهى يبدو مشبوهًا، حيث كان مرتادوه من الشباب الذين يتحدثون بلهجات أجنبية، حتى أنّه لم يتمّكن من التمييز بينهم وبين النساء، بالإضافة إلى شابات يرتدين ملابس فيبدون شبه عاريات.

طرح على نفسه سؤالًا: "ما هو هذا المكان؟ هل يعقل أن يتواجد مثل هذا المكان في منطقتي؟ ولماذا هو مخفي هكذا بعيدٌ عن أعين العامة؟" كان المقهى يتألف من طابقين وسطح صغير يجلس فيه من يشاء، كأنه ملاذ للغافلين عن القيم والأخلاق.

سمع صوتًا يناديه: "أنا هنا، اصعد." رفع رأسه نحو الصوت، فإذا بذلك "الدجّال" يلوّح بيده، جالسًا على السطح. دخل المقهى، متقدمًا بين حشود من الجالسين، وكأنه قطرة ماء نقيّة تلوثت بعد اختلاطها بمياه صرف صحي.

صعد بعد عناء إلى سطح المقهى، وعندما وصل، وجد شابين جالسين قرب مدخل السطح، بينما كان "الدجّال" جالسًا في زاوية مظلمة على أريكة. كان الضوء خافتًا جدًا، أشبه بوميض يوشك على الانطفاء. ألقى عليه السلام، وبادل "الدجّال" التحية، ثم بدأ حديثهما. سأل "الدجّال" عن أحواله، وعائلته، وعمله، كأي حديث عابر بين شابين يلتقيان.

ثم بدأ يسأله عن أقاربه في المنطقة وأسمائهم، ليؤكد إن كانوا من عائلته أم لا. استغرب من طريقة أسئلته، ومن سبب طرحها، لكنه بدأ يشعر بأن هناك أمرًا غريبًا سيحدث، وأن ذلك "الدجّال" لديه غاية، كما كان الحال مع الذين سبقوه. تساءل في نفسه: "أيُعقل ذلك؟ لكن لا يوجد بيننا أي صلة! ماذا يريد؟" بدأت المشاعر تتراكم في داخله، إحساس بالتعب والاشمئزاز من تكرار الموضوع نفسه الذي يرافقه منذ فترة. تعب من التبرير لنفسه، وكأنّ الجميع يردّونه بالقوة إلى ماضيه المظلم، يلاحقونه بنظراتهم واستفساراتهم الغامضة.

كان ذاك "الدجّال" يتحدّث وهو يومئ برأسه وكأنّه يوافق، لكنه بدا شاردًا، كأن كلمات الحديث تتلاشى في عوالمه الغامضة. أراد أن يكمل الحديث معه، ليكتشف إلى أين يريد أن يصل. تجرأ "الدجّال" بسؤاله: "منذ متى وأنت هكذا؟" بعد ذلك السؤال، أدرك أنه هنا من أجل الغاية نفسها، وأن ذاك "الدجّال" لم يكلّمه قبل يومين للاستفسار عن شيء، بل كان يستدرجه ليلقي به في دوامة جديدة من الاستجوابات.

قرّر تلك المرّة أن يضع النقاط على الحروف، وكأنه يقول: "مصرّون على جعلي هكذا، وليكن لهم ذلك، فقط اتركوني وشأني." نظر إليه وقال في هدوء ممزوج بالحزن: "منذ زمن طويل."

نظر "الدجّال" إليه ورفع حاجبيه بدهشة، ثم قال: "إذن أنت الذي كنت تكلّمني من حسابات وهميّة!" وبدأ يذكر أسماء حسابات وهمية بأسماء أجنبيّة وعربيّة. نظر إليه بقرف شديد، وأكمل الإيماء برأسه كأنه يقول له: "نعم لك ذلك، اتركني وشأني".

استمر "الدجّال" بأسئلته، قائلاً: "مشاعر تجاه أولاد جنسك أم الجنسين؟" استغرب من ذلك السؤال، وكأنّ الحديث يجري بثقة زائفة، وكأنه عازم على فهمه "لمَ؟" وليس "هل؟"، والفرق بين الاثنين شاسع جدًا.

أسرع بالرد عليه: "الاثنان معًا." لم يعرف لماذا أجابه هكذا، لكن بدا له أن "الدجّال" وغيره مصمّمون على جعله شاذًا بل ومستمتعًا بذلك. أراد أن يخفّف من وطأة ضغطهم عليه بإجابة قد تكون لصالحه، لا أن تدمّره.

ردّ "الدجّال": "إذن الحدث الذي أصابك مع ذلك الشاب، كنت أنت المسؤول وكنت أنت من يكلّمه من حسابات وهميّة؟" فكر في قوله ليتذكر أنه يقصد ذاك "الثور"، وتساءل: "لماذا يسأل عنه؟ وما علاقته بقصته؟ هل هم المسؤولون عن لقائه مع هذا "الدجّال؟"

أجابه بحدة: "طبعًا لا، لا علاقة لي بأمره وبقصصه، الموضوع انتهى وهو أدرك أنه مخطئ، ولكن لماذا تسأل؟ إلى أين تريد أن تصل؟"

اقترب منه هامسًا: "ألا تخجل من قول هذا الكلام، وأن ترى ما يحدث من سفك للدماء في غزّة؟ ألا تأخذ نفسك لتتقرّب من ربّك؟"

التفت إليه بعيون صادمة، وكأن عينيه تتحدّث لتقول: "من أنت؟ هل أنت الذي يجزم بأنني هكذا دون أن تتأكد؟ هل تبدي لي نصائح ساذجة لا علاقة لك بها من قريب أو بعيد؟ يستفزّك مشهد سفك الدماء في غزّة بعد السابع من تشرين الأوّل/أكتوبر، وأنت وغيرك تمثّلون دور العدو نفسه عليّ؟ ترون أنه يحق لكم أن تحاضروا بالعفّة وتقدّموا النصائح للآخرين بالتقرّب إلى الدين، بينما تخجلون من الاعتراف بالعيوب التي تصدر منكم، بسبب رائحة الإثم التي تفوح منكم؟ بالطبع، لا يوجد جواب، فالأفضل في هذا الموقف هو القول: إن لم تستحِ، فافعل ما شئت." ظلّ صامتًا لبرهة من الزمن، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وردّ عليه قائلاً: "قل لي، ماذا تريد؟"

وقف "الدّجال" من مكانه وقال: "انتهى كلامي، والآن يجب أن أفعل ما عليّ فعله." شدّ يديه على بعضهما، واقترب منه.

أسرع بالقول: "إذا كنت تريد القتال، لك ذلك، لكن ليس هنا، ليس أمام الناس." لم يرغب في تكرار مشهد القتال أمام الناس مرّة أخرى، في مكانين مختلفين في منطقته نفسها، مسقط رأسه. كان يخشى من أن يتحدّث الكثيرون، وأن تُرمى شائعات جديدة، فليس خوفه على نفسه، بل خوفه على من حوله ألا يخسر أكثر.

انقضّ عليه "الدجّال" وبدأ القتال، وتجمهر الناس من حولهما، ليبعدوهما عن بعضهما البعض. صرخ "الدجّال": "قمت بتسجيل كلّ المحادثة بيننا، وسترى ماذا سيحدث." رد عليه: "افعل ما تشاء، لم أقل غير الحق، والذي يدركه الجميع عني." في تلك اللحظة، كانت الأقدار تتلاعب بخيوط مصيرهما، تاركةً خلفها شبح ألم لن يزول.

عاد إلى المنزل ركضًا، حاملاً على كتفيه ثقل الألم من تلك اللحظة المفجعة، عابثًا بحياته، مكتئبًا مما حدث له، مشمئزًا من كلّ الذين حوله، وكأنّه في صراع مع عدوٍ خفيّ لا يعرفه، يظهر له بين الحين والآخر، ويذكّره بكلمات لا معنًى لها، بعد أربع سنوات من المعاناة. أربع سنوات... ما هويّة تلك الأربع سنوات؟ أربع سنوات مضت، ولم تتقدّم خطوة واحدة، منذ وقت ابن عمّه "الشيطان"، وها هي المأساة تتكرّر من جديد. إنه لأمر غريب أن يتكرّر الأمر بنفس العبارات والقصص، بلا جدوى سوى الخراب الذي يحصد كلّ ما حوله.

عاد إلى المنزل مكسور الخاطر، رأسه مائلٌ وكأنه يود أن يحفر الأرض ليطمر نفسه فيها. جلس على السرير، وعيناه غارقتان بالدموع. دموع بلا عنوان، تنهمر دون رحمة، لا يعرف لمَ تتساقط، وما سببها، ومن أجل ماذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبه ليكون ضحيّة لذلك العناء؟ لا إجابة لأسئلة مبهمة تدور في ذهنه، وكأنها أشبه بألغاز ميتافيزيقية لا تنتهي.

وإذا بهاتفه يرن، أمسكه بيدين مرتعشتين، عيناه لا تتوقفان عن ذرف الدموع، وظهر "الدجّال" على الشاشة يتّصل به بكلّ وقاحة. استجمع قواه، وردّ على الاتصال بصوت متهدج: "ما بك؟ ما الذي تريده منّي؟" فردّ عليه "الدجّال": "لن أتوقف عن فعل هذا إلا لتتوب. سأجعلك تعيش بجحيم القلق لتبتعد عن هذه الأفعال، وأي شخص سيكلّمني من حسابات وهميّة سأقول إنه أنت".

قاطعه بنبرة مستاءة: "تتحدث بكلّ وقاحة وكأنك تجيد الحديث عن التوبة والدين. هل تصرّفاتك تعكس صورة شخص ملتزم؟ ارحل، دعني وشأني." أغلق الاتصال في وجهه، وجلس على طرف السرير، يغمره القلق من كلّ ما حدث.

أمسك هاتفه واتصل بصديقه "صاحب الابتسامة البريئة"، عازمًا على إطلاعه على ما حصل معه. كان يعلم أنه سيفهمه، فهو الوحيد الذي تحمّله وقبله كما هو. بدأ يروي له الحادثة، وكأنّه محاصر بصخرة ضخمة تعيق تنفسه، تضغط عليه كما ينكش المزارع الأرض. كان يعلم أن "صاحب الابتسامة البريئة" لا يعرف كيف يواسي أو يقدم النصائح كما يجب، لكنه يحتاج فقط إلى من يسمعه، لأنه يعلم أنه لا توجد حلول لمشاكله.

أنهى الاتصال، ثم اتصل بصديقه القديم، الذي يعرفه منذ عام ٢٠١٥، ذاك الصديق التونسي الفلسطيني، ذي الشعر الأسود المجعّد، والبشرة البيضاء، طويل القامة، ذي عيون تحمل مشاعر عميقة. مركز أسراره حيث كان يشاركه الكثير من تفاصيل الحياة، ويتبادلان الذوق الرفيع في العديد من الأمور. رغم عدم تكرار اللقاءات، كانت صداقتهما متينة، كأنّهما روح واحدة.

بدأ يخبره بالحادثة، عارفًا أنه يفهم كلّ ما مرّ به. نصحه بأن يترك مسقط رأسه، وأن يبتعد عن تلك البيئة السلبيّة. كانت كلماته تعيد إلى الأذهان مقولة دوستويفسكي: "لا يمكنك أن تشفى في البيئة نفسها التي جعلتك مريضًا، غادر." لكن هو كان يختلف، حيث كان يرى أن مغادرته ستثبت التهمة عليه، وكان يرفض ذلك بشدّة.

أصرّ على البقاء ومواجهة الموقف، وكأنّه ينادي مقولة جلال الدين الرومي: "هروبك ممّا يؤلمك سيؤلمك أكثر، لا تهرب، تألّم حتى تشفى." لكن جوابه كان منطقيًّا، مشيرًا إلى أنه فكّر في الأمر، ولكن إذا غادر فسيثبت لهم أنهم محقون. لماذا يُجبر على الابتعاد عن أصدقائه وعائلته بسبب أفعال لم يقم بها، ولماذا يصرّون على تدمير سعادته؟

ها قد أتى اليوم التالي، وغرقت الشمس في الأفق، معلنة حلول المساء الحزين. طرق "صاحب الابتسامة البريئة" باب منزله كما اعتاد أن يفعل، ليطمئن عليه في ذلك الروتين اليومي الذي كان يواسي به صديقه الغارق في بحر الألم.

لم تمضِ ساعة حتى جاءت رسالة إلكترونية من "النحيف"، وصلت بطريقة غير مألوفة، دون تحية أو مقدمة، عارية من أي مشاعر. كانت رسالته الأولى باردة، تحمل فقط المعنى المراد إيصاله: "مساء الخير، سمعت أنك تعرضت لحادث في مقهى. أريد أن أعرف ما جرى حفاظًا على سمعة المركز".

رفع عينيه إلى "صاحب الابتسامة البريئة" بنظرة تعجّب، ثم قال: "انظر أستاذك ماذا أرسل لي." قرأ صديقه الرسالة وابتسم بتنهيدة، قائلاً: "دعك منه، ردّ عليه بما يليق، ثم اتركه".

جمع قواه ورد على "النحيف" قائلاً: "نعم، تعرّضت لواقعة مشابهة لما مررت به سابقًا، وأنت تعرفها جيدًا. ولكن هل تراسلني لتطمئن عليّ أم فقط لأجل سمعة المركز؟ ألم يكن من الأفضل أن تسأل عن حالي أولًا، ثم تتحدّث عن العمل؟"

لم يتأخر "النحيف" في الرد، وكأنّه كان ينتظر تلك الكلمات ببرود ليجيب قائلاً: "لو كنت تعتبرنا عائلة، أنا وصاحب المركز، لكنت أخبرتنا فورًا بما حدث دون أن نسمع من غيرك".

أسرع في الرد بنبرة ممزوجة بالمرارة: "من الطبيعي أن يبادر من سمع بأن شخصًا قريبًا منه قد تعرض لحادث بالاتصال للاطمئنان عليه. لقد كنت في حالة سيئة بعد الحادث، ولم أكن في وعيي لأتّصل بك أو أخبرك بأي شيء".

لكن الرد الذي جاء من "النحيف" كان قاسيًا، كأنّه كان يرغب في إنهاء تلك العلاقة منذ البداية: "على كلّ حال، ذاك الشاب الذي تعرّضت للحادث معه كان تلميذي سابقًا، رغم فارق السن بيننا. لقد أخبرني بكلّ شيء، حتى أسمعني الرسائل الصوتية. لا تتعب نفسك بالتبرير، فليس هناك جدوى. أريد أن أقول لك فقط، إن ذاك الشاب لطيف ويستر على الناس، لكن عليك أن تكون حذرًا أكثر في المرّات القادمة، وتبتعد عن هذه التصرفات".

نظر إلى "صاحب الابتسامة البريئة" بنظرة مليئة بالحزن والتساؤل، وصديقه يبادله نظرة مستغربة ممّا كان يحدث. لم ينتظر كثيرًا، بل أسرع في الرد على "النحيف" قائلاً: "إذا كنت ترى الأمور هكذا، فلك ذلك. لا أريد أن أبرّر أكثر، فكلّ شخص يعرف نفسه جيّدًا. أشكرك على كلّ شيء قدّمته لي، كانت تجربة جميلة بيننا. تصبح على خير".

التفت إلى "صاحب الابتسامة البريئة" بعد لحظات من الصمت، وقال بصوت متهدج يغمره الألم: "لا تعاتب من انكسرت قيمتك في عينيه، فالعتاب لا يليق بمن جعل من جرحك حقًا مستباحًا".

بعد أقل من شهر، قرّر "صاحب الابتسامة البريئة" أن يجمع بينه وبين أصدقائه لقضاء ليلة في منزل صديقه في قرية صغيرة شمال جبال لبنان. كان ذلك اليوم يصادف يوم مولده، وكان في غاية السعادة لأنه سيشارك تلك المناسبة مع صديقه المقرّب وأصدقاء آخرين طيّبي القلوب.

في تلك الأثناء، كانت علاقته مع "الكاذب"، و"المتردد"، و"المغرور الشهواني"، و"الاستغلالي المتغابي" شبه معدومة. ولو أراد أن يتحدّث بالتفصيل، لقال إن علاقته مع "المتردد" و"المغرور الشهواني" كانت سطحيّة، أشبه بعلاقة تعارف تمت قبل يومين. أما مع "الكاذب"

و"الاستغلالي المتغابي"، فقد انعدمت العلاقة تمامًا، بسبب كراهيّته العميقة للكذب وللاستغباء. إذ في نظره، معظم البشر يبنون علاقاتهم على هذين الركنين الأساسيين، رغم إدراكهم التام لعبثية الأمر، ولكنهم يستمرون في التمثيل المتبادل تحت شعار "العيش المشترك".

انتهت علاقته مع "الكاذب" بسبب كذبه المستمر، ومع "الاستغلالي المتغابي" بسبب استغلاله وابتعاده دون سبب، رغم إنكاره المتكرّر للأمر وكأن شيئًا لم يكن بينهما. كان هناك "أمانة" متّفق عليها بينهما، كان من المفترض أن يوصلها "الاستغلالي المتغابي" في الأول من شهر كانون الأول/ديسمبر، أي بعد أسبوع تقريبًا من تلك الليلة التي قضاها برفقة "صاحب الابتسامة البريئة". وفي تمام الساعة التاسعة مساءً، تلقى اتصالاً من "الاستغلالي المتغابي". ابتسم ابتسامة ممزوجة بالدهشة، وتحدث إلى نفسه قائلاً: "يا له من قلب طيب، يتصل ليهنّئني في عيد ميلادي؟"

حمل هاتفه من على الأريكة بينما كان أصدقاؤه في المطبخ يجهّزون العشاء. وضع الهاتف على أذنه قائلاً: "مساء الخير". ولم تمضِ ثانية واحدة حتى انهالت عليه الكلمات البذيئة والشتائم والإهانات التي تهتزّ لها الآذان، وتقشعر لها الأبدان. وقف صامتًا مذهولًا مما سمع، ثم قاطعه قائلاً: "لحظة، لحظة، مع من تتحدّث؟ ما الذي يجري؟" ليجيبه "الاستغلالي المتغابي" بنبرة مليئة بالغضب: "أنا لا أسمح لأحد أن يتحدث عنّي بسوء دون أن أرد. هل تفهم؟"

أغلق الهاتف في وجه "الاستغلالي المتغابي"، وأتى "صاحب الابتسامة البريئة" مسرعًا، ليطلب منه خفض صوته خوفًا من سماع الجيران. جلس على الأريكة، وضع يديه على وجهه والنار تلتهمه من الداخل،

عاجزًا عن فهم ما يحدث. نظر إلى "صاحب الابتسامة البريئة" وقال بصوت مكسور: "هل تلك الأمانة التي يفترض أن يعيدها تجعله يتصرّف بهذا الشكل ليتهرّب؟ أم أن هناك من أشعل نار الشائعات ليشوّه سمعتي أكثر؟ لا أعرف... لم أعد أثق بأحد، أصبحت أصدق كل شيء يحدث".

مرّت بعض الأيام، وأعاد "الاستغلالي المتغابي" تلك الأمانة بالقوّة، بعد جهدٍ جهيد، ثم تباعد عنه كلّ من "الكاذب" و"المتردد" و"المغرور الشهواني" و"الاستغلالي المتغابي" كأنّهم توضّؤوا بدمه وصلّوا مع غيره، غير مبالين بما فعلوا.

لقد باتت العلاقات مبنيّة على نهج المصلحة الملطّخة بإثم الرياء، فكان هو ضحيّة تلك العلاقات الزائفة، ضحيّة قطيع يمثّل على بعضه البعض، حيث دفع الثمن لخروجه عن قطيعهم. وجد نفسه يعضّ أصابعه ندمًا على كلّ ما قدّمه لهم، ولا يملك إلا أن يجلس في صمت ويقول: "توضّؤوا بدمي، وصلّوا مع غيري".

تذكّر حينها كلمات أحمد خالد توفيق حين قال: "سيعودون، بعد أن يعرفوك حقًا، ويدركوا قيمتك، وتبدي لهم الأيام من أنت، أنت الذي ترفّعت بصمت، وحفظت المودّة، ولم تنفجر بقبح الكلام والخصومة، وعاملتهم بنيل أخلاقك لا بدناءة أفعالهم، سيعودون." لكن الفرق هنا أنه لم يعد يهمّه أمرهم إن عادوا أم لا. أدرك أخيرًا أن النسخة الأخيرة التي رآها من الأشخاص عند نهاية علاقته بهم، كانت حقيقيّة منذ البداية.

لم تمرّ سوى بضعة أيام من تلك الأحداث المتتالية عليه، التي جعلته يشعر أن الخريف لم يكن فصلًا عابرًا، بل وجد نفسه كأرضٍ قاحلة،

ذبل منها كلّ من هم حوله، تخلّوا عنه وتركوه عاريًا أمام جراحه. بدأ يقتنع بفكرة أن الإنسان لا يمكن أن تكون علاقاته جيّدة مع الجميع، إلا إن كان مخادعًا أو متلاعبًا، أو ساذجًا. فالبشر، مهما بدوا مثاليين، لا مفرّ من شرّهم.

ظل يعيش هاجس القلق، محاصرًا بشعور الوحدة وانكسار الثقة، حتى أتى مساء الخامس والعشرين من شهر كانون الأول/ديسمبر، ذاك المساء المشؤوم الذي قصم ظهره وأطفأ النور في عينيه، وجعله يدرك تمامًا أن الخيبات أحيانًا تأتي متراكمة كعواصف الشتاء، لا تُبقي ولا تذر.

قبل فترة وجيزة من ذلك التاريخ، بدأ أحد الأشخاص الذي كان يراه في ذلك المقهى حيث تعرّض لحادثه الأول مع "الثور"، يتواصل معه بشكل متقطّع. كان شابًا في عمره نفسه، ومعرفتهما كانت سطحيّة للغاية، لكن بدا عليه رغبة في التقرب منه، مما أثار تساؤلاته: "لماذا يتحدث معي؟ هل توجد غاية خفية؟ أم أنه يحاول التعرّف إليّ بصدق؟"

رغم كلّ تلك الشكوك، لم يلاحظ في حديثه ما يبعث على الريبة، بدا كشخص عاديّ يرغب في تكوين علاقة جديدة.

"ألم تكن العلاقات سابقًا تبدأ بهذا الشكل العفوي قبل أن يتلوّث كلّ شيء في الزمن الحالي، حتى باتت هذه البدايات تبدو كأنها نوع من أنواع التحرّش العاطفي؟"

كان ذلك الشاب طويل القامة، أسمر البشرة، شعره خفيف جدًا، وأسنانه البيض التي كانت بلا شك مستعارة، أضفت على ابتسامته طابعًا مصطنعًا. كان يبدو شبيهًا بـ"السائق النجس"، لكنّه لم يأخذ الأمور بسوء

ظن، فقد اعتاد على حسن النيّة، والعطاء، والإحسان للآخرين. كان يرى الجميع بنظرة بريئة، ولا يصحو إلا بعد الضربة القاضية.

في مساء ذلك اليوم، راسله "السائق النجس" بأسلوب متكلّف. قال له بلهجة حملت في طياتها الغايات الخفيّة: "أريد أن أتعرّف إليك أكثر إن لم يكن لديك مانع."

تفاجأ من طلبه وقال: "ألم نتعرّف إلى بعضنا بالفعل؟" فردّ "السائق النجس": "أعلم ذلك، ولكن أريد أن نحتسي القهوة معًا ونتعرّف بشكل أعمق، فأنا أشعر بالاختناق من عملي ومن الأشخاص من حولي، وأرغب في التعرّف إلى أناس جدد يفهمونني".

لامست كلمات الشاب إحساسه، فقد مرّ هو أيضًا بتجارب مشابهة، لكنه كان متردّدًا، فأجاب بحذر: "شكرًا على كلامك، ولكن لماذا أنا تحديدًا؟ نحن بالكاد نعرف بعضنا معرفة سطحية." ردّ الآخر بكلّ راحة: "معك حق، ولكنّي سئمت من حياتي الحالية، وأريد تغييرها. وأنت شخص طيب وواضح إنّك إنسان محترم، وهذا ما أريده في حياتي." ثم أضاف: "يمكنك اختيار المكان، سواء كان المقهى نفسه أو سيارتي لنحتسي القهوة فيها معًا".

ظلّ ينظر إلى سقف غرفته، غارقًا في التفكير، حتى نظر إلى الساعة فإذا بها الرابعة وخمس وعشرين دقيقة. قرر أن يراسل "صاحب الابتسامة البريئة" ليسأله إن كان سيأتي كالمعتاد، ليجيبه بأنه لن يستطيع الحضور حتى الساعة السادسة. نظر إلى نافذة غرفته، حيث كان الطقس ملبّدًا بالغيوم، والهواء البارد يعصف في الخارج. نظر إلى هاتفه، حيث تلقى رسالة نصيّة من "السائق النجس" تحمل بداخلها علامة استفهام، في

انتظار رده. ردّ عليه قائلاً: "لا أعرف صراحةً، هل يمكننا تأجيلها ليوم آخر؟"
ردّ الآخر بإصرار: "أنا أريد أن أترك عملي لمدّة ساعة، أشعر بضيق شديد، وأحتاج إلى التحدّث. إذا كنت لا تستطيع الآن، يمكننا تأجيلها إلى الساعة السابعة، وأقدّر موقفك، القرار لك".
ظلّ ينظر إلى السقف مجدداً، وقال لنفسه: "لِمَ لا أذهب؟ يبدو أنه صادق. ليس كلّ الناس متشابهين كما كان الحال مع من كانوا حولي."
وبما أن "صاحب الابتسامة البريئة" سيأتي في الساعة السادسة، شعر أن لديه القليل من الوقت.
لم يخطر بباله لماذا ذلك الإصرار من ذلك الشخص على لقائه، إذ كان يعتقد أنّ كلّ ما في الأمر أن ذاك الشخص بحاجة إلى الحديث، إلى التنفيس عمّا في داخله. ومن لا يحتاج أحيانًا إلى من يستمع إليه، حتى وإن كان غريبًا؟ فما أكثرهم من يجدون أنفسهم يتعرّون أمام الغرباء بالحديث، ويرتاحون في البوح لهم أكثر مما يفعلون مع أقرب المقربين.
وافق على طلبه بشرط أن يلتقيا في السيارة، وألّا تتجاوز الجلسة نصف السّاعة. فرح ذاك "السائق النجس" بموافقته، واتفقا على اللقاء بالقرب من منزله على بُعد أمتارٍ قليلة.
عند وصوله للمكان المتفق عليه، وجد سيّارة بيضاء نظيفة، عازل الرؤية يحجب ما بداخلها عن أعين المارّة، ما أثار في نفسه القلق. دخل السيارة، رمى سلامه، وبادله ذاك "السائق النجس" السلام، وبدآ يتبادلان أطراف الحديث بهدوء. كان يقود السيّارة بهدوءٍ يبعث على

الريبة، وفجأة وجده يسلك طريقًا مغايرًا للطريق الأساسي المؤدي إلى وجهتهما، فسأله بقلق: "لماذا اخترت هذه الطريق؟"

أجابه: "أريد أن أشتري كوبين من القهوة من مكان محدّد أزوره دائمًا."

لم ينتهِ حديثه، حتى وصل إلى المفرق الذي تعرّض فيه للحادث الأول مع "الثور"، وما إن أوقف السيارة، حتى أحاط بها حوالي عشرين شابًا. فتح أحدهم الباب وانهالوا عليه بالضرب واللّكمات في كلّ أنحاء جسده، وهو يصرخ مذعورًا: "ما الأمر؟ ماذا تريدون مني؟ دعوني وشأني!" لم يتوقّفوا إلا بعدما كسروا هاتفه وأنفه معًا، ولم يفلتوه حتى تجمّع الناس وتدخّلوا لإنقاذه من أيديهم الملطّخة بالإثم.

خرج من السيارة عاجزًا عن الرؤية من شدة الألم والدماء التي غطّت وجهه كالعَرَق، وبدأ يركض في الشوارع، خائفًا أن يراه أحد على تلك الحال. خطواته كانت غير متّزنة، وأنفه ينزف، يمشي كسيرًا، محطّمًا، فاقدًا للثقة بكلّ شيء. جرّته قدماه إلى منزل "صديق المواقف الجادة"، الشخص الوحيد الذي يدرك أحواله ويعرفه جيدًا، وخصوصًا أن عائلته كانت تعرفه وتتفهّم حاله.

وصل إلى المنزل، ولم يجد سوى والدي صديقه، فهرعا نحوه بلهفةٍ عندما رأياه في تلك الحالة، وأسنداه واتصلا بابنهما ليخبراه بما حدث. وصل صديقه بأقصى سرعة كالمجنون، وأخذه مباشرة إلى المستشفى لتلقّي الإسعافات الأوليّة، إذ كان أنفه ينزف بلا توقف. لكن لم تقبل أي مستشفى إدخاله قبل دفع المبلغ المطلوب، فالأسعار كانت باهظة، وكأنّهم سيجرون له عملية جراحية معقّدة. ذلك هي حال الناس في تلك الأيام، لا عين ترى ولا أذن تسمع، وكأنّ الإنسانيّة انعدمت.

لجأ صديقه إلى عيادة طبيب كبير في السن، لكنه ماهر وذو قلب رحيم. قام الطبيب بإسعافه وتقطيب أنفه الذي تهشّم، وطلب صورة أشعّة للتأكّد من الكسر.

وفي طريق العودة إلى المنزل، نصحه صديقه بتقديم شكوى ضد المعتدين، وقال: "عندما اتصل أبي ليخبرني بما حدث معك، اتصلت بأحد معارفي في تلك المنطقة، وقد أخبرني أن بعض الناس يتحدّثون عنك بأنك كنت بصحبة ذاك الشاب لقضاء حاجة مشبوهة".

ظلّ صامتًا طوال الطريق، وكأن لسانه قد شُلّ من هول ما سمع. هل أصيب بالصدمة؟ أم أنه اعتاد على ذلك التشكيك والقهر؟

عندما وصلا، التفت إلى صديقه ونظر إليه بعينين غارقتين بالدموع، وقال بصوتٍ متهدّج: "أنت تثق بي، أليس كذلك؟ أنت تعلم أنني لم ولن أقوم بمثل هذا العمل".

نظر إليه صديقه بحنان وقال: "بيننا مواقف عديدة، ولو كنت أشكّ بك حتى بأقلّ قدر، لما وجدتني هنا الآن. لقد تربّينا على الوفاء، وأنا معك دائمًا".

بعد أن غمر صديقه، "صديق المواقف الجادة"، صعد إلى منزله بخطوات ثقيلة. كان والداه يتناولان العشاء، ما إن رأت والدته حالته، حتّى صرخت بصدمة: "ما بك، ما الذي حصل معك؟" فردّ عليها بصوت منخفض ومهزوم: "كالعادة، كما يحدث دائمًا." ليبدأ والده بالصراخ والشتائم، وكأن تلك هي اللّغة الوحيدة التي يعرفها للتعبير عن قلقه وحنقه على ابنه.

أخذه والده إلى المخفر ليشتكي على من قاموا بذلك الفعل الشنيع، وأثناء الطريق، رنّ هاتف والده، فتوقّف بعيدًا عنه ليرد على المكالمة.

بعد إنهاء المكالمة، عاد والده ليخبره ببرود أن يبقى في مكانه وألّا يتحرك حتى يعود.

انتظر طويلًا، أكثر من عشرين دقيقة، ليقوده قلقه وخوفه إلى التقدم بضع خطوات، حتى شاهد والده يتحدث مع بعض الشبان. اقترب بحذر، ليجد والده يقف مع ذاك "الثور" ورفيق له، أحد أولئك الأنجاس الذين هاجموه سابقًا. كان الرجل أصلع، متوسّط الطول، يبثّ من وجهه الكراهية، وكأنّه "عقرب سام".

عرض "العقرب السام" هاتفه، وأظهر محادثة على إحدى وسائل التواصل الاجتماعي، بين شخصين، يدور فيها حديث فاضح عن شهوات دنيئة، ثم أضاف بنبرة لئيمة: "انظر ماذا كان يريد ابنك مني." ليردّ والده متسائلًا بحدة: "أين اسم ابني هنا؟" فبادره الآخر سريعًا: "ابنك كلمني من حساب وهمي ثم مسحه".

توجّه إليه بنظرة ثابتة بعد أن وقف بينهم، وقال بصوت واثق: "حسنًا، لنفترض أنّ كلامك صحيح وأنا من كنت أراسلك، كيف عرفت أنا بتفاصيل جسدك لأصفها بثقة كهذه؟" أربك ذلك السؤال "العقرب السام"، ليطلب من فوره إرسال الهاتف للتحقيق، والتحقّق من الحقيقة.

صرخ هو بغضب مكبوت: "هاتفك أنت وذاك 'السائق النجس' قبل هاتفي، إن كنتم تتّهمونني، فمن حقي اتهامكم! اتركوني وشأني، لم أعد أحتمل!"

لم تمضِ دقائق حتى تجمّع حوله عدد من الغرباء، وبدأت تترى أقاويلهم الفارغة التي تحمل إدانةً غير مبرّرة، وكلمات مستفزّة تفيض بالشماتة والشفقة. كانوا يبدون وكأنهم يشفقون على والده، لا عليه، بكلماتهم المنمّقة مثل: "ما يهمنا هو سمعة والده، فوالده رجل شهم ذو

أخلاق عالية." كانت كلماتهم تترك أثرًا كالطعنة في قلبه، وهم يمارسون عليه لعبة الاستفزاز البارعة.
وسط كلّ ذلك، نظر إلى والده، فإذا به يقطع ثرثرتهم بقوله الحاسم: "لكنّه ابني، ويبقى ابني مهما حدث!" شعر كأن حبل نجاة أُلقي له في بحرٍ من الظلام والخوف، وبدأ يجمع شتات قواه، ليقول بحزم: "أنتم الذين تتحدثون بهذه الثقة، هذا والدي، كرامته وقيمته هي من كرامتي، لا تزايدوا عليّ بخوفكم عليه أكثر منّي. كفى! تعبت من هذه التهم التي تطاردني منذ ست سنوات. لو كنت فعلت ما تتهمونني به، لما كنت أفعله هنا بين أهلي وناسي. لا تلعبوا دور الأنقياء الشرفاء، فالجميع يخفي وراءه عيوبًا بقدر الجبال، ولا أحد يمكنه أن يثبت شرفه على حساب كرامتي. ماذا تريدون مني؟"
لم يعرف كيف خرجت منه تلك الكلمات، وكيف تحوّل من شخص صامت إلى بركان هائج، ولكن ما كان يعرفه أنّه في لحظة ما، قد تتحوّل حياة الإنسان رأسًا على عقب. ورغم تلك الكلمات، ظلّ الآخرون يستمرّون في حديثهم، وكأنهم يتلذّذون بتكرار الاتهامات السابقة.
في تلك اللحظة، تذكّر مقولة مصطفى محمود: "ويأتي على أهل الحق لحظة يظنّون فيها أنهم مجانين من فرط الوقاحة والثقة التي يتحدث بها أهل الباطل." كان النقاش يدور حول الحسابات الوهميّة، وأنّه يراسل العديد من الأشخاص بها منذ أربع سنوات، تلك السنوات الأربع الثابتة التي لا تتغيّر.

وفي النهاية، وبعد أن استعطفوا والده وتكفّلوا بتكاليف العلاج وشراء هاتف جديد، حُلّت المشكلة ظاهريًّا. ولكن الثمن الحقيقي دفعه هو، وحده، في معركة لم يخترها، وبجروح لن تندمل.
في زمنٍ باتت فيه وسائل التواصل الاجتماعي سلاحًا بأيدٍ غير مسؤولة، أضحت أداةً تمكّن ضعاف النفوس ومجرّدي الأخلاق من إيذاء الآخرين من وراء ستارٍ من الأسماء المزيّفة والأقنعة الخادعة. كانت غيرةٌ قاتلة وكراهيةٌ بلا حدود قد أحرقت حياة شابٍّ بسيط، يطمح فقط للعيش كباقي البشر، دون ذنبٍ سوى أنه كان هدفًا لأحقادٍ متراكمة. يتساءل: "كيف لضغطة زرٍ واحدةً أن تدمّر حياة شاب عادي مثلي؟ لو كانت الهويّات موثّقة في الحسابات لربما كانت حياتي أقل قسوة، لكن صغار العقول والشياطين كان لهم رأيٌ آخر".
في اليوم التالي، بدأ هاتفه يرنّ من أرقام غريبة، وكان يرفض دائمًا الرد على مثل تلك الأرقام، حتى لاحظ أن الشخص المتصل كان من معارف ذاك "الدجّال." ازداد الأمر سوءاً حين استمر ذاك "الدجّال" في الاتصال مرارًا وتكرارًا، يومين كاملين. تساءل بحرقة: "ماذا يريد هذا الوقح؟ وكيف يمتلك كلّ هذا الجبروت؟"
وفي مساءٍ لاحق، كان جالسًا في غرفته يتحدّث مع والدته، عندما دخل والده مسرعًا، واقفًا قرب الباب، وقال له بجفاء: "أنت إما كاذب، أم كاذب." نزلت عليه كلمات والده كالصاعقة، فتساءل بحيرة: "ما بك يا أبي؟ لما أنا كاذب في كلّ الأحوال؟" ردّ عليه والده بنبرة جافة: "لقد حدثت معك قصة مشابهة من قبل ولم تخبرنا".
حينها حاول أن يشرح، قائلاً: "أين المشكلة؟ لم أكن أريد إشغالك بتلك القصّة التي انتهت بالفعل." لكن والده رد عليه بحزم: "بسبب تلك

القصة، حدث ما حدث الآن." وفي تلك اللحظة، أمسك والده الهاتف بيدٍ ترتجف، واتّصل بذلك "العقرب السام"، علّه يجد إجابة تبرير إنكار ابنه. طلب "العقرب السام" من والده أن يفتح مكبّر الصوت ليتحدث مباشرة، وكأنّه يودُّ أن يسمع الجميع ما في جعبته من كلمات قاتلة.
بدأ الكلام بصوتٍ هادئٍ ومليءٍ بالمكر: "أنا أعلم تمامًا ما حدث في تلك الواقعة في المقهى مع الشخص الذي تعرفه جيدًا وما وقع بينكما".
ردّ بنبرة مختلطة بالحزن والتحدي: "نعم أعرف، وما المشكلة في ذلك؟ ما حدث معي حدث معكم كما حدث معه، فماذا تريد أن تقول؟ هل تظن أن ما تفعله الآن يملّكني ذنبًا لا يغتفر؟"
ابتسم "العقرب السام" بخبث وقال: "كلا، الأمر ليس كذلك. لكنك تعلم جيدًا ما الذي يملكه هذا الشخص من أسرار وما يمكنه فعله. وربما لم تكن صريحًا مع أهلك بهذا الشأن".
تنهّد الابن بتعب وقال بصوت منكسر: "أنا أخبر أهلي بكلّ شيء، فلا داعي للمزايدات. إن كان لديك كلام تقوله، فلتقله وتنتهِ، واتركني في شأني".
ظلّ "العقرب السام" صامتًا، ثم قطع الاتصال في وجهه بيد مرتعشة، بينما الكلمات تدور في عقله كأشباحٍ تلاحقه، تزرع في روحه الألم والتساؤل عما إذا كان هناك مخرج من ذلك الكابوس الذي حاصر حياته.
وما إن أنهى الاتصال، حتى انهال عليه والده بالصراخ، مرددًا كلمات جارحة واتهاماتٍ باطلة، لكن ما سمعه الشاب وسط ضجيج الاتهامات كان اتهامًا صريحًا بالكذب واللعب على حبائل الخديعة. شعر أن كلّ

آماله في التفاهم مع والده تحطّمت، وكأنّ تلك الكلمات كانت سهمًا قاطعًا أتى على آخر خيوط الثقة بينهما.
انهار جسده تحت وطأة التعب النفسي، وكأنّ روحه قد أطفئت. شعر بضعفٍ مفاجئ في قدميه، وضغطٍ خانق على صدره، بينما امتلأت عيناه بالدموع. استلقى دون وعي، مستسلمًا لألحان العتاب واللوم، وهو يسأل نفسه إن كان هناك بصيص أملٍ يخرجه من تلك الظلمات المتراكمة.
استيقظ في اليوم التالي، ليبدأ صباحه بمحادثة مع "صاحب الابتسامة البريئة"، ذاك الصديق الذي كان يتواصل معه بشكل دائم، يحرص على السؤال عن أحواله بشكل متكرّر، وخاصة في صباح الثامن والعشرين من ذلك الشهر المشؤوم. سأله صديقه كعادته: "كيف حالك اليوم؟" ليجيبه بقلق: "أشعر أن هناك شيئًا سيئًا سيحدث لي اليوم." حاول صديقه بثّ الأمل في روحه وقال: "لا تقل هذا، إن الأمور الجميلة قادمة، تفاءل بالخير تجده".
لم تمرّ سوى دقيقتين، حتى تلقى رسالة تهديد على إحدى منصات التواصل الاجتماعي عند الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، رسالة مشحونة بالشتائم والتهديدات بالكشف عن فضائح تمسّه. لم يستطع عقله تحمل ذلك الضغط، فاتصل بوالده وأخبره باسم الشخص المهدد، ليتدخل والده فورًا في محاولة لحل الأزمة.
لم يكتفِ بذلك، بل تواصل مع "صديق الروح" وأخبره بكلّ ما جرى، فنصحه بإغلاق جميع منصات التواصل والابتعاد عنها لفترة ليست بالقصيرة، ليجد في البعد عنها راحة قد تنقذه من دائرة الألم التي يعيش فيها.

أخذ بنصيحته وقرّر أن يترك تلك الوسائل التي لم تجلب له سوى المآسي، لكنّه رغم ذلك لم يكن غافلًا عن معرفة الأخبار. فقد وصلته أنباء أن أولئك الذين كان على خلافٍ معهم، ومن بينهم "العقرب السام" و"السائق النجس" وحتى "الثور"، قد انفضح أحدهم ومن معه، ممن أنشؤوا حسابات وهميّة للتلاعب ببعضهم البعض في وقت فراغهم الممل.

وفي تلك الفترة المظلمة، اكتشف أن "الدجال" قد زوّر تسجيلهما الصوتي الذي دار بينهما، وحوّله من بضع دقائق إلى تسع عشرة دقيقة مليئة بالأكاذيب، بينما اللقاء الحقيقي بينهما لم يتعدَّ العشر دقائق. قام ذلك "الدجّال" بقصّ مقاطع صوتية من حديثهم وإضافة مقاطع أخرى لتبدو القصة متماسكة وواقعية، ليأخذ مبتغاه ويوقع ضحيته في فخّه المظلم. علم أيضًا أن كان له تاريخ في التزوير، سواء في المعاملات أو الهويات أو حتى جوازات السفر، ما جعله شخصًا مبتكرًا في طرقه لتحقيق مكاسبه الدنيئة.

لم يكن يرسل التسجيل لأحد، بل يطلب ممن يريد سماعه أن يدعوه إلى مقهى ليستمعوا إليه هناك. لم يكن هذا السلوك لأنه يرغب في توفير مشروب مجاني، ولا حتى لأنه يريد إخفاء ألاعيبه القذرة فحسب، بل لأنه يدرك تمامًا مدى هشاشة موقفه. كان يخشى أن يصبح التسجيل دليلًا ضده إذا تمّ توزيعه. فعندما يسمعه مئة شخص تحت رقابته، يبقى الأمر تحت سيطرته، لكن إذا انتشر التسجيل ووصل إلى آلاف الأشخاص، سيصبح الأمر خارج نطاق تحكمه، وهذا ما كان يخشاه بشدّة.

تلك الألاعيب لم تكن مجرد خداع بسيط، بل كانت انعكاسًا لعقل مريض يسعى بكلّ الوسائل لتدمير الآخرين، دون أن يترك أي أثر يدينه. كان يدرك أن أصل البلاء يعود إلى ذلك "الشيطان"، الذي جمع حوله العديد من الأشخاص وأنشأ حسابات وهميّة، ليتسلّوا ويسخروا من ابن عمه، فيطمئن الجميع من فعلتهم ويتجرؤون على فعل الشيء نفسه معه، حتى أصبح الجميع أعداءه. والشعور بالمرارة تضاعف من صمت والده في المرّة الأولى حين وقعت تلك الأحداث، ولم يمنع أقرباءه من التمادي في أفعالهم، ما دفع به إلى حافة اليأس.

لم يكن يخشى على نفسه بقدر ما كان يخشى على من يحبّ، خائفًا من أن يُنظر إليهم بسوء بسببه، أو أن يتحوّل إلى وصمة عار تلاحقهم. كيف له أن يتحمل شعور من ينفر الناس من حوله بسبب جرم لم يرتكبه؟

ذات ليلة، جلس على طرف سريره، نظر إلى يديه المتعبتين، وشعر كأن روحه توشك على الخروج. الغرفة التي يعيش فيها لم تعد منزلًا بل باتت سجنًا، فتحدث مع نفسه قائلًا: "أنا أعيش في وسط ألم لا ينتهي، الألم الذي جعلني أتغيّر من شخص عادي إلى شيء أكبر من ذلك بكثير. إن الحديث عن هذه الأمور لا يفيد إن لم أكن أعي ما أقول حقًا.

سيعرف أولئك الأوغاد وكلّ من ساهم في يأسي طعم الألم الحقيقي".

كانت تلك الأيام من أصعب أيام حياته، يذهب إلى عمله ويعود كالسارق الذي يختبئ في الظلام خشية أن يراه أحد. شعوره كان يشبه حال الأثرياء الذين فقدوا كلّ شيء بين ليلة وضحاها، فانقلب نهاره ليلًا وليله نهارًا، عالقًا في دائرة من اليأس والحزن.

كان يشعر وكأنه يعيش مزيجًا من المشاعر المتناقضة، وكأنّها دوّامة لا مخرج منها، مشاعر تشبه هاجس الألم الذي يبدأ من العائلة ويمتد

ليكون جرحًا لا يلتئم أبدًا، ذاك الشعور الذي يعرفه جيّدًا أولئك الذين كشفوا أقنعة من حولهم في لحظات الشّدّة وعند اقتراف أخطاء صغيرة وفي برود الود. إنه شعور الذين خُذلوا واكتشفوا أنهم في النهاية أصدقاء أنفسهم، إلا أنّ ما زاد ألمه هو أنه لم يشعر حتى بوجود نفسه إلى جانبه؛ فقد بات بعيدًا عنها أكثر ممّا يظن.

تلك الكلمات تلخّص واقعه بدقّة مؤلمة؛ فقد تجرّع مرارة الألم واليأس معًا، وكان يتمنى لو يستطيع الهروب من ذلك الشعور القاتل الذي يُحكم قبضته عليه. كان يعيش في دائرة غامضة تدور في مكانها بلا مخرج، وكأن الزمن متوقّف والفرح محاصر، ليبقى وحيدًا في عالمٍ خالٍ من البهجة.

تلكَ الفترة من حياته لم يكن يمرّ بنوبات عابرة من الاكتئاب، كان يمرّ بانطفاء تدريجي يسحب روحه ويهلك جسده، كان شعوره أشبه بالموت على قيد الحياة. لم يكن على طبيعته لشهورٍ ولم يلاحظ أحد، رغم وجود "صاحب الابتسامة البريئة" و"صديقٍ الروح" دومًا إلى جانبه. تحدّث إليهم كثيرًا عن ألمه، لكن الندبة في قلبه كانت أعمق من أن تبرأ بالكلمات.

من يقول إن الزمن يُنسي الإنسان، فهو لا يدرك الحقيقة. هناك فرق شاسع بين الجرح والندبة؛ فالجرح قد يلتئم مع مرور الوقت، ولكن الندبة تبقى كعلامة أبدية، تذكّرك بأقسى لحظات حياتك."

قد يقول البعض إن العالم لا يزال في طور النمو، وإن السلام يجد طريقه ببطء نحو الاستقرار، لكن الألم يعلّم الإنسان دروسه بسرعة وبقسوة، كما حدث معه. ولينضج هذا العالم حقًا ويصبح أكثر فهمًا

وإنسانية، فإن التدخل الإلهي ضروري؛ فالألم يصنع الحكمة في قلوب البشر، والعالم لا يزال طفلًا صغيرًا يتعلّم المشي في طريق الحياة.

الحبّ كلمة كبيرة، تتعدّد معانيها وتتباين من شخص لآخر، فكلّ شخص يرى الحبّ من منظوره الخاص، ويرتبط بمعناه وفقًا لمشاعره وتجارب حياته. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: "من الذي حصر الحبّ في شعور موجه فقط نحو الشريك؟ من نسب المحبة للشريك، للصديق؟" لقد بدأ ذلك التصنيف منذ سنوات، حيث أصبح من العيب أن تُقال كلمة "أحبّك" للصديق، وكأن الصداقة تفقد نقاءها عند الاعتراف بها، وتُصبح محل شك إذا عبّر الشخص بصدق عن حبّه لصديقه، فيُفسر ذلك الحبّ وكأنه ميل معاكس للطبيعة البشرية. يا للسخرية! يُعد من العيب أن يُفصح الإنسان عن حبّه لصديقه، ولكن ليس من العيب أن يتبادلوا الكلمات الجارحة التي تترك في القلب ندوبًا لا تُشفى، وتنهي العلاقات إلى الأبد.

لقد اعتادت المجتمعات على كتمان المشاعر الصادقة تجاه بعضهم، فنادرًا ما يمكن للمرء أن يجد ابنًا أو ابنةً يعترفان بحبّهما لوالديهما، والعكس كذلك، ونادرًا ما يمكن للمرء أن يجد أشخاصًا في علاقات مع أصدقائهم يتبادلون كلمة "أحبّك"، وكأنها محرّمة ومعيبة في حق الآخر. ولا يدرك الكثيرون أن علاقة الصديق لا تقل أهميّة وصعوبة عن علاقة الشريك، بل في بعض الأحيان تكون أصعب وتتطلب المزيد من الصدق، والأمانة، والعطاء، والمحبة، والصبر، والتفاني، والأهم من كلّ ذلك، الثقة.

إن ما يميّز علاقة الصديق عن علاقة الشريك هو غياب الجوانب الجسدية، أما فيما عدا ذلك، فإنهما يتشاركان في كلّ شيء.

في تلك الفترة، كان يعيش في حالة وجوم طويلة، حيث اعتاد أن يعود إلى المنزل ليجد نفسه محاصرًا بين أربعة جدران وطاولة تكتظ بحاسوب وكتب مبعثرة كأفكاره ومشاعره المتشتّتة. في تلك العزلة، لم يفارقه "صاحب الابتسامة البريئة" أبدًا؛ كان يأتي إليه يوميًا، يجلسان معًا ويتحدّثان عن تفاصيل حياتهما. كان يراه الملاذ الوحيد والبطل الذي صمد بجانبه وقت انكساره، فبينما انصرف الآخرون، ظلّ "صاحب الابتسامة البريئة" ثابتًا، متحمّلًا صمته وتهشّم روحه، متحدّيًا أقاويل الناس وانتقاداتهم له.

لكن كما يُقال: "كلما أوغلت في عمق الإنسان، اكتشفت عيوبه أكثر." ومع مرور الأيام، بدأت الظروف تدفعه إلى التحسّس من كلّ كلمة، وكأنها تعيد إحياء جراح الطفولة القديمة التي لطالما دفنها. صار يُظهر تلك المشاعر علنًا، ما جعله يلاحظ جوانب خفيّة في شخصية "صاحب الابتسامة البريئة." فقد كان رغم جاذبيته المحبّبة للجميع، يحمل أفكارًا تقليديّة تُزعجه، أبرزها اعتقاده بأن التعبير عن المشاعر شيء معيب بالنسبة للرجل، وأنه يجب إخفاؤها وكبتها خلف جدران النفس. تلك الآراء كانت تثير حنقه، وتحوّل محادثاتهما إلى مشاحنات مستمرّة بسبب آرائه التي استفزّته بشدّة.

ورغم أن "صاحب الابتسامة البريئة" كان غالبًا يُنكر مسؤوليته عن تلك المشاجرات، إلا أنه كان ينقله، دون قصد، من دوّامة حزنه إلى دوّامة أخرى مليئة بالارتباك والمشاعر المتضاربة. ومع أن ذلك التباين في شخصيتيهما أصبح أكثر وضوحًا، إلا أن العلاقة بينهما لم تنقطع، وذلك بفضل قراره هو، حيث تعلّق به بشدّة وكأنه بات جزءًا لا يتجزأ من حياته اليومية وروحه.

في كلّ مرّة كانت تحدث خلافات بينهما، كان هو من يبادر بخطوة المصالحة، حتى وإن كان الخطأ بوضوح من "صاحب الابتسامة البريئة." وإذا ما حدث وأقدم الأخير على المصالحة، كان يرفض الاعتراف بخطئه، مؤكدًا أنه ليس المُخطئ، مما أضفى بُعدًا نرجسيًّا على علاقتهما.

ومع اللقاء اليومي، كان يكتشف تدريجيًّا أن "صاحب الابتسامة البريئة" يستخدم المجاملة والكذب كوسيلة للتعامل مع الآخرين، وهي صفات يكرهها بشدة ويشعر بالاشمئزاز منها. ورغم غضبه من ذلك، كان يتغاضى عن ذلك السلوك معه، لأنه يدرك تمامًا مدى تعلّقه به وفهمه العميق لشخصيّته، حتى صار يعرفه كما يعرف نفسه.

إنّ "صاحب الابتسامة البريئة" كان يحمل في داخله تناقضاتٍ عجيبة، كأنّه شخصيّتان في جسدٍ واحد. من جهة، كان طيب القلب، محبًا للخير، مخلصًا، يساعد الآخرين، ويغفر أخطاءهم بسهولة. ومن جهة أخرى، كانت تظهر شخصيّته الأخرى القاسية؛ تلك التي تعشق ذاتها، وتستخف بمشاعر الآخرين تحت ستار المزاح، وتختار راحتها ولو على حساب من حولها، دون أن تعترف بخطئها.

ورغم كلّ تلك الصفات، كان يرى فيه جوهرًا طيبًا يستحقّ العناية والاهتمام. كان يبرّر أفعاله بحداثة سنّه؛ لم يتجاوز الثالثة والعشرين بعد، ولم تلامس حياته تلك التجارب القاسية التي تصقل الأرواح وتضبط الأفكار. كان دائمًا يسعى جاهدًا لتقويم شخصيّته، ليصنع منه إنسانًا جديدًا، أفضل حتى منه، فقد كان يرى فيه جوهرة حياته رغم الكلمات الجارحة التي تصدر دون وعي أو قصد.

ربما كان خوفه الشديد من فقدانه، كما فقد آخرين قبله، سببًا في ظهور ذلك الإزعاج بعينيّ "صاحب الابتسامة البريئة." ولعله أدرك، على مضض، أن العطاء الزائد يجعله يبدو كالمغفّل في عيون الآخرين. بئس هذا الزمن الذي صارت فيه الطيبة سمة الضعف، وصار فيه العطاء بلا مقابل دلالة على الحماقة.

كانت خلافاتهما اليومية تدور حول خوفه عليه، وعناده المتكرّر. كلّ منهما كان يضع اللوم على الآخر، ولكن الخطأ غالبًا ما كان يكمن عند الأخير. كانت مواقف "صاحب الابتسامة البريئة" المتعنتة وكأنّه يحاول أن يتقمّص دور البطل في مسرح الحياة، تاركًا الآخر يواجه دوّامة من الصراعات.

تكرار اللوم والعتاب جعله يسترجع كلمات الكاتب حسن سامي يوسف في روايته "عتبة الألم" وفي مسلسله "الندم": "قد أكون على خطأ، ولكن هذا لا يعني بعد أنك على صواب." تلك الكلمات كانت تعبيرًا صادقًا عن حاله، واختصرت ما كان يمرّ به من حيرة وألم.

في لحظة تشبه تلك التي عاشها "عُروة" في مسلسل "الندم"، عندما سأل صديقه "سامر" عن رواية لـ"غسّان كنفاني"، ليردّ عليه بعد أن سأله سامر عن اسمها: "ما تبقى لكم". ثم تساءل "عُروة" في يأس: "ترى ما الذي سيتبقى لنا في نهاية المطاف؟ الوجع، أو النزف؟ من الممكن ألا يبقى لنا سوى الندم؟" كانت تلك الجملة تختصر كلّ ما يعانيه، فهو لا ينتظر الندم، بل يعيش الوجع يومًا بعد يوم، ويشعر بالنزف الذي ينهش روحه، ليصل به الحال إلى اليأس والندم المحتوم.

كان مفهوم الصداقة عند "صاحب الابتسامة البريئة" يختصر في كونه مجموعة أصدقاء يجتمعون في أوقات الفراغ للضحك والتحدث، ثم

ينصرف كلّ منهم إلى بيته، معتبرًا أن الصداقة لن تدوم، فلكلّ شخص حياته، وستأتي مرحلة يتوقف فيها الأصدقاء عن اللقاءات المتكررة، ليصبح اللقاء محدودًا مرّة في الشهر، حيث ينشغل كلّ شخص بعائلته وواجباته.

ربما كان في كلامه بعض المنطق؛ فالحياة أصبحت أكثر تعقيدًا، ولكن ليس كلّ الناس يسيرون على النهج نفسه، وليس الجميع يؤمنون بفكرته. إن لغة التعميم التي تحدّث بها كانت تثير بداخله شعورًا بالاستفزاز؛ فهي لغة من لا يدرك تعقيد العلاقات الإنسانيّة، ولا كلّ من تزوّج وأنشأ أسرة ينسى أصدقاءه، ليكتفي باللّقاء مرّة كلّ شهر أو شهرين. في تلك الحالة، لن يبقوا أصدقاء بل سيصبحون معارف، وذلك ما كان يقوله له دومًا.

كلمات "صاحب الابتسامة البريئة" كانت تزعجه، وتثير داخله أسئلة لا تهدأ: "لماذا يقول لي هذا الكلام؟ إلى ماذا يلمّح؟ هل يريد أن يهيئني لفراق قادم؟" وربّما كان ذلك الكلام يعبّر عن حالته، ولكنّه لم يكن يدرك أن ما يقوله ليس مناسبًا للجميع، وأنه قد يجرح أحدهم بعبارات تبدو عادية بالنسبة له. ووسط تلك الأحاديث، كانت هناك تصرفات طفوليّة مستفزّة يقوم بها، فقط لأنه يشعر بالراحة عند فعلها، دون التفكير في راحة الآخرين.

لم يكن يريد أن يراه بذلك التفكير الضيّق، وكان يحاول دائمًا فتح النقاش معه، لكن عقليّته الدوغمائيّة وجداله البيزنطي جعلاه يشعر بالعجز. كلّ شيء كان يتوقعه، إلا أن يسمع منه، وتحت ستار المزاح، أن "صاحب الابتسامة البريئة" لا يتخلى عن أصدقائه إلا إذا أرادوا هم

الرحيل، أما هو، فإذا أراد الابتعاد، فإنه يتصرف بطريقة تجعل صديقه يهرب، ليبرر قائلاً: "هو من أراد أن يرحل، لست أنا من تخلى عنه".

كانت تلك الكلمات، المغلّفة بالمزاح، تصيب قلبه كالسهم، تاركةً فيه أثرًا لا يمحى، كأنها إعلان صريح عن الهجر، دون كلمة وداع، وكأن الصداقة أصبحت شيئًا يمكن التلاعب به وتحطيمه بلا تردد.

يومًا بعد يوم، كان يُصدَم من تصرفات "صاحب الابتسامة البريئة" وسطحيّته، حتى وصل به الحال إلى التساؤل بمرارة: "هل يتعمّد فعل ذلك ليجبرني على الابتعاد عنه؟" تصرّفاته وكلماته كانت كالشوك المغروس في صدره، لا تترك له سوى الألم والتفكير: "هل من الممكن أنه بقي بجانبي وساندني فقط بدافع الشفقة؟ هل شاهد المواقف التي مررت بها وهجري من الآخرين، فقرر ألا يتخلّى عني؟ ولكن، ألا يدرك أن هذا أفظع وأشد قسوة من أن يهجرني معهم؟"

حتى لو كان يريد المزاح، وحتى لو كان يظنّ أن المشاعر لا تخصّ الرجال، هناك كلمات لا يجب أن تُقال أبدًا. إنَّ الكلمات ليست فقط أدوات للتواصل؛ فهي سيوف تصيب القلب، تشتّت العقل، وتدفع الإنسان إلى حافة الانهيار. صدق من قال: "الملافظ سعد".

أخبره ذات مرّة أنه الشخص الأقرب إلى قلبه، ضمن دائرة صغيرة لا يريد أن يُدخل إليها أحدًا آخر، خوفًا من خيبة جديدة، وطلب منه وعدًا بألا يخذله، فوعده "صاحب الابتسامة البريئة" بذلك. لكن تصرفاته الجارحة كانت تُدمّر روحه وتنهش نفسه، بينما لم تضر الآخر بشيء. كانت تؤلمه أفعاله، تؤذيه نفسيًا، في حين أن تصرفات الأخير لم تمس منه شعرة، لكنها آذت غيره من أولئك الذين يتعاملون بالكلمة والإحساس، وليس بسطحية خالية من عمق المشاعر.

ورغم كلّ شيء، لم يتوقف عن المحاولة لتثبيت العلاقة بينهما، رغم أنه شرح له مرارًا الطرق التي تؤدي إلى رضاه، لكنه لم يلقَ إلا العناد والاستخفاف.
مع مرور الوقت وتكرار المشاكل، شعر بأنه لم يعد قادرًا على الصبر على تصرفاته الصبيانيّة وكلماته المستفزّة، التي كان يدرك تأثيرها عليه ولكنه يصرّ على قولها. وإن لامه، أجاب بقسوة: "هذه هي شخصيتي، والله خلقني هكذا، ولن أتغير من أجل أحد، ومن لا يعجبه، فليضرب رأسه في الحائط".
وفي يومٍ من الأيام، بعد شجارٍ طويل، قال له كلمة قاسية لأول مرّة، فما كانَ من "صاحب الابتسامةً البريئة" إلا أن ردَّ بغضبٍ: "هل أفهم منك أنك لا تريدني أن أزورك مجددًا؟" أجابه بهدوء: "أنا لم أقل ذلك، ولكن إذا فهمتها هكذا، فالمشكلة ليست مني." كرر "صاحب الابتسامة البريئة" السؤال بإصرار، كأنه يستجدي سماع الجواب ليتمكن من لعب دور الضحية المعتاد، حتى اضطر للردّ عليه أخيرًا قائلاً: "نعم، لك ذلك. نعم، استرح ولا تشغل بالك بعد الآن".
وقف "صاحب الابتسامة البريئة" ببرود، وكأنّ كلماته كانت علامة للوداع، وقال: "حسنًا، لك ذلك." ومضى مغادرًا. رافقه إلى الباب، وتبادلا تحية الوداع بأصوات خافتة، وكأنّهما يودّعان سنوات من الذكريات والصداقة بحزنٍ ثقيل يلتف حولهما، ليغلق الباب على علاقة انتهت بكلمة، ولكن ستبقى آثارها جرحًا لا يندمل.
تركه على قراره، الذي بدا وكأنه يجلب له الراحة، وعاد إلى غرفته، حيث غرق عقله في دوامة من الأفكار المتشابكة، مدركًا أحيانًا وغارقًا في اللاوعي أحيانًا أخرى. "ترى، ما الذي كان يقصده 'صاحب

الابتسامة البريئة' بتصرفه هذا؟" تساءل بصمت، رغم أنه أفضى له بكلّ نقاط ضعفه، تحدث معه عن كرهه للناس، وعن خيبات أصدقائه التي كان شاهدًا عليها، وعن تعلّقه الشديد به، وعن أنه سيقطع حبل الصداقة مع دائرته الصغيرة إذا تعرض لخذلانٍ جديد. جلس في صمتٍ ثقيلٍ يضغط على صدره وقال لنفسه: "هل كانت هذه طريقته في تعليمي ألا أكون محبًا ومعطاءً وحساسًا مع المقربين؟ أم أنها صفعةٌ جديدة لأفقد ثقتي في كلّ من حولي؟ أم سمع عني شيئًا وصدّقه فقرر الابتعاد بصمت؟ أم أنه ضاق ذرعًا بتعلقي به؟"

تلك الأسئلة كانت كجروحٍ مفتوحةٍ تنزف بلا توقف، وهو لا يملك لها أجوبة. لكنّه استمر يحدّث نفسه بمرارة: "لا أرى سببًا لتصرفه بهذه القسوة، سوى أنه يتبع مبدأ الكبرياء أو يرى في تعلقي به انتقاصًا من عزة نفسه، رغم معرفته الكاملة بظروفي وبأنني لم أعد قادرًا على تحمل خيبةٍ جديدة." تنهد قائلاً: "لقد اكتفيت من الخيبات، واكتفيت من هذه الحياة المرهقة." ثم تابع، وهو يحاول عبثًا أن يجد مبررًا لما حدث: "حتى لو كنت على خطأ، هو كان يقابل الخطأ بالخطأ".

عاد يخاطب نفسه قائلاً: "هل انزعج من تصرفاتي معه؟ رغم أنني أخبرته بأنني أتعامل معه كأخي الصغير، لأنني أخاف عليه. هل ضاق ذرعًا من خوفي واهتمامي المفرط به؟ من أحلامي التي شاركته إياها؟ أم من تقلبات مزاجي التي كانت ردود فعلٍ على أقواله وأفعاله غير العقلانية؟" تذكّر كيف كان "صاحب الابتسامة البريئة" يستهين بتلك الأفعال، في حين أنها كانت تعني له الكثير.

استمر في حديثه مع نفسه قائلاً: "ترى، ماذا سيكون ردّه لو صارحته بأن كلماته كانت لي أقسى من الألم الجسدي الذي تعرضت له، والذي كان

هو شاهدًا عليه؟ كيف سيرد لو أخبرته بأنه كان يشكّك دائمًا في صدق مشاعري، ويقول لي ببرود إنه لا يهتم إذا تحدّثت إليه أو لا، وإن كلّ اهتمامي لن يغيّر شيئًا؟ أو عندما كان يعتبر الأصدقاء مجرد تمضية وقت، أو يطلب مني تغيير أشياء في شخصيتي، وحين أطلب منه التغيير يرفض ويقول إن الذي لا يعجبه الأمر فليبتعد؟"

اختتم حديثه مع نفسه، قائلاً: "لماذا أتحدث عن هذا؟ ربّما نسيت أنه لا يؤمن بالمشاعر والإحساس، فهو يعتبرها ضعفًا، وصفةً خاصةً بالنساء فقط. ويشكر الله دائمًا أنه خُلق دون مشاعر حتى لا يكون ضعيفًا".

سكت لبرهة، وقد تجمعت الدموع في عينيه، ثم قام وغسل وجهه، ونظر في المرآة. رأى انعكاسًا شاحبًا لشخصٍ أنهكه الحزن، وعيناه مثقلتان بالسواد والتعب. ظلّ ينظر إلى نفسه بأسى وندم، وقال لنفسه أمام المرآة بصوتٍ منكسر: "لست حزينًا، صدّقني، لكنّه مروّع جدًا أن تكتشف بأنّك كنت مجرّد كذبةٍ لشخصٍ شعرت معه لأول مرّة أن كلّ شيء يبدو حقيقيًا".

بعد عدة أيام، حاول مرّة أخرى أن يصالحه، مدفوعًا برغبةٍ في الخروج من دوّامة أفكاره الحالكة التي غمرتها الظلمة والتفكير السلبي. من جهةٍ أخرى، كان يرى أن الأمر لا يستحق كلّ ذلك العناء، وهمس لنفسه: "هل أبالغ في تقدير الأمور؟" كانت تلك الأسئلة بمثابة محاولة بائسة لتهدئة ذاته، ومحاولة للهروب من لهفة الشوق التي أثقلته في غيابه، فقد كانت أيامه تبدو فارغة دون ذاك الشخص الذي كان يعيش حياته بطبيعتها، غير عابئ بذلك الفراغ الذي تركه، وهو الأمر الذي أفصح عنه بلسانه.

رغم مبادرته بالصلح، ظل شعوره باردًا، وكأن شعلة العلاقة قد أطفأها برد الجفاء. تساءل في صمت: "إلى متى سيظل الحال هكذا؟ هل أتوقع كلّ شيء منه بعد ما حدث؟ لماذا يتصرف هكذا وهو يعرفني جيدًا؟ هل ينبغي أن أغفر له كونه كأخي الصغير؟ هل يمكن أن تُغتفر كلّ الأقاويل؟ أم يجب عليّ أن أتخذ موقفًا حتى يراقب تصرّفاته ويعدّلها، لأنها ستؤذيه في المستقبل على عكس ما يتصور؟" كان يطرح تلك الأسئلة وهو في حالةٍ يرثى لها تلك الليلة.
واصل اتباع ذلك السلوك لفترة قصيرة، وقد تسلّلت إلى ذهنه فكرة أن كلّ شيءٍ بات متوقعًّا من ذاك الأسمر، "صاحب الابتسامة البريئة"، وليّن القلب ولكن قاسي الأفعال. أدرك أن ليس لكلّ التصرّفات مبرّراتٍ منطقيّة، ولذلك يُقال إن على الإنسان أن يراجع تصرّفاته قبل اتّخاذها. استمرّت الأمور على حالها، والبرودة تتسرّب إلى قلبه، وكأنّهما لم يكنّ بينهما أي ودّ. لكنه ظل يتساءل: "ما السبب؟ هل تسير الأمور هكذا عادةً؟".

وفي أحد الأيام، وبعد موجة من الألم الحاد تحت إبطه الذي امتد إلى صدره، اكتشف أنه يعاني من تضخم في غدد صدره. كان ذلك الشعور يراوده كشكّ متكرر بين الحين والآخر، لكنه لم يتوقع أن يتحول إلى حقيقة مقلقة. ومع استمرار الألم في صدره، قرر أخيرًا مراجعة الطبيب. هناك تلقى خبرًا مفاجئًا؛ حالته تُعدّ نادرة جدًا لدى الرجال، إذ تبيّن أنها نوع من السرطان غير الخطير في مراحله المبكرة. لكن الطبيب حذّره من أن تفاقمه يرتبط بشكل كبير بالعوامل النفسية، تلك التي تقتات على الضعف الداخلي وتدفع صاحبها إلى دوامة الأمراض المستعصية. اختار أن يتكتّم عن الأمر تحت مسمى "كتلة دهنية"، ليس خوفًا من المجتمع،

بل خوفًا على والديه، ولأنه كان يكره سياسة التعاطف التي قد يبديها الآخرون.
في عطلة نهاية الأسبوع قرّر أن يذهب مع "صاحب الابتسامة البريئة" بنزهة في السيارة ولكنه لم يكن بالمزاج اللازم نظرًا لنزاع دار بينه وبين أخيه، بسبب سياسة اللّوم الذي يتّبعها أخوه الأوسط دون إبداء أي كلمة جميلة تصبّ في قلب الملام.
ترى، لماذا يتربى الإنسان في المجتمع العربي على سياسة اللوم؟ لماذا يغيب عنه فن إبداء الرأي بموضوعيّة وبأسلوب لطيف يحمل في طياته الكلمة الطيّبة، تلك الكلمة التي يحتاجها كلّ شخص وقع في مأزق لتليّن قلبه وتمنحه القوة لتدبر أموره؟ يُنشأ الإنسان في كثير من الأحيان على اللوم وإظهار السلبيات لمن يمرّ بمحنة، وكأنّه يشمت به أو بأحواله التي دفعته إلى السقوط. وعندما يعاند أو يملأ قلبه بالضغينة، أو يتصرف بطريقة غير عقلانية، يجد المجتمع يعيد تكرار دائرة اللوم، دون أن يتعلّم من تجربته وكيف يمكن للكلمة الطيبة أن تغيّر مسار الأمور.
استمرّ في طريقته مع "صاحب الابتسامة البريئة" في السيّارة وهو يخبره عمّا حصل معه، ليقاطعه صديقه كما هي العادة في منتصف الحديث وليضع اللوم عليه، تحت مسمّى "أنه أخوك الأكبر، عليك باحترامه".
ترى من وضع تلك القواعد. هل الاحترام مرتبط بالأعمار أو بمن هو أكبر من الآخر. ترى لماذا الأكبر لا يحترم الأصغر، ليظلّ كبيرًا ومثالًا يحتذى به بعيون من هم أصغر منه. الاحترام للمحترم، ، تلك سياسة العقلاء، فسياسة القطيع تُركت لمن يعشقون ركوب الأمواج، فليست كلّ سياسة أو قاعدة ثابته أو صحيحة، لكلّ قاعدة علامة استفهام.

عندما قال له ذلك الكلام، بادر الصديق بطريقته المعتادة التي تحمل في طيّاتها اللامبالاة الممزوج بالكبرياء المزوّر، "لا علاقة لي، الأمر مرتبط بينك وبين أخيك". ردّ عليه بكلمات ممزوجة بطعم الندم "شكراً لاستماعك لي، لم أكن أعلم أن الأمور تزعجك إلى هذا الحد، الحق ليس عليك بل على من أعطاك التقدير."

سياسة التعالي والكبرياء قاتلة إن وقعت بين الأشخاص المقرّبين، فهي ليست دائمًا مفيدة وتعطي الشخص قيمته اللازمة، بل بعض الأحيان تكون سبب أكبر المشاكل التي تولّدها تلك الشخصيّة ولكن على المدى البعيد.

ردّ عليه صديقه "انظروا من يقيّمني، المريض النفسي، المجنون"، ردّ عليه "أنا مريض نفسي ومجنون، لما تجبر نفسك على البقاء معي؟"، قال: "حسنة وشفقة"، تلك الكلمات كانت العامل الأساسي ليقول: "كفى، عليّ أن أقطع حبل الود والثقة بيننا" فالكلمات التي تخرج من أفواه الغاضبين أو في لحظات المزاح تكون الأصدق.

كانت تلك الكلمات التي تفوّه بها "صاحب الابتسامة البريئة"، ولو من دون قصد، كالسهم الذي ترك ندبة عميقة في قلبه لا تندمل. شعر وكأنه كان يخبره بلا مبالاة أنه لن يتمسّك به، وهو الذي قطع أصابعه لأجله، وأعطاه كلّ ما يمكن تقديمه.

كيف كان شعوره عندما سمع تلك الكلمات من أعزّ شخص عليه، الذي بقي بجانبه طوال تلك الفترة العصيبة، ورآه حقيقيًا وسط بحر الخذلان، ليكتشف في النهاية أنه لم يكن بجانبه إلا بدافع الشفقة؟

من تلك اللحظة، أدرك أن الإنسان أحيانًا يحتاج لمحاولةٍ أخيرة، يثبت بها لنفسه أن الرحيل هو الخيار الأصح، وأن هناك أشخاصًا لا يؤتمنون. أولئك الذين استطاعوا النوم وهم يعلمون أنهم تسببوا في ضيق قلب

شخص أحبّهم بصدق، لا يؤتمنون. أولئك الذين نسوا العشرة وتخلّوا دون تردد، لا يؤتمنون، حتى وإن عادوا.

كان يؤلمه أن يستمر "صاحب الابتسامة البريئة" في حديثه الجارح، رغم علمه بمرضه الأخير، وبأن العوامل النفسية والظروف والصدمات هي التي أوصلته إلى ذلك الحال. ورغم ذلك، ظلّ يتحدث معه بالأسلوب نفسه بلا اكتراث، وكأن الأمر لا يعنيه شخصيًا.

في تلك الفترة، كان "صاحب الابتسامة البريئة" يعمل عملين معًا، يذهب صباحًا ويعود إلى المنزل في منتصف الليل بسبب ظروفه الماديّة والتزاماته. ثم أتى اليوم الذي أجرى فيه عمليّته الجراحيّة، وكان يوم عطلة لذلك الصديق من وظيفته الثانية.

دخل إلى غرفة العمليات وقلبه يعتصر خوفًا من ألا يخرج سالمًا. نجحت العملية، وبعد أن استراح قليلاً، فتح عينيه ليجد "صديق المواقف الجادة" واقفًا بجانبه، يبتسم له. قال لنفسه: "يا الله، دائمًا أنت السبّاق رغم قلة أحاديثنا." ابتسم له وجلس بجواره ليطمئن عليه.

رنّ هاتفه، وكان "صديق الروح" يتصل ليطمئن عليه أيضًا، مع أنه اعتذر عن الحضور بسبب ظروفه. لكنه لم يتركه وحده، وظل يكلّمه من حينٍ لآخر. وبعد دقائق، وصلته أيضًا رسالة من "الوفي الهادئ" من ألمانيا، يطمئن عليه، ذاك الصديق الذي لم يغيّره الزمن رغم كلّ ما حدث.

تلقّى رسائل من العديد من الناس الذين لم يتوقّع اهتمامهم، فصُدم من أولئك الذين تواصلوا معه واطمأنّوا عليه، بينما انصدم أكثر من الذين كانوا ضمن دائرته الصغيرة. أولئك الذين كان يركض لإسعافهم ويظلّ بجانبهم في محنتهم حين دخلوا المستشفى، لكنهم لم يكترثوا به، بل

تجاهلوا وجوده تمامًا. وبعضهم، حتى وإن كلّمه، كان حديثه باردًا، وكأنه مجبر على السؤال.
تلقّى رسالة من "صاحب الابتسامة البريئة"، ذاك الشخص الذي توقّع أن يكون أول من يهرع لزيارته، لكن الأخير اختلق عذرًا بحجّة أن الوقت متأخّر وأنه لا يستطيع المبيت عنده بسبب التزاماته بالعمل في اليوم التالي. فَبْرَكَ حكاية من نسج الكذب، وكان يعلم أنه يكذب، لكنه اختار أن يعفيه من الضغط، قائلاً في سرّه: "لا أريد أن أحمّله فوق طاقته، فهو يعمل في وظيفتين، أريده أن يستمتع بعطلته وأن يفرح بوقته بعيدًا عن سجن العمل".
عاد إلى المنزل بعد الخروج من المستشفى، وبتعليمات الطبيب، وجب عليه الحفاظ على حالته النفسية، فالأمراض النفسية قد تودي به إلى مشاكل أخرى، إذ كان معرّضًا لارتفاع ضغط الدم وأمراض عصبية.
في اليوم التالي، وصله اتصال من "ضعيف الشخصية"، ذاك الصديق الذي ظل بجانبه مع تلك المجموعة الصغيرة، لكنه كان كالغائب الحاضر، موجود جسدًا فقط. راسله ليطمئن عليه، وبعد الرد عليه، اختفى لأسبوعين دون سبب يذكر، ثم عاد يراسله بوقاحة. هنا قرّر أن يبعده عن حياته كما فعل مع الآخرين، لأن شدّة الأزمة كشفت له من يستحق البقاء ومن لا يستحق.
أما بالنسبة لـ"صاحب الابتسامة البريئة"، فقد كان يعمل بجد في وظيفتين، وظل يتواصل معه بشكل دوري، مبررًا غيابه عن زيارته بأعذار واهية. لم يستطع أخذ إجازة بسبب غياب زميله لمدة أسبوعين، وعندما جاء يوم عطلته من العمل الأول يوم الأحد، توقّع منه أن يأتي، لكنه لم يأتِ في الأحد الأول بحجّة التعب وعدم القدرة على

الاستيقاظ. الغريب أنه لم يَطلب منه المجيء، ومع ذلك، لم يغضب، بل قدّر حالته.
ومرّ الأسبوع الثاني، وحاول إيقاظه يوم الأحد كما طلب "صاحب الابتسامة البريئة" منه، لكنه لم يستيقظ ولم يأتِ.
في الأسبوع الثالث، جاء لزيارته أخيرًا. حينها، كان قد اتخذ موقفًا واضحًا، وقال له: "أنا أقدّرك وأتفهم ظروفك، وأنت الوحيد الذي قدّرت له ذلك، لكنني توقعت منك أن تأتي يوم عطلتك، فليس هناك مبرر آخر. وإن لم تستطع في الأسبوع الأول، كان يمكنك أن تطلب من عملك الثاني التأخر ساعةً واحدة لتؤدي واجبك على الأقل".
ليرد عليه ببرود: "كنت أتواصل معك، ووجدتك بصحة جيدة، فلماذا عليّ أن آتي لرؤيتك؟ نحن على تواصل، ولا أريد أن أطلب إجازة بلا فائدة. لو كنت في العناية المركّزة، لكنت طلبت لزيارتك بالطبع".
نظر إليه نظرة امتلأت بالغضب والحقد، فوجده يضحك ساخرًا ويقول: "بالطبع أمزح، ولكن أليس في كلامي وجهة نظر؟" فردّ عليه قائلاً: "اعتبر نفسك، خلال هذين الأسبوعين، أردت أن تحلق شعرك، كيف وجدت الوقت لذلك؟ ألم تطلب إذنًا؟" ليجيب: "هذا شعري، والعناية به واجب عليّ".
رغم وجعه الجسدي وروحه المرهقة، ظلّ يختلق الأعذار له ولكنه كان يختلق ألمه، جرحه، الكلمات القاتلة، السلاح الذي سيقضي على آخر جزء من روحه التي تتمايل يمينًا ويسارًا والتي قد تنهار أرضًا من نفخة هواء.
ظلّ يختلق الأعذار لأعز شخص يملكه في حياته، ظنًّا منه بأنه يخاف عليه كما يخاف هو، يصونه كما يصون هو، من أولويّاته كما هو

والقائمة تطول، لم يكن يعلم بأن ذاك الشخص يعتبره كشخص عابر لا أهميّة له في حياته، كشخص رنّ جرس بيته وكان يستدل على عنوان خاطئ.
كان يستغرب من الكلمات التي كان يقولها له، تلك الكلمات الجارحة التي يخجل العدو وقت النزاع أن يقولها، ولكنها كانت في ذاك الملجأ، ذاك عديم المشاعر والأحاسيس، ذاك الشخص الذي لا يؤمن بمشاعر الرجال، الذي لا يعرف معنى الصداقة، معنى أن تكون ذاك الجزء الدافىء في حياة صديق، أن تمد له يد العون، أن تسنده وقت الحاجة. عجزت الكلمات عن وصف حالته.
ترى كيف يشعر الإنسان الذي تعلّقت روحه بإنسان آخر ظنّ أنه ملجأه الوحيد بعد موجة الغدر والخذلان الذي عاشها ليجد في آخر المطاف أن ذلك الملجأ أشبه بحبّة مسكّن للاستعداد لموجة قاضية؟ بل كيف يشعر من يبالغ في تقديم مشاعره وحبّه الصادق بأفعاله لشخص لا يقدّر ولا يصون تلك الافعال ليسمع في آخر الحديث بأن كلّ تلك الأفعال لا تعني له ولا تحرّك به ذرّة تقدير؟
والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ترى كيف لبضعت كلمات مألفة من عدّة أحرف أن تنهي علاقة، أن تنجرح، أن تغيّر مزاج، أن تدخل في دوّامة من الاكتئاب لا مخرج لها؟
ظلّ على حاله معه، حتى جاء يوم دار بينهما جدالٌ عنيف، فقرّر الابتعاد عنه. وبعد مرور عشرة أيام، تلقّى منه رسالة طابعها الاعتذار، لكن دون اعتراف حقيقي بالخطأ، إذ وضع اللوم عليه كعادته، كما لو أن كبرياءه أبى أن ينهار. لكنّه، تلك المرّة، لم يحتمل؛ فسدّ الطريق في وجهه. لم يكن يعلم كيف اتّخذ ذلك القرار، لكن ربما كان شعوراً

عميقًا بالقرف والخيبة، إذ وصل إلى مرحلةٍ من اللامبالاة، حيث باتت روحه يغمرها برودٌ قاتل تجاهه.
وبعد مرور ثلاثة أسابيع على تلك الأيام العشرة التي تواصل فيها "صاحب الابتسامة البريئة" معه، جاءه اتصال من صديق مشترك، يطلب منه مقابلته. وحين التقى به، فوجئ بوجود "صاحب الابتسامة البريئة". وكأنّه أراد أخيرًا الاعتراف بخطئه، بعد جهد كبير ومحاولات مستميتة من الصديق المشترك لإقناعه بأن الخطأ منه. وبعد أن أفصح عن أخطاء "صاحب الابتسامة البريئة" للصديق المشترك، الذي بدوره وضعه في موقفٍ لا يحسد عليه، واجهه بكلّ الأدلة التي أثبتت خطأه. وأمام ذلك الحرج، اعترف بخطئه، ووعد بالتغيّر.
ولكن لم يمضِ شهر حتى عاد إلى ما كان عليه، بل وأسوأ. وكأن نشأته قد حُفرت بأعماق طباعه التي ترفض التغيّر.
المؤلم في الأمر أنّه، خلال ذلك الشهر، عاش بأملٍ جديد منه، سعيدًا بعودة العلاقة وتصفّح صفحة جديدة بينهما، فهو كان يعدّه ملاذًا وسط متاهات الحياة. ولكن "صاحب الابتسامة البريئة" كان مصرًّا على تلطيخ تلك الورقة الجديدة، ملوّثًا كلّ شيء.
بعد تلك الفترة العصيبة، أخذ يردّد بينه وبين نفسه مقولة جبران خليل جبران: "لا تثق مجددًا في نفس الشخص الذي استباح جرحك، فالطباع دائمًا لا تتغيّر".
كان ذلك الشخص المثقل بالهموم منذ صغره، الذي بدا كأنه نسي خطوات مسيرته، متجاهلًا سنوات عمره التي تتساقط كأوراق الخريف. كلّما مضى الناس نحو المستقبل، عاد هو ليندثر في الماضي أكثر، عالقًا بين ذاته وروحه المبعثرة. كان ذلك الشخص الذي لوّح كثيرًا

للأطفال، وابتسم للعابرين بنقاء قلبه، وأحبّ والدته حبًّا أكبر من التصورات. قضى الليالي الطّوال في صراع مع أفكاره، يحاول الهروب منها، وأحبّ بصدق، وهجره ألف صديق. عاش صراعات أزليّة مع ذاته، وتعرّض للخداعٍ، فصُعق ونهض بكامل قواه. تلقّى خيبات كثيرة، ورغم محاولاته الدؤوبة للعودة أقوى، لم يستطع.

ها هو البلد يرزح تحت وطأة حربٍ جديدة جرّاء العدوان الإسرائيلي، حربٌ تضاف إلى سلسلة الحروب الّتي لا تنتهي، حيث يبدو أن العالم بأسره يدّعي السعي نحو السلام، وفي الوقت نفسه يغرق في دوّامة الدماء والصراعات. الجميع يزعم أنّه على حق، لكن لا أحد يدفع الثمن سوى المواطن البريء، ذاك الذي لا حول له ولا قوة. إنها حقًا حياة غريبة وقاسية، حيث تُسلَب فيها الطفولة، وتُفقد فيها الأحلام.

في إحدى الليالي، وبعدما استنزفه اليأس حتى آخر قطرة، كان رأسه يعتصره الألم، وعيونه يلفّها الغباش، ونفسيته مهشّمة كمرآة قديمة تناثرت شظاياها. جلس في زاوية مظلمة، يحاول الهروب من واقعه، وبدأ يستمع إلى قصيدة صغيرة من مسلسل تلفزيوني، ألحانها من توقيع "إياد الريماوي"، وصوتها الحزين بصوت "كارمن توكمه جي". كان يكرّرها مرارًا، كأنّها لحنٌ يعزف على أوتار ألمه، فتعمّق جراحه وتواسيه في الوقت ذاته. تلك القصيدة التي تقول:

"كتمت هَوَاكَ زمانا في الفؤاد
وفي أَنين الروح سرّ حكايتي
وعن سؤال الناس عن صمتي لم أزل
أُجيب بالصمت حتى باح صمتي".

كانت تلك الكلمات تسري في أعماقه كجمرة تحت رماد، تحمل في طياتها صدىً لآلام وآمال لم تعد تضيء إلا كنجوم بعيدة في ليل حالك. وجد أن القصيدة قصيرة، خالية من الكلمات التي تستطيع احتواء مشاعره المتلاطمة، وكأنها لم تتمكن من أن تحمل كلّ ألمه وغصّاته العميقة. شعر بأنها ناقصة، وبأنّها لم تلامس جراحه بالشكل الذي يريده، رغم أنّها تحدثت عن العشّاق، لكنها بالكاد لامست روحه المجروحة في بعض المحطات. أحسّ بأن ما قيل لا يروي عطش حزنه ولا يغني عن صرخاته المكتومة، فقرر أن يكمّلها بنفسه، علّه يجد بين السطور ما يعبر عن قلبه المثقل بالهموم.

أمسك قلمه بيدٍ مرتجفة، وهو يجرّ خلفه آلامه المكدّسة، وبدأ يكتب ما عجزت القصيدة الأصلية عن التعبير عنه، كتب ما اختزن في قلبه وما كان يأمل أن يحدث في واقعه الموجع:

"انتظرتُ لقياكَ أزمنةً في الأنين
وفي جحيم القلبِ بدايةُ معاناتي
وعن سؤالِ الناسِ عن صمودي لم أزل
أُجيبُ بالصبرِ حتى انكسرَ صبري.
تمنّيتُ رؤياكَ أعوامًا في الغياب
وفي نزيفِ الروحِ ضلّت هدايتي
وعن سؤالِ الناسِ عن سعادتي لم أزل
أُجيبُ بالبِشْرِ حتى ماتَ فرحي.
عشتُ ذكراكَ عمرًا في العتمة
وفي حريقِ الصدرِ ختامُ رحلتي

وعن سؤالِ الناسِ عن حلمي لم أزل

أُجيبُ بالوهمِ حتى ضاعَ حلمي"

لم يذكر لأحد أنّه هو من كتب تلك التكملة، لكنه كان يعلم في أعماق قلبه لمن كتبت، ولمن وجّهت تلك الكلمات. كان يدرك تمامًا بماذا شعر عند كتابتها، وكأنّها قطعة من روحه تركها على الورق، علّها تبقى شاهدة على وجعه المستمر، على حبّه الصامت، وعلى كلّ ما لم يستطع البوح به للآخرين.

أدرك عندها أن المواقف، تُقنع وتشكّك، تثبت وتنفي، تبني وتهدم. أدرك أن المواقف براهين. كان يسمع من الكثيرين في السابق قولهم إن الحياة لا تتوقف عند أحد، وكان لا يصدقهم، لكن في لحظة ما، بدأ في فهم معنى تلك العبارة. وجد نفسه يكمل حياته دون الأشخاص الذين كان يعتقد أنهم جوهر وجوده، لكنه بالفعل، كان يريد أن يستمر حتى لو فقد الجميع. غير أن تعلّقه بذاك الأخير ترك فجوةً كبرى في قلبه، فجوة لا يستطيع ملؤها أحد.

وسط الحرب التي يشهدها وطنه، نظر من حوله ليجد أقرب الناس إليه؛ "الوفي الهادئ" في ألمانيا، و"صديق الروح" في تونس بعيدًا عنه، و"صديق المواقف الجادة" مغلوب على أمره بظروفه التي تمنعه من التواجد بقربه. ومن جهة أخرى، تلك "الفتاة المحجّبة" التي رافقته منذ أيام الدراسة، ظلّت دائمًا بجانبه كشاهدة على كلّ لحظة مرّ بها. رغم ثباتهم ودعمهم الكبير، ظلّت روحه تحتاج لمن يفهمها، ولم يوجد من يملأ تلك الفجوة في قلبه. فالذي يُهدم لا يستطيع أحد إعادة ترميمه.

أما "صاحب الابتسامة البريئة"، فتحوّلت ابتسامته البريئة إلى ابتسامة أنانية، وبقي ذلك الأخير يتأرجح بين الاشتياق والرغبة في الكلام،

وبين عدم الاعتراف بالخطأ حفاظًا على كرامته. قريبًا وبعيدًا في آنٍ معًا، يشعر بالصراع الداخلي. كان في أعماقه يعلم أن "صاحب الابتسامة البريئة" لن يجد في يده أصابعًا كافية ليعضّها ندمًا على ما سيخسره في المستقبل، سيقف أمام نفسه ليرى إن كان سيكابر حتى على مشاعره وضميره. من الممكن جدًا، فأمثال أولئك يمتلكون قدرة لا توصف على التخلّي عن كلّ البشريّة، مقابل لحظة واحدة من راحتهم الزائفة.

بعد كلّ ذلك، اكتشف أنه الأسوأ على الإطلاق في اختياراته. يعترف بأنه كان فريسة سهلة، يقفز قلبه حبًا للأصدقاء، ويتعبه حسن الظنّ وبراءة النِيّة، وافتراضه الدائم أن من أمامه ملَك في هيئة إنسان. في كلّ مرّة، يبتسم لشخص جديد يدخل حياته، آملًا أن تكون العلّة في من خذلوه، ويطمح إلى إثبات استحقاقه لتقدير مشاعره الصادقة، لكن العكس دائمًا هو الذي يحدث.

أدرك أخيرًا أن الأشخاص في قربهم منه وتودّدهم لم تكن سوى وسيلة لتحقيق أغراضهم وقضاء مصالحهم، ولم يبقَ نادمًا على معروف قدّمه، بل صار ناقمًا على أصحاب الأقنعة المزيّفة، الذين يتلونون بألف وجه. هو ليس مدينًا لأحدٍ إلا لأولئك الذين ما زال يشعر تجاههم بأنهم يحبّونه لأجله فقط، حتى يثبت العكس.

لقد نسج وعيه ونضجه من تجارب مريرة، وصاغ هدوءه من اندفاعات كلفته الكثير. قبل أن يقف بثبات، تأرجح وسقط مرّات عديدة، وعاد من حافة الهاوية مرّات أخرى. كلّ خيطٍ في ثوب النضج دفع ثمنه جزءًا من روحه، فأدرك حينها أن ثوب النضوج باهظ الثمن. لم يكن يحبّ الوحدة أو يشجع عليها، لكن الحق يُقال، هو دائمًا أفضل حالًا حين يكون بمفرده، فالآخرون لم يمنحوه سوى التعب.

أتى اليوم الموعود، اليوم الأخير، كان يجلس في غرفته عند الساعة الرابعة بعد الظهر، محاطًا بجدرانها الأربعة، ينظر حوله يمينًا ويسارًا، وعيناه يغمرهما الغبش. بدأ يهمس بينه وبين نفسه، بصوت مثقل باليأس: "لقد خسرتُ كلّ شيء في هذه الحياة، الأحلام التي تمسّكت بها بشدة لأجل البقاء، تبخّرت وانطفأ بريقها، وغرقت في ليلٍ بارد لا ينتهي. لم يعد لديَّ سبب لأعيش، ولا هدفٌ أتمسّك به. أنا شبحٌ هشّ، محطّم الروح، فاقد الإيمان بكلّ شيء، أجرّ نفسي بلا هدف على هامش الحياة، عبء ثقيل لا يشعر أحد بوجوده إن بقي أو غاب. فتجهّز لاستقبالي، أيها الموت".

نهض بخطوات بطيئة، حافي القدمين، متّجهًا نحو المطبخ. كان يشعر ببرودة الأرضية تسري من أسفل قدميه إلى رأسه، ويداه تتحسّسان الجدران وكأنهما تتلمّسان آخر خيوط الحياة. أصابع يديه ترتجف وتغمر بعضها بعضًا بحثًا عن طمأنينة ضائعة. وقف أمام جرار معدات المطبخ، فتحه ببطء بأصابعه المرتجفة، وعيناه تائهتان بين الأدوات، حتى وقعتا على السكين. أمسك بها، وكانت حادة وكبيرة، وكأنها تلبي نداءه الأخير. عاد إلى غرفته، بنفس الخطوات المثقلة باليأس.

جلس، أمسك بقلم حبر أسود، وورقة بيضاء، وبدأ يكتب رسالته الأخيرة، رسالة وداعٍ أخير. كان يدرك أن تلك الرسالة لم تكن مجرد كلمات، بل كانت آخر صرخة في وجه الحياة، موجّهة إلى كلّ من دخل حياته وخرج، وكلّ من ظلّ فيها ثابتًا. بالنسبة له، كان الجميع شريكًا في الجريمة، والجميع ترك أثرًا في نهايته التي خطّها بيده، في تلك اللحظة التي بات فيها الظلام أقرب إليه من كلّ شيء آخر.

حاولتُ مرارًا أن أعود كما كنت، شخصًا منسوخًا عن الآخرين، تابعًا لما وجدتُ عليه أبي ومجتمعي، لكن جميع محاولاتي باءت بالفشل. لم أستطع الاستمرار على هذا النهج لأيام حتى، وكان كلّ جهدٍ لطمس ذاتي الحقيقية يزيدني ألماً ويشعرني بالغربة عن نفسي. ويا لها من غربةٍ مؤلمة أن تُزيّف حقيقتك وتبتعد عنها.

كنتُ دائمًا أحافظ على مسافةٍ بيني وبين الآخرين، وحينما سمحتُ لأحدهم بالاقتراب مني، دفعتُ ثمن هذا الخطأ ببطءٍ وهدوء، لكنّه كان ألمًا مؤذياً لا يهدأ. لقد كنتُ أظنّ أنني وجدت ذلك الشخص الذي يرى الانكسار خلف قناع قوتي، ويشعر بالاكتئاب المكمون وراء محاولات هروبي، ويقرأ السواد تحت عينيّ، ويفهم العزلة التي تخبئ حزنًا عميقًا، ويسمع النحيب المختنق خلف ابتسامتي الزائفة. كنتُ أؤمن أن هناك من يرافقني في ظلامي، حتى استيقظتُ على الحقيقة الموجعة، وهي أن لا أحد هنا معي سوى وحدتي، لا أحد يفهمني حقًا سواي.

كبرتُ بطريقةٍ مخيفة، قلّلتُ من عدد أصدقائي، واجهتُ حزني ببرودٍ تام، تجاهلتُ كأنني لا أرى، ورغم رؤيتي للأشياء بوضوح، اخترت الموت كخلاص. ومع هذه الأوضاع التي نعيشها، تذكرت مقولة محمود درويش: "لا أعرف من باع الوطن، ولكنني أعرف من دفع الثمن". أما أنا فأقول: "لا أعرف من فعل بي هذا، لكنني أنا من دفعت الثمن."

أمسك السكين بكلتا يديه، وطعن نفسه في حلقه طعنةً سريعة، كي لا يكون هناك أمل في إنقاذه. لقد أراد، بل ثابر، أن يبقى مع الله، ولكن ظروفه وتجارب حياته قادته إلى قرار مؤلم بترك هذه الحياة التي لم تكن له يومًا. فلا حياة خارجية يمكنه الهروب إليها من الحرب، ولا صحة تبقى له تقوى على صراع المرض، ولا أصدقاء يستند إليهم من خيبات الأمل ومرارة الخذلان. حتى الناس من حوله، لم يجد فيهم عزاءً، بل استشعر نظراتهم بعد أن فشلوا في تشكيله حسبما أرادوا هم.

ففي حالته الحالية، يعلم جيدًا من بدأ عذابه، ويعلم من لم يوقف هذا العذاب في بدايته. لكنه، مع امتداد هذا الألم وتعاظمه، أصبح عاجزًا عن تحديد عدد أعدائه، وعدد المتسلين به، وعدد من يعبثون به لمجرد التسلية أو الانتقام. لا يعلم عدد المرضى النفسيين الذين وجدوا فيه متنفسًا لعقدهم، ولا عدد السطحيين الذين يراقبونه دون شفقة، ولا عدد إخوة الشيطان الذين يقتاتون على ضعفه. الشيء الوحيد الذي يعلمه هو أن كلّ ما مرّ به وما زال يمرّ به يقف في كفّة، وهذه الفتنة وهذا الكابوس المستمر يقفان في كفّة أخرى أشد وطأة.

لا يعلم إن كان هذا الكابوس قد انتهى، أم أنه سيظل يرافقه ما دام على قيد الحياة. تراوده الأسئلة القاتمة: هل سيظل اسمه يُذكر بعد مماته؟ وهل ستظل تلك السنوات الأربع، التي يدّعون فيها أنه يكلمهم عبر الحسابات الوهمية، على ألسنتهم حتى بعد رحيله؟ أم أن عبء عقدهم النفسية سينتقل إلى ضحية جديدة، تاركينه طي النسيان؟

الموضوع أعقد مما يبدو، فقد دفع ثمنًا باهظًا لما لم ترتكبه يداه، ثمن ندمٍ ثقيل أنهكه، وتبعه يأس قاتم لا نهاية له. أمام هذا الظلام الذي يحيط به، قرر الهروب، قرر أن ينهي معاناته، أن يلجأ إلى الموت كملاذ أخير قد يريحه من كلّ أوجه العذاب التي التهمت روحه يومًا بعد يوم.

ألم تطل هذه الفتنة؟

ها قد أُغلقت بوّابة يأسه بعد رحلة طويلة من العذاب، وانتهى بوحه الصامت كصرخة ضائعة في ظلامٍ لا يُسمع صداها، تاركًا وراءه فراغًا باردًا وصدى ألمٍ لم يلتفت إليه أحد.

– الخاتمة –

السؤال هنا ليس عن كيفية حياة هذا الفتى، بل عن موته مئات المرات خلال حياته. فحياة الإنسان لا تُقاس بما عاشه، بل بما خطط لتحقيقه قبل أن يودّعها، أو ربما بمنحى آخر، بما خطط الآخرون لتحقيقه في حياة هذا الإنسان، وهم يحيكون مصيره من خلف ستار. وعند النظر في ما انقضى من حياة هذا الفتى، لم يجد سوى اليأس والفشل حليفين له، يتعثر بهما عند كلّ منعطف. فقد كان يواجه الرفض باستمرار، عاجزًا عن إيقاف أصدقائه من الرحيل، أو حماية من أحبّ، أو حتى التعرّف إلى عدوه الخفيّ الذي كان ينهش في روحه بصمت.

مقارنة بإنجازات الآخرين، كانت محاولاته مجرد خطوات ضائعة بلا أثر، كأنها لم تحدث أبدًا. كان يتمنى لو أنه مات مثل أي إنسان عادي، دون ضجيج أو عبث، لكنّ الروايات العظيمة تُوزن بنهاياتها، تلك التي تقلب القصة رأسًا على عقب. لطالما حاول أن يرى في إخفاقاته لمحة من الأمل، ظنًا منه أن الفشل مجرد تجربة تمهد لطريق الإنجازات، فتمسّك بتلك الفكرة الباهتة وواصل السير.

لكنّ الأعداء الخفيين الذين أحكموا عليه قبضتهم، والظروف المفتعلة التي نسجوا خيوطها حوله، جعلته يتيقّن أن هذا العالم مظلم، وأن النور بعيد. لم تعد لديه القوة لرؤية الجانب المشرق؛ فقد سلبوه تلك القدرة، وجعلوه أسيرًا لظلامه الخاص.

كان من المفترض أن تأخذ قصتي منحًى مختلفًا، أن تتغير نهايتها، أن تتحول وتتبدل كما يحدث في أغلب الروايات، حيث تحمل النهاية بصيصًا من الأمل أو انقلابًا يغيّر المأساة. لكن قصتي لم تُكتب لتتغير، بل كُتب لها أن تنتهي كما هي، لتظل مأساويةً بلا فرصة للنجاة. هي

قصتي التي عشتها بكلّ تفاصيلها المرهقة، لكنني لم أستطع أن أنهي حياتي كما حدث في الرواية، بإرادة ذاتيّة. لو كانت هذه القصة لشخص آخر، لكان المصير مشابهًا، ولانتهت حياة ذلك الشخص كما - حدث في نهاية الرواية.

في الوثائقي الخاص بها "إتس أوكي"، تقول الفنانة اللبنانية إليسا: "تعلّمتُ أنّ في الحياة قصصًا لا خيار أمامي سوى تحمّلها، مهما بلغت قسوتها. وعندما نعيش الخطر، الخيبات، والوجع، نظنّ أنّ الغد لن يأتي، لكنه يأتي دائمًا. فكلّ شيء في الحياة يمضي ويستمر، ولا خيار لنا سوى أن نكون أقوياء ونسير معها بشجاعة، لأنّه دون شكّ، لا يوجد غروب إلّا ويليه شروق شمس جديدة."

هكذا تنتهي قصّتي... والآن، حان الوقت لأضع القلم جانبًا وأستريح.

يحقّ لك أن تستريح

النهاية

أرشدني لبوابة اليأس

رواية في ثلاثة مشاهد فيها الكثير من البوح الصامت

هي رواية عن الخذلان والندم، عن الخيبات التي لا تنتهي، وعن القلق الذي يسكن الروح، عن الظلم والافتراء اللذين يثقلان القلب، وعن التمسك بالألم والإعراض عن السعادة، حتى يصبح الفرح غريبا لا يُعرف طريقه، هي رواية تفتح بوابة اليأس التي تسحب صاحبها نحو الهاوية دون حبل نجاة فلا أمل بالعودة، كل ذلك نتيجة أسباب غامضة وصمت ثقيل في لحظات كان البوح فيها يمكن أن ينقذ الروح.





دار توتول
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - شارع المكتبات